


Scanned by CamScanner

كتاب الجمهورية

سبتمبر ٢٠١٠

www.gombook.net.eg

رئيس مجلس الإدارة
ورئيس التحرير

على هاشم

ALIHASHEM@ELTAHRIR.NET
E-mail:aly_hashem@gitc.com.eg

كتاب الجمهورية

# مستقبل الإسلام

تأليف : سكاون بلنت

ترجمة وتقديم:
د . صبرى محمد حسن

دار
الجمهورية

# مقدمة الترجمة

بقلم الدكتور
صبرى محمد حسن

اسمه بالكامل ولفريد سكاون بلنت وهو شاعر وكاتب إنجليزى، ولد هذا الرجل فى اليوم السابع عشر من شهر أغسطس من العام ١٨٤٠ الميلادى، وتوفى فى اليوم العاشر من شهر ديسمبر من العام ١٩٢٢، أى أنه بلغ من العمر اثنين وثمانين عاماً، هذا يعنى أيضاً أنه توفى بعد زوجته بنحو خمس سنوات.

بدأ هذا الرجل حياته فى وقت مبكر إلى حد ما، ولما كان من أسرة من صفوة مُلاَّك الأراضى والأطيان فى جنوب إنجلترا، ولما كانت هذه الأسرة صاحبة تقاليد محافظة عتيدة ولها بعض الارتباطات ببعض زعماء حزب المحافظين، فقد بدأ الشاب عمله فى السلك الدبلوماسى وهو فى سن الثامنة عشرة، إذ كان فى البداية ملحقاً فى السفارة البريطانية فى أثينا، يوم أن كان الملك أوثو Otho جالساً على عرش اليونان، وبعد ذلك، ولمدة اثنى عشر عاماً، كان عضواً فى السفارات والمفوضيات الأخرى لدى كثير من الهيئات الأوروبية التى تعلَّم القليل منها فى مهنته، وكان يسلى نفسه

بإقامة الصداقات، والفترة ما بين ١٨٥٩ و١٨٦٩ أمضى منها بضعة أسابيع في إسطنبول أثناء حكم السلطان عبد المجيد، كما أمضى عامين في ألمانيا في زمن الاتحاد الألماني، وأمضى عاماً في إسبانيا في زمن الملكة إيزابيلا Isabella، وأمضى عاماً آخر في باريس في ظل نفوذ الإمبراطور نابليون الثالث، وأمضى فترة قصيرة في كل من الجمهورية السويسرية، وأمريكا الجنوبية والبرتغال، وفي كل مكان ذهب إليه كانت ذكرياته مُرضية ولا بأس بها، لكن هذه الذكريات كانت خلواً من أية مصلحة سياسية أو أهمية رسمية من أي نوع كان.

تزوج ولفريد سكاون بلنت من آن Anne إيزابيلا Isabella نويل Noel بلنت التي ذاع صيتها تحت اسم آنابيلا Annabella، وآن بلنت هي بارونة ونتورث Wentworth، وقد ولدت في اليوم الثاني والعشرين من شهر سبتمبر من العام ١٨٣٧ وتوفيت في شهر ديسمبر من العام ١٩١٧، هذا يعني أنها توفيت عن عمر يناهز الثمانين عاماً.

آن بلنت هذه، التي رافقت ولفريد سكاون بلنت، في رحلاته هي حفيدة الشاعر الوطني العظيم اللورد بايرون Byron، ومن ثم ورثت بشكل أو آخر بعضاً من مشاعر التعاطف مع قضية الحرية في الشرق، وهذه المشاعر كان لها هي أيضاً تأثيرها على عملهما فيما بعد، وبدا لهما في ظل أحداث العام ١٨٨١-١٨٨٢، أن مسألة تزعم قضية الحرية العربية يمكن أن تكون محاولة جديرة بالاهتمام مثل المحاولة التي مات اللورد بايرون بسببها في العام ١٨٢٧.

لم يكن زواج بلنت من آن في العام ١٨٦٩ زواجاً سعيداً، فقد أسفر عن إجهاض زوجته المستمر، ولم يثمر إلا طفلة واحدة بقيت على قيد الحياة، هذه الطفلة هي جوديث Judith آن Anne دوروثيا Dorothea بلنت، بارونة ونتورث السادسة عشرة، وصمدت آن بلنت في وجه الحزن الذي كان يتملكها بسبب الإجهاض الذي كان يضيبها والأطفال الذين كانوا يموتون بعد الولادة مباشرة، وعلى الرغم من أن ولفريد كان متيماً بابنته جوديث فقد كان يفضل أن يكون المولود ذكراً.

ولفريد بلنت هذا، كانت له عشيقات متعددات، حتى عندما كان يعيش مع

زوجته. وفى العام ١٩٠٦ وعندما بدأت عشيقته دوروثى كارلتون تتردد بصفة منتظمة على منزله انفصلت عنه زوجته وتنازع ولفريد بلنت وابنته جوديث، عقب وفاة أمها فى العام ١٩١٧ ملكية خيول المزرعة، وأحيلت القضية إلى القضاء الذى أصدر حكماً لصالح جوديث فى العام ١٩٢٠ الميلادى؛ وأصبحت المزرعة بكاملها خاضعة لإدارة جوديث.

## الترحال فى الجزيرة العربية ونجد

بعد أحد عشر عاماً من الخدمة فى وزارة الخارجية راح الرجل هو وزوجته يترحلان على نطاق واسع فى الجزيرة العربية وفى الشرق الأوسط وفى الهند، فهل تأثر سكاون بلنت هو وزوجته بالزيارة التى قاما بها إلى نجد؟

يقول بلنت: " النتائج التى ترتبت على هذه الزيارة الودية التى قمنا بها إلى عاصمة الجزيرة العربية المستقلة، هى ووجهة النظر التى حصلت غليها من هناك عن نظام الحكم القديم الموجود منذ قرون عدة فى وسط شبه الجزيرة العجيب أكدا فى داخلى مشاعر حبى وحماسى وإعجابى بالعرق العربى، جاءت هذه الرحلة بمثابة "حبى" السياسى "الأول"، كانت الرحلة بمثابة حكاية من الحكايات الرومانسية التى شدتنى وأخذتنى وشغلتنى، الأمر الذى جعلنى أصمم على بذل كل ما فى وسعى لمساعدتهم فى المحافظة على غطية الغلال الثمينة، كانت الجزيرة العربية تبدو لى أرضاً مقدسة، عثرت فيها على مهمة من مهام الحياة التى يتحتم علىَّ القيام بها، وأنا أظن أنى لا أبالغ بأى حال من الأحوال عندما أروح أعدد الفضائل التقليدية التى رأيت الناس يمارسونها هناك".

## نظام الحكم البدوى

يردف بلنت قائلاً :

" ينظر المستشرقون كلهم إلى نظام الحكم البدوى باعتباره شكلاً من أشكال اللصوصية وقطع الطرق، وواقع الأمر أن هذا النظام، فى أبعاده الحضارية، ينزع عامة إلى مثل هذه الأمور، لكن هذا النظام فى قلب الجزيرة العربية خلو من هذه الأشياء، فى نجد وحدها دوناً عن سائر بلاد الدنيا التى زرتها سواء فى الشرق أو الغرب، تتجلى النعم الثلاثة العظيمة التى نتفاخر

بها نحن فى أوروبا، على الرغم من امتلاكنا لها، هذه النعم الثلاثة هي حقائق واقعة فى نجد، الحرية، والمساواة، والأخوة، هذه النعم الثلاثة هي مجرد أسماء فى فرنسا، فى الوقت الذى يراها الناس مدونة على الجدران والحوائط، لكن كل رجل حر هنا فى نجد يتمتع بهذه النعم، هنا فى نجد الناس يحيون الحياة التى يحلم بها المثاليون منا، حياة خالية من الضرائب، وبلا شرطة، وبلا تجنيد وبدون قهر من أى نوع كان، القانون الوحيد فى المجتمع هو الرأى العام، والنظام الوحيد فيه هو مبدأ الشرف، وجدت هنا أيضاً شعباً فقيراً لكنه قانع وراض، وفى ضوء احتياجاته البسيطة والقليلة يعيش أفراده حياة وفرة وفيض، هذا الشعب أو بالأحرى هؤلاء الناس كانوا يجيبون عن كل الأسئلة التى وجهتها إليهم (وكنت قد طرحت هذه الأسئلة فى بلاد كثيرة ولم أخرج منها إلا خاوى الوفاض) قائلين : " الحمد الله، نحن لسنا مثل الأمم الأخرى، نحن هنا لنا حكومتنا الخاصة بنا، ونحن هنا راضون وقانعون " كل ذلك هو الذى ملأنى دهشة وسروراً وحولنى من متفرج على محن وبلايا العالم الشرقى إلى شخص يمتلئ حماساً إلى مد نعم الحرية هذه إلى الأمم الأخرى الواقعة فى إسار العبودية ".

## طموح بلنت إلى تعرف الأفكار الدينية

كان بلنت يطمح إلى تعرف الأفكار الدينية عند الشعوب الإسلامية تعرفاً تاماً، لكن مرور هذا الرجل بين الشعوب الإسلامية، وعلى الرغم من تعاطفه معها، كان مثل مرور الغرباء على فكر هذه الشعوب الجاد، وفى غياب التحامل الدينى المسيحى بكل أنواعه، تعلم بلنت احترام الإسلام، لكنه لم يفهمه ولم يحدث أن ناقش تعاليم الإسلام مع أى من علماء الشريعة الإسلامية أو الضالعين فى الفكر الإسلامى الحديث، وعلى الفور أدرك الرجل ضعف، بله وسخافة موقفه، ولذلك قرر تخصيص فصل الشتاء من العام ١٨٨٤ كله لدراسة الملامح والسمات الرئيسية، على أقل تقدير، للعقيدة الإسلامية من منطلق تأثير هذه العقيدة على السياسة الإسلامية.

فى ضوء هذا الرأى، وضع الرجل خطة شتاء ذلك العام، فكر الرجل فى الذهاب إلى جدة، فى موسم الحج أو قبله، وتثقيف نفسه هناك قدر

المستطاع، ثم يغتنم بعد ذلك أية فرصة يمكن أن تؤدى إلى المزيد من الحركة والعمل، تمنى الرجل لو اخترق الجزيرة العربية مرة ثانية إن أمكن من خلال الحجاز أو ربما اليمن إلى نجد. كانت تراود بلنت فكرة مفادها أنه ربما عثر بين الوهابيين على مُعَلِّم يمكن أن يعطيه المذهب الوهابى باعتباره مقابلاً للمذهب العثمانى، أو بالأحرى الإسلام الوهابى باعتباره مقابلاً للإسلام العثمانى، وأن يتمكن مع مثل هذا المعلم من ابتكار حركة للإصلاح، يضع هو عناصرها السياسية ويضع المعلم عناصرها الدينية، الواضح أن هذه الفكرة المجنونة كانت تتملك الرجل، لكنه أخذها مأخذ الجد فى ذلك الحين، يقول بلنت : " اعترافى هنا بذلك الذى فعلته سوف يوضح للقارئ المصرى الأسباب التى دفعتنى إلى السير فى هذا الخط بعد ذلك بعامين فى القاهرة ".

## تأثر بلنت بلويس صابونجى

لم يتأثر بلنت بالبلاد والشعوب العربية والإسلامية فقط، وإنما تأثر أيضاً بواحد من علماء الشرق يدعى لويس صابونجى، الذى تعرف على شخصه بصفته مدرساً للغة العربية، هذا الصابونجى من أصل نصرانى، إذ كان عضواً فى نحلة من النحل الكاثوليكية فى سوريا، بل إن هذا الصابونجى تولى عمل الكاهن وخدم فى قداس الداعية فى روما، لكن الرجل تخلى مؤخراً وخلع رداء الكهانة، وازدادت مشاعره الطيبة وتعاطفه الطيب مع الإسلام عن تعاطفه ومشاعره تجاه نحلته الأصلية. وذاع صيت الرجل بوصفه مدرساً للغة العربية، وكان على دراية كبيرة بالمسائل شبه السياسية والمسائل شبه الدينية التى كان يجرى الحوار حولها بين المسلمين، فى ذلك الوقت. الصابونجى هو الذى قام بالعمل الرئيسى نيابة عن المرحوم الدكتور بادجر Badger فى جمع القاموس العربى - الإنجليزى الذى صدر تحت اسم الدكتور بادجر، هذا الصابونجى كان يصدر أيضا فى لندن فى العام ١٨٨٠ الميلادى، جريدة عربية اسمها النحلة والتى كان يجرى الكلام فيها عن الإصلاح الدينى بواقع مرة واحدة كل شهر، وكان الحديث عن هذا الموضوع أكثر الخطوط الفكرية حداثة وتقدماً، كان هناك شىء من الغموض يحيط بتمويل هذه الجريدة الصغيرة، ووراء التعجيل بإصدارها، لكن بلنت لم يفلح فى سبر أعماق ذلك الغموض، الصابونجى يروى أن راعيه الأساسى فى ذلك كان هو

سلطان زنزبار، ذلك الحاكم شديد الاستنارة، وصاحب الذهن الليبرالى فى ذلك الوقت، وذهب فكر بلنت إلى أن المبالغ التى كانت تدعم هذه الجريدة، وأن اتجاهها السياسى كان فى بعض أجزائه من فعل الخديوى إسماعيل المخلوع.

يزاد على ذلك أن الصابونجى كان يعلم بلنت اللغة العربية، وهو الذى يترجم برقيات عرابى قبل إرسالها إلى بلنت، وكان يترجم أيضاً رسائل الشيخ محمد عبده قبل إرسالها إلى رئيس الوزراء البريطانى، وكان أيضاً همزة الوصل بين بلنت وأعضاء الحزب الوطنى عندما تعذر على بلنت الحضور إلى مصر.

## انشغال ذهن بلنت بالسياسة

شغل سكاون نفسه تماماً طوال سنوات تقاعده الأولى بشئونه المنزلية، ولكن ذهن الرجل تحول إلى السياسة تدريجياً بمحض المصادفة، فى العام ١٨٧٣. وعندما وجد الرجل نفسه بحال صحى طيب، وهرباً من أواخر الصيف فى إنجلترا قام الرجل وزوجته بأول رحلة مشتركة إلى بلاد الشرق، سافرا عن طريق بلجراد والدانوب إلى إسطنبول، التى التقيا فيها السير هنرى إليوت فى السفارة البريطانية، وجددا تعارفهما على بعض الأصدقاء الآخرين الذين لهم علاقة بالسفارة، ومن بينهم الدكتور ديكسون الذى سيرد ذكره فى الكتاب. لم يشغل بلنت نفسه كثيراً بالغليان الداخلى الذى كان يدور داخل الإمبراطورية العثمانية، لكن مشاعره بالشكل الذى كانت عليه فى تلك الأيام، كانت تميل إلى الأتراك وليس المسيحيين.

## بلنت فى آسيا الصغرى

اشترى بلنت اثنى عشر حصاناً من سوق الخيل فى إسطنبول، وعبر بها إلى أن وصل إلى سكوتارى حيث أمضى فيها ستة أسابيع صيفية جميلة تجول خلالها هو وزوجته فى التلال، وخلال حقول الخشخاش فى آسيا الصغرى، مبتعدين فى ذلك الوقت عن المدقات ( الطرق ) المطروقة، ومتمتعين بالاطلاع على القسم الأكبر من حياة الفلاحين الأتراك، بالقدر الذى يسمح به جهلها الكامل بلغة هؤلاء الفلاحين، وتأثرا، مثل سائر الرحالة الآخرين، بالطيبة

الحقيقية لهؤلاء الفلاحين، كما تأثرا أيضاً بسوء حكومتهم وفسادها، حكم بلنت هو وزوجته على فساد الحكومة من واقع ما وقفا عليه من ألاعيب وأساليب المجموعات الشرطية، أو الحرس شبه العسكرى المرافق لهما، الذى كان أفراده يتعاملون مع هؤلاء الفلاحين معاملة الجنود الذين يكونون فى بلد جرى غزوه والاستيلاء عليه.

## بلنت وزوجته فى الجزائر

أمضى سكاون بلنت هو وزوجته فصل الشتاء التالى، أو بالأحرى الأشهر الأولى من العام ١٨٧٤ فى الجزائر التى شهدا فيها منظراً أذكى فيهما فكرة مفادها : أن شعباً شرقياً يخضع خضوعاً مهيناً لآخر غربى، أعقبت الحرب التى كانت دائرة بين فرنسا وألمانيا، انتفاضة عربية فى الجزائر، انتشرت ووصل مداها إلى الحدود الخارجية للجزائر وبدأ المواطنون المسلمون يلاقون أشد أنواع الضيق والصرامة بسبب القمع والقهر المسيحى، وجرى استغلال ذلك فى مصادرة الممتلكات الوطنية بكل الصور والأساليب الممكنة لصالح المستعمرين الأوروبيين، ومحاباة لهم على حساب المواطن الأصلى، وعلى الرغم من حب سكاون بلنت الشديد للفرنسيين ( إذ كان فى باريس أثناء الحرب وكان من المتحمسين للدفاع عنها يوم أن كانت محاصرة ) فقد وجد الرجل مشاعره فى الجزائر تتجه كلها ناحية العرب، استمع سكاون بلنت هو وزوجته إلى أغانى البدو الرُّحل وهم يؤبنون بطلهم الراحل عبد القادر الجزائرى، وعلى الرغم من أنهما لم يفهما هؤلاء البدو فى كثير من الأمر بسبب جهلهما بلغتهم، فقد أعجبا بهم وتعاطفا معهم، وشهدا ذلك التناقض العجيب بين حياة هؤلاء البدو الرُّحل الرعوية النبيلة ومعهم قطعانهم من الإبل والخيول، والتى تشكل موروثاً راقياً وعامراً بذكريات الأعمال البطولية، وبين دناءة المستوطنين الفرنجة الحقيرة، ومعهم خماراتهم وخنازيرهم، ولم يفت عليهما ذلك التضارب والتنافر اللذين جعلا المستوطنين الفرنجة سادة للأرض وملاكاً لها، وجعلا من أصحاب الأرض الحقيقيين خدماً لهؤلاء الفرنجة.

# بلنت فى مصر

كان ذلك هو الدرس السياسى الجديد الذى حفظه بلنت عن ظهر قلب عندما زار مصر فى المرة الأولى عام ١٨٧٥ – ١٨٧٦ . ومع ذلك لم يدر بخلد بلنت أو زوجته فكرة زيارة مصر أكثر من كونها مجرد مغامرة ترحالية فى بلاد شرقية، وعندما غادر بلنت وزوجته إنجلترا كانت خطتهما ترمى إلى دخول مصر من الناحية الجنوبية عن طريق سواكيم وكسلا والنيل الأزرق، على أن يشقا طريقهما متجهين شمالاً إلى القاهرة فى فصل الربيع، لكن هذه الخطة لم تتحقق مطلقاً بسبب المشكلة التعسة التى حلت بمصر بسبب الحملة الحبشية، وأن القسم الوحيد الذى تحقق من هذه الخطة هو أنه بدلاً من النزول فى الإسكندرية، باعتبارها الجمرك الرئيسى، فى ذلك الوقت واصلا ترحالهما عن طريق الترعة إلى السويس التى وضع فيها أقدامهما على أرض مصر للمرة الأولى.

## آل بلنت فى بحيرة المنزلة ويصلون إلى السويس ومنها إلى قصر النيل

شاهد بلنت وزوجته بحيرة المنزلة فى اليوم الأخير من العام ١٨٧٥ ووصفها وصفاً دقيقاً ثم نزل إلى البر فى السويس مع دخول الأيام الأولى من العام ١٨٧٦، وأستأجر بعض الإبل والجمالة من السويس، وسلك طريق القوافل القديم إلى القاهرة، ويدخل بلنت هو وزوجته القاهرة بعد نحو خمسة أيام ويخيمان دون قصد لقضاء الليل خلف أهداف ضرب النار التى كانت القوات الخديوية تتدرب عليها، ويتجاهل بلنت وصف القاهرة لأنه يود رؤية الريف وعدم مضيعة الوقت فى مدينة هى أوروبية بعض الشئ، فكر بلنت فى أن يكون مكان مخيمهما خلف النيل أو بالأحرى مجاوراً للنيل وعليه واصلا المسير.

لم يفهم أو يتفهم سكاون بلنت أو زوجته توسُّلات الجمالة إليهما بالتوقف والسماح لهم ومعهم جمالهم بالعودة، ولم يفهما أيضاً أنهما كانا يظلمانهم ويسيئان إليهم عندما أجبراهم على كسر القاعدة القبلية التى تمنعهم بحكم

كونهم بدواً من الصحراء الشرقية، من عبور الصحراء إلى الغرب، وعلى الرغم من توسلات هؤلاء الجمالة البدو واصل بلنت وزوجته سيرهما بأن عبرا كوبرى (جسر) قصر النيل، وسارا فى الطريق المؤدى إلى الجيزة، وهنا بدأت تتراءى لهما أهرامات الجيزة، وواصلا سيرهما فى اتجاهها بشوق وحنين، ولم يتوقفا إلا عند انحسار النهار الذى داهمهما عند غروب الشمس عليهما بالقرب من قرية الطالبية Tolbiya.

## بلنت وزوجته فى الطالبية

كانت الطالبية فى ذلك الزمان قرية صغيرة أو بالأحرى القرية قبل الأخيرة قبل الوصول إلى أهرامات الجيزة، توقف بلنت هو وزوجته عند هذه القرية ونزلا من فوق إبلهما للمرة الأولى، على أرض النيل السوداء التى جفت بالفعل من مياه فيضان خريف ذلك العام، استقبل أهل الطالبية الطيبين كلا من بلنت وزوجته، بطريقتهم الريفية الودية، استقبلوهما بكل ما وسعهم الكرم والضيافة، وعلى الرغم من أن أهل الطلبية يعيشون على الطرق السياحية المؤدية إلى أهرامات الجيزة، وعلى الرغم أيضاً من اعتياد هؤلاء السكان على الرحالة الفرنجة على نحو يجعل منهم فريسة لهم إلى حد ما، فإن حقيقة نزول بلنت وزوجته فى قريتهم لقضاء الليل أضفت عليهما طابع الضيوف، الأمر الذى تفهمه سكان الطالبية ووعوه تماماً، ولم يحدث أن توقف فى الطالبية أى أحد من الرحالة الأوروبيين الذين مروا عليها طوال سنوات كثيرة، ولم يحدث أن توقف أحد منهم ولو لفترة قصيرة أمام أبواب هذه القرية الريفية، وعليه كانت علاقتهما ودية مع هؤلاء الفلاحين البسطاء منذ البداية، وقد خدمتهما تلك الوقفة باعتبارها مقدمة إلى سلسلة من القرويين، بعد الأيام القلائل التى أمضياها بين أهل الطالبية، وعندما واصلا سيرهما بعد ذلك، لم يكن أمامهما خيار فى ذلك الوقت، سوى البقاء فى المكان الذى كانا فيه، نظراً لأن البدو الذين كانوا يرافقونهما رفضوا فى الصباح مواصلة السير معهما حتى ولو لميل واحد فقط، وبعد أن حصلوا على أجورهم رحلوا عنهما ومعهم إبلهم، وكان لابد لبلنت وزوجته من العثور على إبل أخرى، وعليه أمضى بلنت أسبوعه الأول فى مصر فى التجوال فى أسواق القرى المجاورة بحثاً عن الإبل وشراء السرج اللازمة لتلك الإبل، وشراء قراب الماء وكل المعدات اللازمة لمواصلة الرحلة.

# بلنت فى الفيوم

بعد أن حصل بلنت على الإبل المطلوبة شد رحاله على الفور إلى الفيوم ليجد الحال هو الحال بلا تغيير أو تبديل، شيوخ الريف أنفسهم لم يكن لديهم الكثير من الملابس، مجرد عباءة يلبسها الواحد منهم، وكان الحال هو نفسه فى كل مكان، فى بلدان الأقاليم كانت الأيام التى تقام فيها الأسواق تعج بالنساء اللاتى كن يبعن ملابسهن ومصوغاتهن الفضية للمرابين اليونانيين؛ نظراً لأن جباة الضرائب كانوا فى القرية وسياطهم فى أيديهم، اشترى بلنت هو وزوجته من هؤلاء النساء صناديقهن الصغيرة، واستمعا إلى قصصهن، وانضما إليهن فى لعنهن وقذفهن فى حق الحكومة التى كانت تعريهن، لم يكن بلنت أو زوجته يفهمان أكثر من هؤلاء الفلاحين أنفسهم، حقيقة الضغوط المالية الأوروبية التى كانت السبب الرئيسى وراء هذه الابتزازات التى لا تعرف الحدود، ووجه بلنت هو وزوجته اللوم، مثل هؤلاء الفلاحين، إلى إسماعيل باشا والى المفتش إسماعيل صادق، وأحس بلنت وزوجته بأن هناك دورا إنجليزيا وراء هذا التبرم واللوم، واقع الأمر، أن الأحوال القائمة فى ذلك الوقت كانت لا تطاق تماماً، وكان الشعب الجائع ينظر أو يتطلع إلى أى تغيير من التغييرات على أنه غوث محتمل، "كانت إنجلترا تبدو فى أعين الفلاحين الشحاذين الذين كانوا يسرقون ويضربون ويموتون من الجوع، وكأنها غوث ودى وثرى، بل وشديد الثراء، ولا مصلحة لها، أى أنها مجرد مصلح للأخطاء وصديق للمغلوبين على أمرهم والمطحونين، لا أكثر ولا أقل، فى واقع الأمر، " سبب ذلك أن السائحين الإنجليز فى ذلك الوقت كانوا يتجولون هنا وهناك بأيد ممدودة ومعطاءة، كما كانت تعبيراتهم توحى بالتعاطف والمشاركة، هذا يعنى أن هؤلاء الفلاحين المطحونين لم يشكوا فى الأنانية التجارية الهائلة، التى دفعت الإنجليز كأمة إلى القيام بكثير من الاعتداءات على الأجناس الضعيفة فى العالم.

# بلنت وحكام مصر

أقام الخديوى إسماعيل فى شتاء العام ١٨٧٦ وليمة هائلة للسيد كيف Cave هو وأعضاء بعثته، ودعى سكاون بلنت مصادفة إلى هذه الوليمة التى

أقيمت فى كشك الحاكم المناب فى منطقة الأهرامات وكانت واحدة من ولائم الإسراف والتبذير التى اعتاد إسماعيل أن يسترعى بها أنظار واهتمام الأوروبيين، ولم يكن هناك دليل أكثر من ذلك على التناقض الغريب الذى بين ثراء صاحب الوليمة والفقر المدقع إلى كان عليه أولئك الذين تحملوا نفقات إقامة هذه الوليمة، لقد أقيمت هذه الوليمة على مسمع ومرأى من عيون جماهير الفلاحين الذين يتضورون جوعاً؛ هؤلاء الفلاحين الذين أوفد السيد / كيف لإنقاذهم من الهلاك، على حد قول الإنجليز، ومع ذلك لم يستشعر أحد من الحاضرين مطلقاً ذلك التنافر والتضاد، تناول الحاضرون الطعام واحتسوا أحسن أنواع الشمبانيا، وانصرف المعزومون لحال سبيلهم ومعهم بلنت، الذى راح يستعيد الطابع الحقيقى لذلك المشهد بعد أن تعرفه جيداً، وما ينطوى عليه فى واقع الأمر من تبذير وما يحيط به من بؤس وشقاء وتبين فيه الرحل عرضاً حقيقياً لسببين من أسباب الثورة القادمة.

## بلنت يشترى ضيعة مصر

رداً على التهديد من قبل إنجلترا بالتدخل، والذى بدأ يؤثر على سوق الأوراق المالية، ويدفعها إلى الانخفاض، وبخاصة فى أسعار السندات المصرية وأسعار الأطيان والممتلكات فى مصر، قرر سكاون بلنت تقديم دليل ثقته فى الثروة الوطنية، بأن اشترى ضيعة صغيرة لإقامته المستقبلية فى ضاحية قريبة من القاهرة، وهى حديقة الشيخ عبيد التى تقدر مساحتها بنحو أربعين فداناً وتقع فيما بين المرج والمطرية.

علم بلنت مصادفة أن حديقة الشيخ عبيد معروضة للبيع فقام بشرائها " علانية " من لجنة الممتلكات الأميرية بمبلغ ١٥٠٠ جنيه إنجليزى، كانت حديقة الشيخ عبيد أفضل الحدائق المثمرة فى مصر، وكان يحيط بها سور، وماؤها غزير ووفير، وكانت تضم نحو ٧٠٠٠٠ شجرة من أشجار الفاكهة، وكلها منظمة تنظيماً طيباً ورائعاً.

تاريخ هذه الحديقة جدير بالتسجيل، وهى قطعة من الأرض الخصبة تقع على حافة الصحراء، كانت مملوكة فى مطلع القرن التاسع عشر لإمام جيش إبراهيم باشا أثناء الحملات التى قام بها إبراهيم باشا على الجزيرة العربية،

لكن الإمام بعد أن نزلت به ضائقة وظروف قاهرة، اشتراه منه الباشا وسور ثلاثة وثلاثين فداناً منها بسور، وحفر لها السواقى المطلوبة، وجعلها منذ مطلع الثلاثينيات تبدو بالحال التى كانت عليها فى ذلك الوقت.

أشجار الفاكهة التى زرعت فى هذه الحديقة جلب جزء منها من الطائف فى بلاد الحجاز، وجلب الجزء الأخر من سوريا، كان إبراهيم باشا يتمتع بعاطفة قوية تجاه زراعة الحدائق، لم يدخر وسعاً فى جعل هذه الحديقة ابهى وأروع أنواعها، وفى زمن إبراهيم باشا وزمن ابن أخيه مصطفى، الذى آلت إليه ملكية هذه الحديقة، كانت تعطى دخلا سنوياً يقدر بنحو ٨٠٠ جنيه إنجليزى، وكانت العمالة فيها بواسطة السخرة للفلاحين من القرى المجاورة، بلغ رمان هذه الحديقة من الكبر حجماً، أصبح من المتعارف عليه بين البساتين أن ثلاثين فحلاً من هذا الرمان كانت تشكل حملاً لجمل من الجمال، وأن ذلك الرمان كان يرسل في كل عام إلى إسطنبول على سبيل الهدية للسلطان.

فى عصر توفيق باشا، حفيد إبراهيم باشا، وعندما كان يعيش فى قصر القبة، أثناء حكم والده إسماعيل، كان من عادة نسائه ( توفيق ) أن ينقلن إلى هذه الحديقة فى يوم الجمعة فى فصل الربيع لتمضية اليوم هناك، وفى العام ١٨٧٩ وأثناء الدمار الذى حاق بإسماعيل باشا، عادت الحديقة إلى مفوضى الأملاك الأميرية وأصبحت واحدة من الضيعات المعروضة للبيع، وبذلك يكون عثور سكاون بلنت عليها من قبيل المصادفة.

## مستقبل الإسلام

ينقسم الكتاب إلى خمسة فصول أولها بعنوان "تعداد العالم الإسلامى "وثانيها" مسألة الخلافة الحديثة"، واختار سكاون بلنت"العاصمة الحقيقية. مكة "عنوانا للفصل الثالث، وُيورد الرجل الفصل الرابع تحت عنوان "الإصلاح الإسلامى "ويجئ"اهتمام إنجلترا (أوروبا) بالإسلام" عنواناً للفصل الأخير.

يتناول المؤلف فى الفصل الأول القوى المكونة للعالم الإسلامى، تمهيداً لتوضيح المشكلة التى يمثلها الإسلام الحديث لأوروبا، او بالأحرى التفكير فى حل هذه المشكلة.

وفى الفصل الثانى يستفيض بلنت فى مسألة الخلافة وشرح موقف العثمانيين من العالم الإسلامى، ويألم الرجل لوصول الخلافة إلى ما يمكن "تسميته واحدة من فترات الخَدَر الفكرى فى الإسلام، كانت تلك الفترة بمثابة خمول وفتور بديا وكأن الإسلام لن يفيق منهما".

ويؤكد المؤلف أنه "بحلول منتصف القرن الثامن عشر كان لقب الخلفية، حتى فى ممتلكات العثمانيين قد أصبح فى طى النسيان، وأصبح البلاط الإسطنبولى مضرب الأمثال فى السوء.. وفى مواجهة هذا الوخم تجئ "صحوة الشعور الدينى الناجمة عن الحركة الوهابية تهديدا للسلطان فى مطالباته بالخلافة".

فى الفصل الثالث، ومن خلال فرضية كبيرة، يبدأ بها بلنت الفصل، يصل إلى "أنه ليس من قبيل الخيال الجامح الافتراضى، أنه فى حال حدوث كارثة كبيرة فى إسطنبول، قد ينعقد مجلس العلماء فى مكة، ويقوم باختيار خليفة طبقاً للسوابق الشرعية فى الأيام القديمة.

والذى لا شك فيه أن مجلسا من هذا القبيل يمكن أن يشهد بعض الدسائس من قبل الأمراء ومشاجرات بين أتباع المدارس المذهبية المختلفة، واللجوء إلى التطرف والاتهام بالكفر، وسوف يلعب المال دوره هناك، كما هو الحال فى الأماكن الأخرى، وقد تهدر الدماء أيضاً" ويعقد سكاون بلنت مقارنة بين هذا الحال وبين ما دار فى الكنيسة المسيحية فى القرن الخامس عشر:

"كل من يعرفون الكنيسة المسيحية فى القرن الخامس عشر، والذين يعرفون أيضاً مجمعات رؤساء الطوائف الدينية المسيحية التى سبقت انعقاد مجلس بازل لابد أن يعترفوا بأن هذه الأمور المصاحبة التى من قبيل الدس والتآمر والفساد لا تعد حاجزا أمام حل المصاعب الدينية حلا شرعيا ومعروف أولا وقبل كل شئ أن التنافس بين الباباوات، والباباوات المضادين هو الذى عجل بالإصلاح الكاثوليكى فى أوروبا". من يقرأ الفصل الثالث يتبين كيف وصل المؤلف إلى هذه الخلاصة.

يخلص سكاون بلنت فى الفصل الرابع إلى قوله: "أود أن أحُث على أنه إذا كان يتعين علينا النظر إلى المسلمين أنفسهم، كيما يمكن تنفيذ تجديدهم

الروحى النهائى طبقاً للقواعد الخاصة بقانونهم (شريعتهم)، فإن العالم المسيحى لا يزال يفعل الكثير من أجل إحداث نتائج عاجلة أو مباشرة".

ويقول: "أنا أرى أن يوم الكراهية الدينية بين المسلم والمسيحى قد اقتربت نهايته، وعلى الرغم من أن الصراع السياسى بدأ، وهذا من سوء الطالع، يجدد النزاع القديم فى شمال إفريقيا، فليس هناك خطر الآن من تحول ذلك الصراع إلى حرب صليبية من جانب أوروبا؛ ويردف قائلا: "لقد تخلى العالم المسيحى عن مهمته اليائسة فى تبديل الإسلام، كما تخلى الإسلام أيضاً عن مهمته فى غزو أوروبا، والمؤكد أن الوقت قد حان كى يعمل التعاطف الأخلاقى فى الجسمين الكبيرين المكونين من رجال يؤمنون بإله واحد ويعبدون إلهاً واحدًا".

يقول بلنت مخاطباً أوروبا من خَلال إنجلترا: "بوسع إنجلترا، فى أضعف الأحوال، أن تعترف بالدين الإسلامى على أنه ليس مجرد شئ يتحتم مقاتلته وتدميره، وإنما هو شئ مقبول ومشجع، منها أيضاً"، لماذا، فى نظر بلنتْ الإسلام مقبول ومشجع؟ "مقبول من منطلق أنه حقيقة ستظل موجودة، بخيرها وشرها فى العالم، شاءت (أوروبا) أم لم تشأ، ومشجع- لأن فيه إمكانات خيرة لا تستطيع إنجلترا استبدالها بأية نحلة من نحلاتها أو أية فلسفة من فلسفاتها." ويقول بلنت: "أنا على يقين من أن إنجلترا (أوروبا) تتعلم مما يحدث، وسوف تعترف بالخطأ الذى ترتكبه عن غير وعى، وسوف تحاول إصلاح الخطأ إذا ما توفر الوقت لذلك".

كيف وصل بلنت إلى هذه النتيجة؟ من يقرأ الفصل الرابع يتحصل على إجابة شافية لهذا السؤال، فى الفصل الخامس، يحاول سكاون بلنت رسم مخطط لسياسة إنجلترا (أوروبا) تجاه الإسلام، ومن خلال المنهج الإحصائى يورد بلنت إحصائية عثر عليها، فى ذلك الوقت، فى جريدة هنترز جازئير، تبين أن السكان المسلمين كانوا يقدرون بنحو ٤٠٨٦٧١٤٥ نسمة، ويقول إن "هذا الرقم يمثل شيئاً أكبر من ظاهره" وأن فهم هذا الرقم وقيمته الحقيقية يحتم أخذ ما يلى بعين الاعتبار:

أولاً: إن عدد السكان المسيحيين آخذ فى التزايد، لا من حيث الأعداد وإنما من حيث نسبة هؤلاء السكان إلى عدد الأعراق والملل الأخرى التى فى شبه الجزيرة الهندية".

ثانياً: "إن التوزيع الجغرافى لهؤلاء السكان يتفق تماما مع توزيع الحياة السياسية والطاقة والسياسية فى البلاد"؛ ويقول : إن البنجاب هى ومقاطعات الشمال الغربى وحدهما كانا يحتويان على عدد إجمالى من السكان يقدر بنحو ثلاثة عشر مليون مسلم، فى ذلك الوقت.

ثالثاً: "إن السكان المسلمين متجانسون بشكل لا مثيل له فى الطوائف الهندية الأخرى،"ويرى بلنت أنه على الرغم من أن عدد السكان المسلمين لا يصل إلى ثلث إجمالى عدد السكان الهنود فإن قطاع السكان المسلمين هو الأكثر ترابطا من قطاعات السكان الهنود الأخرى، ومن هنا يشكل السكان المسلمون فى الهند أكبر جسم من أجسام الرأى العام.

رابعا: "السكان الهنود المسلمون هم أكثر السكان استنارة وتعليما، بل إنهم هم القطاع الوحيد فى المجتمع الهندى، الذى يعرف تاريخه حق المعرفة، ويحافظ على تقاليده وموروثاته السياسية الضائعة.

ويرى بلنت أنه : إذا كان القطاع السكانى المسلم فى الهند قد عزل نفسه عن منافسة الأعراق الأخرى فى الخدمة الحكومية، فإن ذلك من قبيل الكبرياء، وليس من قبيل العجز، يضاف إلى ذلك أن المسلمين الذين دخلوا الخدمة الحكومية هم رجال ذوو طاقات وقدرات متميزة، يضاف إلى ذلك أن السكان المسلمين، فى الهند ليسوا جسمًا منعزلاً، لكنهم على اتصال وثيق بسائر السكان، إخوانهم المسلمين فى أنحاء العالم، وبذلك يمكن القول : إن السكان المسلمين فى الهند يشكلون قطاعا استثنائياً كبيراً فى الوقت ذاته.

يتمثل اهتمام إنجلترا (أوروبا)الثانى بالإسلام فى مصر نفسها.. لكن ما أسباب هذا الاهتمام؟

يرى بلنت، وهذه حقيقة، أن مصر تقف على أعتاب تجارة أوروبا مع الشرق، وأن مصر فيها جالية سوادها الأعظم من المسلمين، وهو يرى أن مستقبل مصر السياسى مرتبط بمستقبل أوروبا السياسى أيضاً، ويرى سكاون بلنت أنه على حق عندما يقول :"إن عداء مصر لنا سيكون أمراً مستحيلاً"، يزاد على ذلك أن العداء الدينى فى القاهرة، إذا ماجرت السيطرة عليه والتحكم فيه عن طريق القوة العسكرية، يمكن أن يكون منغصاً ومهددا مستمراً لنا"، ويحذر سكاون بلنت إنجلترا (أوروبا)" يجب ألا نسلم أن مصر، شأنها شأن

ساحل البربر سوف تغير طابعها الدينى، عندما تقع بين يدى أى محتل، كائناً من كان "ولكن ماسبب ذلك؟ يجيب بلنت قائلا: "سكان الدلتا فى مصر من النوع المجد جداً، ومن النوع الواعى جداً، ويرضون بالقليل جداً، الامر الذى يجعلهم لا يخشون المنافسة فى الزراعة من الإيطاليين، واليونانيين والمالطيين، يُزاد على ذلك أن ظروف الحياة فى ظل الشمس المحرقة سيحمى مصر دوما من أن تصبح مستعمرة أوروبية، واقع الأمر أن الأجانب قد يستطيعون اجتياح بعض البلدات، لكن قلب مصر سيظل بلا تغيير، ومصر شأنها شأن الهند سترفض تشكيل نفسها طبقاً لأي منظومة من منظومات الحضارة الأجنبية، هذا يعنى أن الإسلام سيظل بلا مساس فى مصر، وستظل نية ذلك الإسلام الحسنة ضرورة من ضرورياتنا"، وينصب اهتمام إنجلترا (أوروبا) الثالث على الإسلام فى تركيا الآسيوية، ويخلص إلى أنه لا يتوقع المزيد من التدخل من جانب إنجلترا فى الدفاع عن الأراضى الناطقة باللغة التركية، لأن هذه الأرض بحكم موقعها الجغرافى تقع خارج نطاق السيطرة العسكرية الأوروبية الفاعلة.

يخلص بلنت بعد ذلك إلى مجموعة من النتائج القيمة التى تتعلق بموقف أوروبا بشكل عام من الإسلام، وموقف إنجلترا بشكل خاص، من هذة المسألة نفسها ،ويرى بلنت أن "خلاص المسلمين" من الضغوط الموجهة اليهم"لن يتأخر طويلا" .. ولعل هذا هو الذى جعل الرجل يستشهد ببيت الشعر الذى يقول :

**لا تقنطـــوا فالدر ينثـــر عقده ليكون أحسن فى النظام وأجمل**

## لماذا ألف بلنت هذا الكتاب؟

هذا الكتاب يعد ثمرة الخبرة التى جناها ولفريد سكاون بلنت فى شتاء ذلك العام ١٨٨١م، ألف ولفريد بلنت كتاب "مستقبل الإسلام" فى عجالة وفى ظل ظروف غير مواتية لتحرى الأحكام تحرياً دقيقاً، وعلى الرغم من كثير من المتاعب والنقائص، فقد راح بلنت يكتب الكتاب، لأهميته وقيمته فى ذلك الوقت حتى وإن كانت تلك الأهمية تتمثل فى الجانب التاريخى، باعتبار أن ذلك سيوضح الحال التى كانت عليها الآمال الإسلامية، والمخاوف التى كانت سائدة وقت تأليف الكتاب، ألزم سكاون بلنت نفسه فى هذا الكتاب وبلا

تحفظ بقضية الإسلام من منطلق أنها "قضية الخير"، وفى جزء شاسع من هذا العالم، وأن هذه القضية يتعين تشجيعها وليس قمعها بواسطة كل أولئك الذين يهمهم رفاه الجنس البشرى.

قدم بلنت فى ذلك الكتاب عرضاً لأصول الإسلام، وعظمته وانتصاراته وأمجاده، ثم تحلله الواضح، ذلك التحلل الذى كان على حد قول بلنت "شبيها جداً بذلك التحلل الذى أصاب النصرانية قبل الإسلام بنحو أربعمائة عام، وأن ذلك التحلل يمكن أن يلقى مواجهة مثل المواجهة التى لقيتها النصرانية فى المتاعب التى واجهتها متمثلة فى الإصلاح الدينى، وتحرير فكر النصرانية من قيود الموروث شديد الصرامة الذى يعرقل تقدم النصرانية وتطورها"، عرض سكاون بلنت أفكاره كما علمها له الشيخ محمد عبده، عن المدرسة ليبرالية التعاليم، والتمس، إلى كل أولئك الذين يدخلون ضمن الصفوة من بين إخوانه المواطنين، التعاطف مع هذه التعاليم الليبرالية وتأييد أصحابها فى مواجهة المدرسة الرجعية، التى لا تتزحزح عن الأساليب الجامدة القديمة والتى ليس لديها شىء تقدمه غير نشر التشدد والتطرف، وطلب مد يد العون لها فى العمل على الاحتكام إلى السيف مع أعدائها.

قدم سكاون بلنت نفسه لإنجلترا، من باب اهتمامها الشديد بالإسلام ومستقبله، من خلال الهند، منادياً ومحفزاً إياها على أن تكون سياستها قائمة على الصداقة مع أفضل عناصر الفكر الشرقى، وألا تكون هذه السياسة قائمة على الاستفادة من ذلك التحلل فى توسيع وزيادة مصالحها المادية، ويذهب الرجل إلى القول: "إن هذا هو الطريق السليم والقويم أيضاً، وأنا أؤكد ثانية أن هذا هو الطريق الأعقل والأحكم والأجدى، من قرن كامل من الحروب الصليبية".

نشر بلنت فصول هذا الكتاب الصغير على شكل أعداد شهرية فى مجلة FortnightlyReview. وقد أثرت هذه الفصول تأثيراً كبيراً فى إنجلترا، وعلى الهنود الناطقين بالإنجليزية، وكما شقت تلك الفصول طريقها، إلى حد ما، عن طريق الترجمة إلى أن وصلت إلى مصر.

لغة الكتاب الإنجليزية سليمة، ويجب ألا يغيب عنا هنا أن بلنت كان شاعراً، ومجيداً أيضاً للغة الفرنسية، فضلاً علي تمكنه من أدواته، إضافة إلى أن الرجل كان مجيداً للعربية ومتذوقاً لمواطن الجمال فيها، وهذا هو ما دفعه إلى الاستشهاد ببيت الشعر الذى يقول:

**لا تقنطوا فالدر ينثر عقده ليكون أحسن فى النظام وأجمل**

ليشير فى سياق حديثه عن الإسلام، إلي أنه على الرغم من المنغصات فإن ما هو قادم سيكون أحسن وأجمل.كان بلنت حساساً فى تناوله للمصطلحات الإسلامية، وغيرها من المصطلحات ذات الصلة بالإسلام، وهو فى الصفحة الخامسة عشرة من الكتاب يستخدم مصطلحاً أجنبياً : Houi .Tes ليدل به على " أهل البعث" People Resurrection، ويقصد به المسلمين فى الصين، وهو يترجم "عليه الصلاة والسلام" :On his name be peace، ولكن بعض المصاحف فى مقدمتها تترجم العبارة على النحو التالى :

Peace and blessings be upon him.

ترجم سكاون بلنت كلمة "قاضى" على أنها Magistrate، ولكنى أرى أن دلالة اللفظ العربى أوسع بكثير من الكلمة الإنجليزية judge التى تعنى "موظف عمومى" سواء كانت مهامه الرسمية قضائية أو تشريعية أو تنفيذية، لو ترجمها سكاون بلنت بالكلمة الإنجليزية judge لكان ذلك أوفق، لأن هذه الكلمة تشمل جميع طبقات القضاء، بما فى ذلك المستشارون أعضاء محاكم الاستئناف والمحاكم العليا".

وترجم "أمير المؤمنين" بالعبارة : Prince of the faithful. وترجم "أهل الحل والعقد" بالعبارة : People of loosing and knotting. وترجم "الصدر الأعظم" بالعبارة:Grandvizier. وترجم "نائب" بالعبارةNaib Deputy Imam. وترجم "المجتهدون" Ulema. وترجم " رئيس البيت العثمانى عن الهنود المسلمين" : Padishah، وهذا مصطلح يشير فى أصله إلى "سلطان الروم" أو الإمبراطور الرومانى "، وترجم "النُّواب" Deputy Imams. وترجم "الاجتهاد" بالعبارة : Development of new dogma. وترجم سُليمان القانونى بالعبارة :

Soliman The Magnificent، وترجم مصطلح "الامام" Leader of public prayer. وترجم "مـــذهـب" Dogma وترجـم " المذهـب الحنفـى " Hanafite Dogma وترجـمـهـا فـى بعض المواضع Hanafite school. أما مصطلح " باب الكعبـة" الذى وُصفت به دمشق فى بعض الأحيان فقد ترجمه: Gate of Kaaba.

وترجم "عــمـــيـــد الأشـــراف" Grand sheriff أو Great sheriff. وترجم "الحـرمـين" بالعـبـارة Servant of the two shrines في حـين يتـرجـم هذا المصطلح حـاليـاً بالعـبـارة Custadion of the two holy mosques. أى "خـادم الحـرمين الشـريفـين"، وترجـم " الله كـريم" Godismerciful وترجم أصحـاب الفـيل " companions of the elephant فى حـين تتـرجم بعض المصـاحف هذه العـبـارة Posessors of elephant ترجم سكاون بلنت "رسـالة الرعـيـة" ذلك الخطاب الذى كـان يلقـيـه عـمـيـد الاشـراف على الحـجـاج فى مـوسم الحج بالعـبـارة : opastoral letter، ودلالة هذه العـبـارة الإنجليـزية أضـعف من دلالة المصطلح العربى.

بقى أن أقول إن بلنت انطلق من فـرضـيـة أن الإسـلام منذ عـهـد رسـول الله (صلى الله عليه وسلم) ومن بعـده الخلفـاء الراشدون، كـدولة ودين، وأن حـال الإسلام، من وجهة نظر بلنت، تغير بعد وفاة الرسول (صلى الله عليه وسلم)، مما أدى إلى ظهور مـا سـمّـاه بلنت باسم "الإسـلام البـدعى" وأن شـئت فـقل الإسـلام غير الأصولى، الذى حدده بأنه متمثل فى الإسلام الشيعى، والإسلام الأباضى، على حد تعبير الرجل، ويردف الرجل أن الإسـلام أصابه الكثير من الشـوائب فـى زمن ضـعف وتحلل الامـبـراطورية العـثـمـانيـة، يوم أن صُـفّـيت ممتلكاتها، وراح الطامـعـون، يقـتطع كل واحـد منهم جـزءا من بـلاد المسلمـين تحت اسم التحضير والتمدين والقضاء على الفساد.

ويُفَسّـر بلنت سلوك الطامـعـين هذا بأنه ناجم عن عقدة تكونت فى نفوس الأوروبيين، مـفـادهـا أن الإسـلام غـاز، وأن هؤلاء الطامـعـين، إنمـا يسـتـعـيدون أمجادًا ضـاعت منهم على حد قول بلنت ويوضح بلنت أن هذه العقدة ترسخت أكـثـر فـى نفـوس الأوروبيـين بعـد الخـسـائر التى أُنزلت بهم فـى الحـروب الصليبيـة، ولكن بلنت يقول: إن التـعـاطف الذى بين الإنجليز والمسلمين راجع الى أن بريطانيا لم تشارك فى الحروب الصليبية؛ ولذلك فهى لا تعانى من

هذه العقدة، ويؤكد على ذلك بمقولة تشيع بين بعض المتعالمين، مفادها أن قبيلة الفساسنة هاجرت إلى إنجلترا بعد طردها من دمشق.

ويخلص بلنت إلى نتيجة مفادها أن الإسلام تخلى "عن مهمته فى غزو أوروبا، وتخلى العالم المسيحى عن مهمته اليائسة فى تبديل الإسلام"، وأن يوم الكراهية الدينية بين المسلم والمسيحى قد اقتربت نهايته "، ويخلص بلنت أيضاً إلى أن "الإسلام مقبول ومشجِّع، من منطلق إن الإسلام حقيقة ستظل موجودة فى العالم بخيرها وشرها شاءت (أوروبا) أم لم تشأ، ومشجِّع لأن فيه إمكانات خيرة، لا تستطيع إنجلترا (أوروبا) استبدالها بأية نحلة من النحل أو أية فلسفة من فلسفاتها".

يرى بلنت أن "خلاص المسلمين من الضغوط الموجهة والواقعة عليهم لن يتأخر طويلاً".

# تصدير

كان المقصود من هذه المقالات التى كتبتها لمجلة fortnightly review فى صيف وخريف العام ١٨٨١، أن تكون مسودات فقط لكتاب أنضج، كان المؤلف يتطلع، قبل تقديمه إلى الجمهور، إلي إكماله فى وقت فراغه. وبشكل يليق باستقباله من قبل النقاد، من ناحية، وبالموضوع العظيم الذى يتناوله من الناحية الأخرى، لكن وقع الأحداث كان أسرع بكثير مما كان يتوقعه المؤلف، الأمر الذى جعله بل وحتم عليه التعجيل بالفكرة المطروحة، والإعلان عنها على نطاق واسع.

فقد أدى غزو الفرنسيين لتونس إلى التعجيل بتشكيل حكومة إسلامية فى شمال أفريقيا، واستفزت مصر، وراحت تبذل جهداً كبيراً فى مجالى الإصلاح الوطنى والدينى، وبدا الإسلام متشنجاً فى كل الأصقاع بسبب نذر الشؤم السياسية بالغة العنف، ويرى المؤلف أن بنى وطنه سوف يتعين عليهم، فى غضون أشهر قلائل، حسم أمرهم فى الهند بشكل نهائى، وما إذا كانوا سيقودون أم يقتادون بفعل موجة الطاقة الدينية

التى تكتسح الشرق،وهو يتصور أيضا أن عواقب ذلك تحتم على بنى وطنه فهم العناصر الأساسية فى المشكلة التى تواجههم.أما إذا تغافلوا عن حقائق التاريخ المعاصر الكبرى من منطلق أن هذا التاريخ لا علاقة له بحياتهم اليومية، فلن يليق بأمة كبيرة السير فى طريق من هذا القبيل، ويندر ألا يؤدى ذلك إلى كارثة فى إنجلترا، التى يتحكم فيها الرأى العام فى تسيير الأمور، ويجب ألا يغيب عنا أن الإمبراطورية البريطانية الحديثة، ذلك الحشد من الأعراق التى يجرى حكمها عن طريق الرأى العام فى جزيرة بعيدة، إنما هى تجربة جديدة فى تاريخ العالم، وتحتاج إلى تبرير من خلال تنوير غير عادى؛ ويجب ألا يخفى علينا أيضاً، أنه لم يحدث قط أن حكمت إمبراطورية بدون سياسة حية وفعلية، ولهذه الأسباب، رأى المؤلف نشر هذه المقالات، بالشكل التى هى عليه، وعلى الفور ودون تأخير، متطلعاً من وراء ذلك إلى أن يكون لهذه المقالات أثر فى ترشيد الخيار الوطنى، ومع ذلك، يدرك المؤلف أيضاً العيوب التى تعتور هذه المقالات من حيث الدقة والكمال، وهو يطلب العفو والسماح فى ضوء مصداقية الصورة التى يرسمها من خلال هذه المقالات.

عاد المؤلف إلى مصر بعد الانتهاء من كتابة آخر مقالة من هذه المقالات، وأحس بالرضا عندما اكتشف هناك أن الأفكار التى سبق استشرافها بصورة غامضة، هى فى واقع الأمر حلم من أحلام بعض علماء الأزهر الليبراليين. فى ذلك الوقت، كانت القاهرة قد أعلنت عن نفسها بأنها موطن الفكر التقدمى فى الإسلام، وأن جامعتها أصبحت مرة أخرى المقر المستقل لعلوم الدين العربية، وبعد أن أمنت الحركات الوطنية العربية علماء الأزهر من التدخل التركى، انضموا قلباً وروحاً إلى جماعة الإصلاح، هذه الحركة لا يمكن المبالغة فى تقدير أهميتها؛ أغلب الظن أنه إذا ما استطاعت أية حكومة إسلامية ليبرالية مكونة من مسلمين أحرار، إثبات وجودها فى وادى النيل، فلن يكون هناك شك أن ذلك سيكون بمثابة وضع الأساس المتين للإصلاح الاجتماعى والسياسى للإسلام كله، يزاد على ذلك أن اعتدال الزعماء المصريين إلى أبعد الحدود، فى نظرتهم إلى الخلافة الجديدة أمر يوحى بما هو أكثر من الأمل والتفاؤل، وشعار الجميع هو الاستقلال وليست المعارضة، هؤلاء الزعماء لم يحدثوا انشقاقاً ولا يفكروا فى ذلك، فى ثوب الإسلام

الأصولى، وهذا عبد الحكيم خان لايزال الناس يعترفون به أميرا للمؤمنين، ومسألة استعادة الخلافة الأكثر شرعية، مرجأة إلى اللحظة التى يباغت قدرها فيها، الامبراطورية العثمانية، وما هو قائم هو ما ينبغى أن يكون.

الانشقاق لن يضعف سوى قضية الدين، التى يتهددها الخطر من الاف الأعداء؛ وأى ظهور مفاجئ لخليفة مضاد فى مصر أو الجزيرة العربية. وبغض النظر عن شرعية توليه ذلك المنصب، يمكن أن يؤدى إلى انقسام العالم الإسلامى إلى معسكرين متعاديين، وبذلك يجر الفضائح، والأضرار على القضية العامة، يضاف إلى ذلك، أن الفكر الليبرالى، فى الوقت ذاته، سوف يتهيأ له ميدان مناسب يساعده على التطور، ويصعب معه الفشل فى مد نفوذ الفكر الليبرالى إلى الأماكن الناطقة باللغة العربية، وبين كل الأعراق التى تنظر للأزهر باعتباره مركزا لحياتها الفكرية، هذا إنجاز مرموق، والصبر والاصطبار يمكن أن يؤديا إليه، وربما يحدث ذلك فى غضون سنوات قلائل ويسفر عن انتصار عام، وليس هناك من شك الآن، أن وفاة (السلطان) عبد الحميد، أو ابتعاده أو إزاحته عن الامبراطورية، سيكون إشارة إلى عودة الخلافة إلى القاهرة، وإحداث تجديد رسمى فى الزعامة الدينية المفتقدة عن طريق الذهن العربى.

المؤلف مدين بما هو أكثر من الاعتذار للمسلمين، والمؤلف بصفته غريباً عليهم ومقيماً مؤقتاً بينهم، يجد نفسه يغامر بشرح أحزانهم الداخلية، ويلمس بين الحين والآخر تابوت دينهم بما يبدو لهم وكأنه يد دنيوية؛ لكن دوافع المؤلف نقية وخالصة منذ البداية، وهو على ثقة من أنهم سيغفرون له من منطلق تعاطفه معهم، والذى يجب أن يتجلى فى كل سطر يكتبه، لقد توقع المؤلف كثيراً من المصائب والنكبات السياسية الكبيرة فى المستقبل القريب، لأنه يرى أن هذه المصائب والنكبات تعد خطوة ضرورية طوال فترة تطورهم الروحى؛ لكنه يثق فى الإسلام ثقة لا حدود لها، لا لكون الإسلام منظومة روحية، وإنما لأنه منظومة دنيوية،هى ميراث وعطية من العرق العربى، وأن هذه المنظومة قادرة على الوفاء بالقدر الأكبر من احتياجاتهم الأكثر تحضرا، يزاد على ذلك أن المؤلف يؤمن بساعة بعثهم السياسى، المؤلف مقتنع أيضاً أنه يخدم مصالح المسلمين على أفضل وجه عندما يقول ذلك الذى يرى أنه

هو الصدق فيما يتعلق بموقفهم، لقد ولى زمان إمبراطوريتهم، لكن يوم استقلالهم الوطنى أفضل عندهم من الإمبراطورية، والمسلمون إذا استناروا وانصلحوا واتحدوا فلن يخشوا الدمار السياسى فى أوطانهم الأصلية، فى الجزيرة العربية، ومصر وشمال أفريقيا؛ وهذا يكفيهم داراً للإسلام إلى أن تجئ أيام أفضل، والمؤلف إذا كان بوسعه عمل أى شىء يساعد المسلمين على المحافظة على استقلالهم، فإنهم يمكنهم الاعتماد عليه فى حدود ما يستطيع، وهو يعدهم بأن يثبت لهم إخلاصه، بطريقة أكبر بكثير من نشر هذه المقالات الأولى.

**القاهرة**

**١٥ يناير من العام ١٨٨٢**

الفصل الأول

# تعداد العالم الإسلامى

## الحـــج

قد لا يكون من المستحيل خلال الهدوء الذى يسبق عاصفة الصراع الحزبى الذى أصبح قاب قوسين أو أدنى فى إنجلترا، لفت الانتباه العام إلى التفاقم السريع للمسائل التى راحت تسئ طوال السنوات القلائل الأخيرة، إلى الذهنية الدينية فى آسيا، والتى من المؤكد، ستفرض نفسها على رجال الدولة البريطانيين بوصفها تشوشا شديد الخطورة؛ هذه المشكلات إذا لم يجر التبكير فى حلها ومواجهتها، ستصبح خارج نطاق قدرة هؤلاء الساسة على التعامل معها، علماً بأن أى شكل من أشكال السياسة الحية النشطة، فى الوقت الراهن، قد يساعد على حل هذه المشكلات، وسيكون ذلك ميزة كبيرة لبلدنا.

الصحـوة الدائرة حـاليـاً فى العـالم الإسـلامى جـديرة بأن يهـتم بهـا كل إنسـان إنجليـزى، ومن الصـعب تصديق أن هذه الصحوة لم تلق اهتمـامـاً حقيقياً على أيدى أولئك الذين تتمثل مسئولياتهم فى الاتجـاه الآسيوى بصفة أساسية؛ ولكنى لست

على يقين من وضع هذه الصحوة فى شكلها الحقيقى أمام الجمهور الإنجليزى، أو أن هناك سياسة محددة تحديداً جيداً يمكن الاعتماد عليها كما هو الحال فى مجالس الوزراء الحالية، واقع الأمر أن العكس هو الصحيح فى مجلس الوزراء، نحن نعلم مدى تشكك السياسيين الإنجليز فى السياسات التى يمكن أن يصفها الأعداء بالمضاربات؛ ويمكن أن تكون ضخامة المشكلة المطلوب حلها من خلال دراسة مستقبل الإسلام، هى التى أدت إلى تنحيتها جانبا باعتبارها واحدة من المشكلات التى "لا تدخل ضمن نطاق السياسة العملية"، وهذه واحدة من العبارات المناسبة، وكثيراً ما يستعملها من بيننا أصحاب السلطة عندما يودون تحاشى العمل وعدم تحمل مسئولية اتخاذ القرارات الكبيرة، وعليه، فأنا لا أتردد فى تأكيد وجود هذه المشكلة فى شكل جديد وخطير، وأعتقد أيضاً أن مقترحى لن يكون مثاراً لشك أى أحد من أولئك الذين اختلطوا، خلال السنوات القليلة الماضية، اختلاطاً كبيراً، مع السكان المسلمين فى غرب آسيا. يسهل فى غرب آسيا الوقوف على هذه التغييرات الكبيرة، وربما كانت هذه التغييرات شبيهة بالتغييرات التى طرأت على المسيحية قبل أربعمائة عام، وأن الأمر يتطلب من إنجلترا انحرافاً عاجلاً جديداً عن القاعدة، إذا ما أرادت الاحتفاظ بضع سنوات، بوضعها كمرشد وحكم للتقدم الآسيوى.

لم تكن مسألة زيارتى لجدة فى مستهل فصل الشتاء الماضى، خارجة تماما على الخطة التى وضعتها للحصول على معرفة أكثر دقة، من المعلومات التى حصلت عليها من أماكن أخرى، عن الصحوة الإسلامية؛ ثم أمضيت بعد ذلك بضعة أشهر فى كل من مصر وسوريا، حيث يوجد مجتمع خاص تماماً من المسلمين، تثبت من أن جدة هى ميناء مكة البحرى، وأنها لا تبعد سوى أربعين كيلو متراً عن ذلك المركز الشهير من مراكز العالم الإسلامى، وستكون بمثابة المكان المناسب الذى أتمكن فيه من الحصول على رؤية واضحة ودقيقة للإسلام بالشكل الذى أبتغيه وأبحث عنه؛ وتخيلت بحق أنى يتعين على أن أجد نفسى فى جدة فى جو أضيق أفقاً من ذلك الجو السائد فى كل مكان من القاهرة أو بغداد أو إسطنبول.

واقع الأمر أن جدة فى موسم الحج، تصبح حاضرة كبيرة يحس الغريب

الأوروبى فيها بأنه لم يعد فى دنيا الأفكار الصغيرة والآمال المحلية، يلمس هذا الغريب الأوروبى فى كل ما يحيط به فى جدة، أن السياسات التى تناقش من حوله إنما هى سياسات العالم الأكبر، وأن الدين المتبع هو دين إسلام أوسع من ذلك الذى تعود عليه فى كل من تركيا والهند، فى جدة تمثيل لكل الأعراق واللغات والمذاهب، ترى فيها الهنود، والفرس، والمغاربة، فيها أيضاً زنوج من النيجر وفيها أيضاً ملاويين من جزيرة جاوة، وفيها أيضاً تتار من خانقين، وفيها أيضاً عرب من الصحراء الفرنسية، ومن عمان وزنزبار، وفيها أيضاً مسلمون جاءوا من داخل الصين، مرتدين لباسا صينيا، ولا يمكن تمييزهم عن المواطنين الآخرين فى هذه الأمبراطورية السماوية، والإنسان عندما يلتقى هؤلاء البشر وهم يمشون فى الشوارع، تتسع رؤيته للإسلام بصورة مفاجئة، ويجد نفسه يتعجب مع السير توماس براون "حقا، العالم (الإسلامى) أكبر من ذلك الجزء الذى وصفه الجغرافيون من ذلك العالم"، يزاد على ذلك أن سكان جدة الأصليين، هم أيضاً ميكروسوم[1] من ميكروسومات الإسلام، هذا الميكروسوم مكون من أفراد من سائر أمم هذه الأرض، يضاف إلى ذلك العربى الخالص الذى أعطى لغته وأسلوب تفكيره لبقية السكان؛ فى جدة خليط هائل من المقيمين المنحدرين من سلالات حجاج لا يُعدون ولا يحصون والذين بقوا ليعيشوا ويموتوا فى المدن المقدسة، هؤلاء المقيمون يحتفظون، إلى حد ما، بطابعهم المميز، لمدة جيل أوجيلين فى أضعف الأحوال، ويحافظون أيضاً على صلتهم بالأراضى التى يدينون لها بأصولهم، وبالبشر الذين كانوا إخوانا لهم فى الوطن، ومن هنا توجد فى جدة، وبصورة مستمرة سوق استخباراتية لكل ما يحدث فى سائر أنحاء الدنيا؛ فضلا عن الأحاديث والأخبار التى يتناقلها الناس فى أسواق العاديات، عن كل ركن من أركان أرض الإسلام، وليس من المبالغة فى شىء أن نقول: إن المرء فى جدة يتعلم من الإسلام فى غضون أسبوع واحد، ما هو أكبر بكثير مما يمكن تعلمه فى أى مكان آخر، والسبب فى ذلك أن أصحاب المحلات أنفسهم يناقشون أموراً سماوية، بل إنهم يناقشون أيضاً تنبؤات القناصل الفرنجة المنابين، الحجازى هو الآخر يكون أقل خجلاً من إخوانه

---

١- كناية عن الإنسان كعالم صغير يمثل ذلك العالم الإسلامى.

المسلمين فى الأماكن الأخرى، عندما يناقش الأمور الدينية، يبدو الدين هنا وكأنه جزء أصيل من معداته، وقد درج على استعراض ذلك والكشف عنه أمام الغرباء، وهو يفعل ذلك مع الأوروبى بقليل من الترفع، لكنه يفعل ذلك بالقطع، مع قليل من التنكر أو الرغبة فى الاسترضاء أكثر مما هو سائد فى السواد الأعظم من المناطق الأخرى، يضاف إلى ذلك - وهذا أمر مهم- أن هذا هو دوما الجانب العلمى من المسائل التى يعرضها التاجر الجدى[1]، هذا التاجر ينظر إلى الأشياء نظرة سياسية واقتصادية وليست نظرة مذهبية. وإذا ما كان ذلك التاجر من الأصوليين فإنه يتصرف من منطلق هذين الدافعين أنفسهما، وليس من منطلق دوافع أخرى، تلك الدوافع التى حركت فى يوم من الأيام، مواطنى إفيسيوس Ephesus[2] للدفاع عن عبادة أضرحته، فى المدن الأخرى، باستثناء القاهرة وإسطنبول، يجد الغريب الباحث عن التثقيف، أن العلماء الذين يبتغى لقاءهم، منشغلين أصلا بالمسائل المذهبية التى ليست لها أهمية فى الوقت الراهن، أو بالأحرى مجادلات العالم القديم حول تفسير القرآن، الذى يشغل المذاهب المختلفة من قديم الأزل، هنا فى جدة، يجرى التعامل مع هذه النوعية من العلماء بطريقة عملية، أى بحسب ضغطها على الجانب السياسى السائد. وفيما يخصنى، فقد تأثرت على وجه السرعة بهذه الميزة التى توفرت لى، ولم أترك أية فرصة من الفرص التى تهيأت لى للاستماع وطرح الأسئلة، إلى حد أنى وبدون التظاهر بامتلاكى مهارات خاصة أكثر مما لدى أى محاور ذكى، استطعت الحصول على كتلة من المعلومات التى لا يمكن القول عنها سوى أنها عظيمة القيمة.. فى الوقت الذى خدمنى ذلك كله فيما بعد، إذ كان بمثابة تقديم لى إلى أولئك العلماء الذين التقيتهم بعد ذلك فى الشمال، هذا يعنى أن جدة حققت آمالى كلها وأشبعت فضولى كله تقريبا، وأنا لن أبالغ عندما

---

١- نسبة إلى مدينة جدة، (المترجم)

٢- مدينة ايونية قديمة على الساحل الغربى لآسيا الصغرى، تقع على بعد نحو ٣٠ ميلاً من أقصى جنوب شرقى ازمير الحديثة (تركيا)، وهى شهيرة بثروتها ومعبد أرتميس (ديانا إلهة القمر والحيوانات الضارية والصيد فى الأساطير الرومانية) وقد استولى عليها الإسكندر الأكبر فى ٣٣٣ قبل الميلاد، وعادت إلى الرومان فى العام ١٣٣ قبل الميلاد؛ لتصبح عاصمة لآسيا الرومانية، جرى فى العام ٢٦٢ الميلادى تدمير المدينة والمعبد بواسطة القوط ولم تعد مطلقاً إلى سابق عهدها، كشفت الحفريات التى جرت فى القرن ١٩ ومطلع القرن ٢٠ عن انقاض المعبد ومبانٍ أخرى.

أقول إنى حققت كل آمالى وأشبعت كل فضولى، وإنى اكتشفت عوالم فكرية وحياة جديدة فى جو تخيلت أنه لابد أن يكون متحللا، لقد أدهشتنى حياة الإسلام العامرة بالحيوية، وأدهشتنى أيضاً آماله ومخاوفه العلمية فى هذا القرن التاسع عشر الحديث، وفوق كل ذلك واقع الإسلام باعتباره قوة أخلاقية؛ إلى حد أنى إذا لم أكن قد جئت أصلا للسخرية والاستهزاء، فقد بقيت بكل تأكيد، وبنية أكيدة من أجل الصلاة، أقل ما يمكن قوله أنى غادرت جدة وأنا مهتم ومسرور بها، وذلك على العكس مما كان يخطر على بالى من قبل، عن الصراع الكبير الذى بدا لى مشرفا على الحدوث بين الجماعات الرجعية فى الإسلام وبين الإصلاح، ولم أكن متفائلا بقضيته المفضلة، وأنا أريد هنا مناقشة هذه القضية.

لكنى أرى أولا أنه قد يكون من المفيد هنا استعراض التكوين الفعلى للعالم الإسلامى بصورة موجزة، ونحن نستطيع تخمين مستقبل الإسلام بطريقة واحدة فقط تتمثل فى تعرفنا العناصر المكونة للإسلام، لأن هذه العناصر ليست معروفة لنا بالشكل المطلوب.الغريب الأوروبى الذى يزور الحجاز يجد نفسه مثلما قلت من قبل، منبهرا تماما لكبر العالم الإسلامى الذى يقف فى مركزه، يبدو العالم الإسلامى لأعين الأوروبيين وكأنه محدود بحدود الإمبراطورية العثمانية، فالأتراك يقفون فى المقدمة أمامنا، وهم يقفون فى ذلك المكان منذ أيام باجازيت Bajazet، واسم هذا الرجل فى لغتنا العامية مرادف لكلمة "مسلم" Moslem، حتى نفطن إلى اعتبار أنه، إذا لم يكن الشخصية الوحيدة فى الإسلام، فهو الشخصية الرئيسية فى أضعف الأحوال، لكننا فى الجزيرة العربية نرى الأشياء من منظور أكثر صدقا، وندرك أيضاً وجود أعراق وأمم فيما وراء الممتلكات، وأن هذه الأمم والأعراق أتباع أيضاً للنبى صلى الله عليه وسلم، الذى تتقلص أمامه قيمة وعظمة ذلك التركى، تقع أعيننا فى جدة، وربما لأول مرة على المسلمين ونسبهم الحقيقية فى المملكتين القديمتين الفارسية والمغولية، وعلى النسبة الممثلة لأربعين مليون مسلم فى الهند، وثلاثين مليون مسلم فى الملايو، وخمسة عشر مليون مسلم صينى، والعدد الكبير من المسلمين الذين لا يعدون أو يحصون فى وسط أفريقيا، نرى أيضاً فى جدة مدى استمرار أهمية العنصر العربى،

واهمية الاعتماد عليه وأخذه فى الاعتبار، فى أى تقييم من التقييمات المستقبلية للإسلام، يزاد على ذلك أن تركيا وإسطنبول بدأتا تتراجعان أفق بعيد نسبيا، كما يبدو مركز الجذب الإسلامى كما لو كان قد انتقل الشمال والغرب ليصبح فى اتجاه الجنوب والشرق.

واجهت بعض المصاعب عندما كنت فى جدة، عندما حاولت الحصول على إحصائيات دقيقة للحج طبقاً للأعراف والمذاهب المكونة له. ومعها السكان الذين تمثلهم هذه الأعراق والمذاهب. بطبيعة الحال، لا يعد الحج دليلا مرشدا مؤكدا، على تكوين العالم الإسلامى، نظرا لأن كثيرا من عوامل المسافات والظروف السياسية تؤثر فى الحسابات والتقديرات التى تجرى على أساس من الحج، وإلى حد ما لاتزال هناك نسبة محفوظة بين الحجاج والسكان الذين يمثلونه، يزاد على ذلك أنه لا تتوفر إحصاءات دقيقة تعطى مؤشرا قيما على حيوية الدين فى مختلف البلاد الإسلامية، والأرقام التى أوردها هنا على شكل جدول تسهيلا للاستفادة منها أخذتها أصلا من سجل رسمى، وهي موجودة منذ سنوات فى جدة، عن الحجاج الذين ينزلون فى ميناء جدة، وجرت مراجعتها فيما يتعلق بالرعايا الأوروبيين عن طريق الممثلين القنصليين فى جدة، يمكن الاعتماد على هذه الأرقام من منطلق أنها دقيقة إلى حد ما؛ فى الوقت الذى اعتمدت فيه فى مسألة الحج البرى على ملاحظاتى الخاصة، التى أجريتها قبل ثلاث سنوات، من ناحية وعلى الإحصائيات التى حصلت عليها من القاهرة ودمشق من ناحية أخرى. وفيما يتعلق بالجدول الخاص بالسكان فى مختلف البلاد الإسلامية، أجد نفسى مضطرا إلى الاستفادة بصورة مباشرة من مصادر المعلومات الأوروبية، ومن المسلم به أنى لم أحصل من جدة على أية معلومات خاصة بهذه النقطة، لكن عن طريق الاعتماد على الأرقام التى ترد بشكل عام فى الكتيبات الإرشادية وعن طريق توثيق وتصحيح هذه الأرقام عن طريق الرجوع إلى الأشخاص الذين أمكننى الوصول إليهم والذين يعرفون هذه البلاد. آمل أن أكون قد توصلت إلى الحقيقة التقريبية، التى تكفى لإعطاء القارئ العام فكرة عن النسب العددية للإسلام، وأنا هنا لن أدعى الدقة الصارمة، ولا أدعى أيضا أن الوصول إليها يمكن أن يساعدنى كثيرا فى فحوى هذا الموضوع.

وأنا أورد فيما يلى الجدول الذى أعددته لذلك:

وأهمية الاعتماد عليه وأخذه فى الاعتبار، فى أى تقييم من ال...
المستقبلية للإسلام، يزاد على ذلك أن تركيا وإسطنبول بداتا تتراجعان إلى
أفق بعيد نسبيا، كما يبدو مركز الجذب الإسلامى كما لو كان قد انتقل من
الشمال والغرب ليصبح فى اتجاه الجنوب والشرق.

واجهت بعض المصاعب عندما كنت فى جدة، عندما حاولت الحصول على
إحصائيات دقيقة للحج طبقاً للأعراف والمذاهب المكونة له، ومعها السكان
الذين تمثلهم هذه الأعراق والمذاهب، بطبيعة الحال، لا يعد الحج دليلا أو
مرشدا مؤكدا، على تكوين العالم الإسلامى، نظرا لأن كثيرا من حوادث
المسافات والظروف السياسية تؤثر فى الحسابات والتقديرات التى تجرى
على أساس من الحج، وإلى حد ما لاتزال هناك نسبة محفوظة بين الحج
والسكان الذين يمثلونه، يزاد على ذلك أنه لا تتوفر إحصاءات دقيقة تعطينا
مؤشرا قيما على حيوية الدين فى مختلف البلاد الإسلامية، والأرقام التى
أوردها هنا على شكل جدول تسهيلا للاستفادة منها أخذتها أصلا من سجل
رسمى، وهي موجودة منذ سنوات فى جدة، عن الحجاج الذين ينزلون فى
ميناء جدة، وجرت مراجعتها فيما يتعلق بالرعايا الأوروبيين عن طريق
المثلين القنصليين فى جدة، يمكن الاعتماد على هذه الأرقام من منطلق أنها
دقيقة إلى حد ما؛ فى الوقت الذى اعتمدت فيه فى مسألة الحج البرى على
ملاحظاتى الخاصة، التى أجريتها قبل ثلاث سنوات، من ناحية وعلى
الإحصائيات التى حصلت عليها من القاهرة ودمشق من ناحية أخرى، وفيما
يتعلق بالجدول الخاص بالسكان فى مختلف البلاد الإسلامية، أجدنى
مضطرا إلى الاستفادة بصورة مباشرة من مصادر المعلومات الأوروبية، ومن
المسلم به أنى لم أحصل من جدة على أية معلومات خاصة بهذه النقطة؛ لكنى
عن طريق الاعتماد على الأرقام التى ترد بشكل عام فى الكتيبات الإرشادية،
وعن طريق توثيق وتصحيح هذه الأرقام عن طريق الرجوع إلى الأشخاص
الذين أمكننى الوصول إليهم والذين يعرفون هذه البلاد، آمل أن أكون قد
توصلت إلى الحقيقة التقريبية، التى تكفى لإعطاء القارئ العام فكرة عن
النسب العددية للإسلام، وأنا هنا لن أدعى الدقة الصارمة، ولا أدعى أيضا
أن الوصول إليها يمكن أن يساعدنى كثيرا فى فحوى هذا الموضوع.

وأنا أورد فيما يلى الجدول الذى أعددته لذلك:

# جدول الحج فى مكة فى العام ١٨٨٠

| جنسية الحجاج | الوصول عن طريق البحر | الوصول عن طريق البر | إجمالى عدد المسلمين |
|---|---|---|---|
| الرعايا العثمانيون بما فيهم الحجاج القادمون من سوريا ومن العراق، لكنهم ليسوا من مصر او الجزيرة العربية | ٨٥٠٠ | ١٠٠٠ | ٢٢٠٠٠٠٠٠ |
| المصريون | ٥٠٠٠ | ١٠٠٠ | ٥٠٠٠٠٠٠ |
| المغاربة (أهل المغرب)، أى المسلمين الناطقين باللغة العربية، من ولايات البربر، طرابلس، تونس، الجزائر، المغرب، هؤلاء يجرى دوما ضمهم إلى بعضهم البعض، وليس من السهل تمييز بعضهم على بعض. | ٦٠٠٠ | | ١٨٠٠٠٠٠٠ |
| عرب اليمن | ٣٠٠٠ | | ٢٥٠٠٠٠٠ |
| عرب من عمان وحضرموت | ٣٠٠٠ | | ٣٠٠٠٠٠٠ |
| عرب من نجد، عسير، والأحساء، ومعظمهم من الوهابيين. | ٥٠٠٠ | | ٤٠٠٠٠٠٠ |
| عرب من الحجاز، منهم نحو ١٠٠٠٠ من المكيين | | ٢٢٠٠٠ | ٢٠٠٠٠٠٠ |
| زنوج من السودان | ٢٠٠٠ | | ١٠٠٠٠٠٠٠ |
| زنوج من زنزبار | ١٠٠٠ | | ١٥٠٠٠٠٠ |
| ملباريون من رأس الرجاء الصالح | ١٥٠ | | |
| فرس (أى من بلاد فارس) | ٦٠٠٠ | ٢٥٠٠ | ٨٠٠٠٠٠٠ |
| هنود (رعايا بريطانيون) | ١٥٠٠ | | ٤٠٠٠٠٠٠٠ |
| سكان جزر الملايو، وبخاصة جاوة والرعايا الهولنديون | ١٢٠٠ | | ٣٠٠٠٠٠٠٠ |
| صينيون | ١٠٠ | | ١٥٠٠٠٠٠٠ |
| مغول من خانقين khanates، مدرجون ضمن الحج العثمانى | | | ٦٠٠٠٠٠٠ |
| الزاس، شراكسة، تتار.. إلخ (رعايا روس)، مدرجون ضمن الحج العثمانى | | | ٥٠٠٠٠٠٠ |
| افغان مستقلون وبلوخيون مدرجون ضمن الحجين الهندى والفارسى | | | ٣٠٠٠٠٠٠ |
| إجمالى عدد الحجاج فى عرفات | ٩٣٢٥٠ | | |
| إجمالى تعداد المسلمين | ١٧٥٠٠٠٠٠٠ | | |

تحتاج الأرقام التقريبية التى أوردتها هنا إلى شىء من التفسير حتى يمكن الاستفادة منها فى إلقاء نظرة عامة على الإسلام، سوف أتناول هذه الأرقام بالترتيب الذى وردت عليه، وأحاول تجميعها، من باب التسهيل تحت العناوين المذهبية المختلفة، وهنا ينبغى ألا يغيب عنا، أن الإسلام الذى تأسس على أن يكون لمجتمع واحد من الناحية السياسية والدينية، منقسم الآن، لا إلى أمم كثيرة، وإنما لمذاهب كثيرة أيضاً، يزاد على ذلك أن هذه المذاهب كلها تعتنق معتقدات أساسية محددة، فضلاً علي أن هذه المذاهب كلها تقوم بالحج إلى مكة، التى تلتقى فيها هذه المذاهب على أرضية مشتركة، من هنا تصبح الأهمية المعلقة على الحج أمراً مطلوباً فى ضوء هذه الحقيقة.

تتمثل المعتقدات الرئيسية الشائعة بين المسلمين جميعا فيما يلى:

١- الإيمان بإله واحد، هو خالق ومنظم كل الأمور والأشياء.

٢- الإيمان بالحياة الآخرة والثواب والعقاب.

٣- الإيمان بالوحى السماوى الذى نزل أولاً على آدم عليه السلام والذى تجدد على فترات ونزل على نوح، وإبراهيم، وموسى، وعيسى بن مريم، ثم بشكله الكامل على محمد صلى الله عليه وسلم، هذا الوحى ليس عقديا فقط، وإنما هو أيضاً وحى ممارسة وتطبيق، هذا الوحى يزعم أنه علم قاعدة كونية حياتية لكل البشر فى السياسة، وفى التشريع، وكذلك أيضاً فى المذاهب وفى الأخلاق، وهذا هو ما يسمى الإسلام.

٤- الإيمان بأن القرآن هو كلام الله سبحانه وتعالى، والإيمان بتفسيره الذى أوحى به النبى صلى الله عليه وسلم وصحابته، والمتمثلة فى الحديث الشريف.

هذا كله موجز فى كلمات شهيرة " لا إله إلا الله، محمد رسول الله"، التى تشكل أساساً عقدياً مشتركاً فى كل مذهب من مذاهب الإسلام- كما أن المذاهب كلها تشترك فى الأعمال الدينية الأربعة: الصلاة، والصوم، الزكاة، والحج، والتى ينظمها القرآن نفسه، هذه المذاهب تختلف اختلافاً كبيراً فى أمور أخرى فيما يتعلق بالعقيدة والممارسة؛ تتسع هوة ذلك الاختلاف اتساعاً كبيراً تبدو معه المذاهب ليست فقط متباينة فحسب عن بعضها البعض وإنما معادية لبعضها البعض، وعلى الرغم من ذلك يتعين علينا الاعتراف

بأنها ليست مستعصية تماماً على الاتفاق والمصالحة أكثر من الملل المقابلة لها فى المسيحية، والسبب فى ذلك أن المذاهب الإسلامية كلها تسمح لبعضها البعض بالتميز والتباين داخل وعاء الإسلام، كما أن المذاهب تصلى فى مساجد بعضها البعض ويسجدون فى الأضرحة نفسها أثناء الحج، يزاد على ذلك أن مذاهب الإسلام (O) لا تدين أخطاء بعضها البعض، على أنها أمور لعينة تماماً اللهم باستثناء الوهابيين- على حد علمى- الذين يتهمون المسلمين الآخرين بالشرك وعبادة الأصنام، ويمكن لنا تقدير إعداد المذاهب الكبرى، بصورة تقريبية على النحو التالى:

١- السنة أو المسلمون الأصوليون ١٤٥٠٠٠٠٠٠

٢- الشيعة، أو مذاهب (سيدنا) على ١٥٠٠٠٠٠٠

٣- الأباضية ٧٠٠٠٠٠

٤- الوهابيون ٨٠٠٠٠٠

السنة، أو أهل الطريق، هم أهم هذه المذاهب إلى حد كبير، وهم فى علاقتهم بالمذاهب الأخرى مثل الكنيسة الكاثوليكية بالنسبة لمختلف الملل أو النحل المسيحية، وهم يدعون أنهم وحدهم يمثلون ذلك المجموع من موروث الآراء السياسية والدينية، والذى يعد علامة من علامات المذهب الحى، وأهل السنة يرون إضافة إلى العقائد التى سبق ذكرها، أن وجود قنوات الموروث الشرعية الأخرى يصبح غير ذى بال فى ضوء ذلك، وأهل السنة يقولون: إن أقوال الخلفاء الأربعة الأول، التى جرى جمعها فى القرن الأول من العصر الإسلامى، إنما هى من قبيل الوحى ولا يمكن الطعن فيها، وهذه الأقوال شأنها ، إلى حد ما شأن الأقوال الفقهية لأئمة الإسلام الأربعة، ابو حنيفة، مالك، الشافعى، وابن حنبل، ويجئ من بعدهم وبدرجة أقل فتوى كبار العلماء إلى يومنا هذا، مجموعة الآراء التعليمية التى يمكن الحصول عليها من هذه المصادر يطلق عليها اسم الشريعة (يقولون لها الشريعة الشريفة فى تركيا)

---

☆ الإسلام:
١- الإيمان بالله وحده لا شريك له وشهادة أن محمدا عبده ورسوله.
٢- الإيمان بالكتب السماوية: التوراة، الزبور، والإنجيل، والقرآن.
٣-الإيمان بالملائكة واليوم الآخر وبالقدر خيره وشره (المترجم).

وهى تشكل القانون الرئيسى فى الإسلام، ويقولون أيضاً إنه ليس من الشرع ولا يصح الاعتراض على أو معارضة الشريعة؛ فى حين أن الأئمة انفسهم لا يمكن مقارنتهم بآباء كنيستنا المسيحية، وأن التمثيل الحى فيما بينهم لسلطة النبى المؤقتة، يتمثل فى شخص الخليفة أو الولى، على الرغم من وجود انقسام كبير فى الرأى حول الخط الدقيق للخلافة فى الماضى والأحقية الشرعية للقب فى الوقت الحاضر، لكن هذه المسالة شديدة التعقيد والأهمية على نحو يصعب الكلام فيه فى الوقت الحالى.

أهل السنة يشكلون السلطة والموروث(الحديث)، ولما كان عددهم يزيد على عدد المذاهب الثلاثة الأخرى مجتمعة وبنسبة تصل إلى أربعة ونصف إلى واحد، فذلك يعطيهم الحق فى التعامل مع أصحاب المذاهب الأخرى على أنهم بدعيون، ومع ذلك، يجب ألانسلم أن أهل السنة لهم آراء متجانسة تماما، مسار الإسلام الأصولى ليس طريقا ممهدا مثل الشكل الذى أصبحت عليه الكنيسة الكاثوليكية النصرانية، لكنه مثل طريق من طرق الحج الإسلامى الذى يمضى ملتويا، وإن شئت فقل متاهة من المسارات المنفصلة، بعضها قريب، وبعضها منفصل، وبعضها غير مرئى من بقية الطرق، لكن هذه الطرق كلها تسير ، وهذا صحيح، فى الاتجاه الرئيسى، متجهة هنا وهناك فى أرض وعرة،حيث توجد سلسلة من الجبال يتعين تجاوزها، أو إلى بعض المضايق الخانقة التى تلتقى عندها لكنها تتبع أساليبها الخاصة التى قد تمليها شواذات الطبع والعرق، هذا يعنى أنه لاتوجد سلطة عامة فى الدنيا تتفوق على السلطات الأخرى، وليس فى الإسلام أيضاً منصب مماثل لمنصب البابوية المعصومة من الخطأ.

معظم الأمم الإسلامية، لكل واحدة منها مذهبها أو مدرستها الخاصة بها، وهى مكونة من علماء هذه الأمة ويرأسها مفتى أو شيخ الإسلام، وهذه المدارس مستقلة عن أى شكل من أشكال التأثير أو النفوذ الخارجى، وإذا ما التقت هذه المدارس فإن ذلك يكون فى مكة ولكن لا توجد فى مكة كلية من المشايخ أو حتى سلطة مركزية؛ وعلى الرغم من إحالة بعض القضايا إلى مكة أو إسطنبول أو القاهرة، فإن الفتاوى التى تصدر ليس لها قوة الإلزام على المؤمنين فى البلاد الأخرى، يزاد على ذلك أنه توجد إلى جانب هذه الفروق

الوطنية، ثلاث مدارس كلامية معترف بها تتقاسم فيما بينها ولاء الأصوليين، والتى ليست متعارضة من حيث التنظير، لكنها تمثل فى واقع الأمر كثيرا من الخطوط المميزة فى الفكر الدينى، جرت العادة بين الكتاب الأوروبيين على وصف هذه المدارس بأنها مذاهب، ولكن لفظ "مذهب" غير دقيق بالتأكيد، لأن التمايزات المعترف بها فى تعاليم كل مدرسة من هذه المدارس ليست صارخة الوضوح مثل التمايزات التى فى مجموعات كنائسنا، التى منها العالى ومنها المنخفض، ومنها الواسع، الواقع أن هناك تناظرا بارزا يمكن تتبعه بين هذه المراحل من تعاليم الكنيسة الإنجليزية، وبين ما يسمى " بالمذاهب الأصولية" الثلاثة فى الإسلام، هذه المدارس الإسلامية الثلاثة هى: المدرسة الحنفية، والمدرسة المالكية، والمدرسة الشافعية، فى الوقت الذى تضاف فيه مدرسة رابعة هى المدرسة الحنبلية، لكن أتباع ومريدى هذه المدرسة قليلون فى هذه المرحلة وعلى نحو يجعلنا لا نلقى لها بالا [1].

يمكن وصف المدرسة الفقهية - الحنفية بأنها مدرسة الطبقات العالية، وهى جزء بارز فى الدولة والمؤسسة الدينية، إن جاز لنا استعمال مثل هذه التعبيرات عن الإسلام ، يعتنق العرق العثمانى بكل أفراده وبلا استثناء المذهب الحنفى ، وهم العرق الحاكم فى الشمال، وأهاليهم الذين أسسوا إمبراطوريات فى وسط آسيا وجنوبها، يزاد على ذلك أن الطبقات الرسمية فى معظم أنحاء العالم تعتنق المذهب الحنفى، بما فى ذلك بلاط الحكام المنابين فى مصر، وطرابلس ، وتونس، ويبدو أيضاً أن بلاط أغلبية أمراء الهند يعتنقون أيضاً المذهب الحنفى، وربما كانت المدرسة الحنفية أشد المدارس محافظة لا بطبيعة منطقها وإنما لأنها يتبعها عدد كبير من الناس، هذه المدرسة محافظة بالمعنى الحقيقى للكلمة لأنها تبقى الأمور على ما هى عليه، العلماء الأتراك مصرون دوما على أن الاجتهاد، بمعنى توسيع المذهب، أمر مغلق تماما، وأن الشريعة القائمة لا يمكن الإضافة إليها أو الحذف منها، وأن أى مجتهد أو عالم جديد من علماء الإسلام، لاينتظر منه تكييف تلك الشريعة بما يناسب العالم الحديث، وفى الوقت ذاته، وعلى الرغم من عناد الحنفية فى مسائل الرأى، فإنها متراخية تماما فى مسألة التطبيق

---

١ - المذهب الحنبلى يكاد يكون مقصورا تماما على المدينة (المنورة) والمقيم فى وسط الجزيرة العربية.

والممارسة، هذا يعنى أن تعليمها الأخلاقى، حسب اعتقادى، يجرى تكييفها على نحو ضيق، لا يناسب ذوق كبار أتباعها، أعداء هذه المدرسة يتهمونها بأنها مدت تسامحها إلى الأضطرابات الأخلاقية الشائعة بين الأتراك والى استعمالهم للمشروبات المتخمرة، عدم الاعتدال فى اتخاذ المحظيات ورذائل أخرى أسوأ من ذلك، واقع الأمر أن الحنفية هى المدرسة الرسمية للأصوليين العثمانية، هذا المذهب الحنفى يضم حاليا السواد الأعظم من أولئك الذين يساندون فى الوقت الحالى الادعاءات الروحية التى جرى إحياؤها فى إسطنبول.

هذا يعنى أيضاً أن الحج الذى وصفناه فى الجدول بأنه عثمانى إنما يكون مكونا فى معظمه من رجال ينتمون إلى هذه المدرسة الفقهية، ومع ذلك ينبغى ألا نسلم أن الحجاج الذين يقدر عددهم بنحو ٨٥٠٠ حاج، أو الاثنين وعشرين مليون نسمة الذين يمثلهم ذلك الحج، كلهم من الأتراك، المرجح أن التركى العثمانى الحقيقى يعد الآن من بين الزوار القادرين الذين يزورون مكة، ونحن نشك فى أن تعداد الاتراك فى أوروبا وفى آسيا يمكن أن يزيد على أربعة ملايين نسمة، وفيما يتعلق بالحج لدينا من الأسباب الوجيهة ما يجعلنا نقطع بصحة ما نقول به، فى تركيا، نجد أن الشبان الصغار أصحاب الأجسام القوية، الذين يشكلون أول مستلزمات الحج، يجرى سحبهم من المهام الأخرى إلى العمل فى الخدمة العسكرية، ويصعب على أى منهم الطواف حول الكعبة دون أن يكون مرتديا زى السلطان، التجار الأثرياء الذين يعدون ثانى متطلبات الحج فى البلدان الأخرى، يكادون يكونون غير معروفين بين الأتراك، يزاد على ذلك، أن المسئولين، وهم الطبقة الوحيدة الميسورة فى الإمبراطورية، ليس لديهم متسع من الوقت ولا النية فى التغيب عن دسائسهم الدنيوية.

يزاد على ذلك، أن المسؤل التركى بلغ من التحضر حدا أصبح معه غير مستعد لتحمل مشقة الحج عن طيب خاطر، وعلى الرغم من التخفيضات الناجمة عن الإبحار البخارى فى البحر الاحمر، فإن الحج لايزال مسألة غير صغيرة، يزاد على ذلك، أن الحاج عندما ينزل إلى أرض جدة، يجد الأشياء كما كانت عليه قبل مائة عام، فى وقت تغير فيه التركى نفسه، والتركى فى

ظل فكره الحديث عن اللباس والراحة، قد يلتمس له العذر فى تراجعه مشمئزا من العرى العجيب لثياب الحج، والسير حاسر الرأس إلى عرفات فى شمس شديدة الحرارة، يزاد على ذلك أن تلك الرحلة البرية التى تقدر بنحو ثلاثمائة ميل يتحتم عليه قطعها قبل أن يصل إلى المدينة (المنورة)، فضلا عما يعتبره البعض أصعب المصاعب، والذى يتمثل فى الانتظار فترة طويلة فى موانئ الحجاز غير الصحية، يضاف إلى ذلك أن المسؤل التركى تعلم كيفية التخلص من كثير من شكليات دينه، الأمر الذى يجعله لا يجد هنا أية صعوبة فى التماس الأعذار لنفسه، واقع الأمر أن التركى نادرا ، أو بالأحرى مطلقا، ما يؤدى فريضة الحج.

يتكون الحج العثمانى فى معظمه من أكراد، وسوريين، وألبانيين، وشراكسة، والزاسيين، وتتار من روسيا وخانقين Khanates، يتكون من كل شىء ما عدا الأتراك الحقيقيين، هذا بالإضافة إلى أن أولئك الذين يشتهرون بتقواهم أو علمهم ليسوا أيضاً من الأتراك، يزاد على ذلك أن مدرسة القديس صوفيا فى إسطنبول خسرت سمعتها القديمة باعتبارها مقرا للمعرفة الدينية، والمعروف أن علماء هذه المدرسة أكثر انشغالا برعاية البلاط الامبراطورى اكثر من أى علم آخر، وقد بلغت هذه الحالة من الخطر حدا جعل الطلاب الجادين يفضلون الإقامة فى بخارى، أو حتى فى المدارس الفارسية البدعية، باعتبارها طريقا أكثر واقعية فى تحصيل العلم، تتباهى تركيا فى الوقت الراهن بقلة قليلة من علماء الدين المرموقين، إضافة إلى حفنة صغيرة من المفكرين المستقلين.

الحج المصرى أكثر ازدهارا، ونظرا لأن المواطن القاهرى يتحدث لغة الجزيرة العربية فهو يشعر بالمزيد من الاطمئنان فى الأراضى المقدسة أكثر من ساكنى بلدان الشمال، عادات أهل الحجاز شبيهة جدا بعادات المصريين، كما أن مناخ الأراضى المقدسة ليس أقسى من مناخ بلده، يزاد على ذلك، أن القاهرة يمكن أن تتباهى أيضاً بأن صلتها السياسية بمكة أعرق بكثير من علاقة إسطنبول بمكة، والسبب فى ذلك أن سلاطين مصر اعتبارا من مطلع القرن الثانى عشر كانوا أهم حماة الأراضى المقدسة، هذا فى الوقت الذى كانت فى سلطة الخليفة على الجزيرة العربية دوما من خلال ممثله فى

القاهرة اعتبارا من الغزو العثمانى للحجاز، استمر الحال على هذا المنوال فى مكة إلى العام ١٨٤٠، ولم تبدأ الإدارة المباشرة من إسطنبول إلا بعد افتتاح قناة السويس، ولا يزال الحاكم المناب فى مصر يتقاسم مع السلطان امتياز إرسال المحمل، محفة الجمل، إلى مكة، كل عام حاملا كسوة الكعبة. يضاف إلى ذلك أن الجامع الأزهر فى القاهرة هو الجامعة العظيمة للأعراق الناطقة باللغة العربية، وعلماء الأزهر هم الأكثر ذيوعاً وشهرة فى الإسلام. من هنا، يتعين الإقرار بالنفوذ المصرى باعتباره عاملا مهما فى القوة المكونة للرأى الإسلامى، صحيح أن الخديوى الراحل فعل الكثير من أجل إضعاف هذا النفوذ عن طريق الخيانة وعن طريق مظاهر دلاله مع أوروبا، كما انخفض عدد الحج المصرى، فى زمن، هذا الخديوى، إلى مستوى متدن جدا، لكن محمد توفيق المخلص، على الرغم من كونه مسلما ليبراليا، استعاد كثيرا من نفوذ بلاده فى مكة، ومن المؤكد أن مصر فى المستقبل بعد ازدهارها المادى، قد يصبح لها من جديد دور قيادى وبارز فى السياسة الإسلامية[١]. سوف نتحدث عن ذلك فيما بعد.

يجرى تدريس المدارس الفقهية الثلاثة فى الجامع الأزهر، والمصريون مقسمون حسب طبقاتهم فيما بين هذه المدارس الثلاثة، فالحاكم المناب هو وحزبه وهم من أصل عثمانى يعتنقون المذهب الحنفى، كما يعتنقه أيضاً أحفاد البكوات الشراكسة، لكن كبار تجار القاهرة هم وعامة المدينة يعتنقون المذهب الشافعى، فى حين يتبع الفلاحون، سكان الدلتا، كلهم المذهب المالكى، قبائل غرب النيل هى الأخرى تتبع قاعدة العامة التى يتبعها سكان أفريقيا[٢].

---

١ ـ كتبت هذا الكلام قبل الأحداث التى وقعت فى شهر سبتمبر الماضى التى أعطت قوة دافعة جديدة لليبرالية فى مصر، على الرغم من أن هذه القوة الدافعة أدت إلى سحب اتجاه الفكر فى مصر من يد الخديوى.

٢ ـ التشكيل المضبوط لجامعة الازهر على النحو التالى: مائتان من الشافعية ما بين مشايخ او علماء الأزهر الذين يقدر عددهم بنحو ٥٠٠ شيخ، ومائتان من المالكية ومائة من الاحناف، وخمسة من الحنابلة، كل قسم من هذه الأقسام له شيخ كبير، يختاره القسم وتكون فتواه حاسمة فيما يتعلق بالمذهب، وهناك أيضاً شيخ الإسلام، وهو منتخب ايضا، ويبت فى المسائل الدينية، التى تهم الجميع، وهناك أيضاً سماحة المفتى وهو يعين من قبل الحكومة وهو الذى يصدر الفتوى فى المسائل الشرعية، والمفتى يكون حنفياً، لكن شيخ الإسلام الحالى شافعى، وكذلك أيضاً السواد الاعظم من الطلبة الذين يقدر عددهم بنحو الف وخمسمائة طالب.

المالكية: تختلف هذه المدرسة اختلافا كبيرا عن الحنفية، وإذا كنا وصفنا الحنفية بأنها أعلى المؤسسات الإسلامية، فلابد إذا من وصف المالكية بأنها أدنى المؤسسات الإسلامية، المالكية تطهرية وقاسية فى عقيدتها، وقاسية فى أخلاقياتها، ومن يعتنق المذهب المالكى هم وبلا أدنى شك أكثر المؤمنين حماسا وأصولية، المالكية؛ إذ يمثلون أكثر من المسلمين الآخرين الجدية القديمة لصحابة النبى صلى الله عليه وسلم، والسيف الذى يمسكون به فى أيديهم هو سيف الله. والتقوى موجودة عند المالكية ظاهرة وباطنة، وعبد القادر العسكرى The soldier هو قدوتهم؛ يكثر وجود الأولياء HOLY بين المالكية.والمالكية يؤمنون بالأشياء الخارقة للطبيعة، وبالأحلام النبوئية، ويرون المعجزات على أنها أحداث يومية، وعرب أفريقيا، وعلى العكس من أهلهم فى الجزيرة العربية نفسها يرون أن الصلاة والصوم لا يزالان مهمة شاقة، المالكية هم أكثر المسلمين اهتماما بالحج، فى الجزائر ومراكش (المغرب) يشيع أن يقوم شاب ثرى صغير ببناء مسجد، كما لو كان يبنى لنفسه اسطبلا لتربية الخيل، قيام مثل هذا الشاب بمثل هذا العمل يبرز فى العالم، كما أن حياة الصلاة أمر معتاد وصارم، فيما يتعلق بالاخلاق فهو يقسو حيث يقسو الإسلام ومتسامح حيث يتسامح الإسلام، والنبيذ عقدته المكروهة. وهو يتقشف فى معظم الأحيان فى كل من اللحم والتبغ، وهو محترم ويحظى بالاحترام بشكل عام، لكن الإصلاحات التى يود فرضها على الإسلام تبلغ من الرجعية حدا يصعب معه قبول معظم المسلمين لها أوتلاؤمها مع ضروريات العصر، ومع ذلك، من المعروف أن إحياء الإسلام إذا ما أخذ شكل الحرب الدينية، فإن الأعراق الأفريقية هى التى ستتولى الدور القيادى فى مثل هذه الحرب، ومعروف أن كلا من طرابلس وتونس والجزائر والمغرب فيها أعراق شديدة البأس- رجالها قادرون على خلق المتاعب والأوجاع لأوروبا، يضاف إلى ذلك أن الحكم الذى دام خمسين عاماً لم ينجح بعد فى استيعاب الصحراء الكبرى الفرنسية.

يصعب الحصول على إحصائيات دقيقة عن نسبة الحجاج الذين يفدون من تلك البلدان إلى مكة، لكن يبدو أن الحج الجزائرى هو الأصغر، ويرجع السبب فى ذلك إلى العقبات التى تضعها الحكومة الفرنسية لعرقلة الحج،

مستهدفة بذلك عزل الجزائر عن سائر العالم الإسلامى، والحاج الجزائرى يطلب منه دفع ١٠٠٠ فرنك قبل السماح له بالإبحار إلى جدة، كما يجرى إخضاعه أيضاً لشكليات أخرى لا لزوم لها، ولايزال العدد الذى يجرى إيفاده إلى مكة كبيرا، والحماس إلى الحج متزايداً، على الرغم من عزوف الطبقات العليا عن الحج من باب خوفها أن تخسر حظوتها عند الحكومة الفرنسية.

يشكل المغاربة القسم الأكبر من الحج المراكشى، هؤلاء المغاربة لهم اسم كبير فى مكة بسبب حماسهم وشجاعتهم الدينية، والمغاربة مشهورون بتفاصيلهم الدقيقة فى أدائهم الطقوس الدينية، مستوى التعليم الدينى بين المغاربة أوسع منه بين السواد الأعظم من المسلمين، تعرفت أثناء وجودى فى جدة على شاب عربى من منطقة شنغيات Shinghiat فى السنغال، والذى كان عالما على الرغم من بداوته، وكان فقيها فى الشريعة إلى حد أنه كان يرجع إليه أكثر من مرة فى وجودى، لاستفتائه فى موضوعات تخص الدين والشريعة، أعربت عن اندهاشى عندما وجدت بدويا على هذا القدر من العلم، إذ كان واضحا أنه واحد من العرب لكنه أبلغنى أن وضعه ليس استثنائيا وأن السواد الأعظم من بدو جنوبى المغرب يقرءون القرآن، والمغاربة لاتزال لهم مكانة كبيرة فى الإسلام أكثر من المكانة التى هم عليها، لولا أنهم يختلفون مع السنة فى نقطة واحدة، المغاربة لا يعترفون بالخلافة الحديثة، وهذا الجزء من أهل السنة الذين يعترفون بالخلافة العثمانية على خلاف مع المغاربة، وفيما عدا هذه النقطة يعد المغاربة سنيين ومن أهل السنة فى نقاط أخرى.

المسافة ما بين المغربى والزنجى ليست سوى خطوة واحدة، على الرغم من أن هذه الخطوة هى عرقية فى أساسها، وقد تكون خطوة نوعية، العلاقة الدينية والسياسية الغربية مع السودان قوية جدا، وبغض النظر عن مستقبل أقاليم البحر المتوسط المواجهة للساحل الإسبانى، فليس هناك من شك أن شكل الإسلام المغاربى سوف يمتد وينتشر فى وسط أفريقيا، واقع الأمر أن وسط أفريقيا يعد أفضل وأنسب مكان لنشر الإسلام، والإحصائيات، إذا ما أمكن الحصول عليها، يمكن أن تثبت وأنا على قناعة بذلك، أن هناك تقدما إسلاميا، خلال المائة عام الأخيرة، بين الأعراق الزنجية وليست هناك أى

غرابة فى ذلك، الإسلام لديه الكثير الذى يمكن أن يقدمه لأبناء حام، وأنه لن يخذلهم ولن يفشل فى دخولهم فيه - وهذا أكبر بكثير مما يمكن أن تقدمه المسيحية الأوروبية أو التقدم الأوروبى.

يشق التبشير بالمسيحية فى أفريقيا، طريقه ببطء، هذا التبشير ليس عنده أخوة صادقة حتى يقدمها للزنوج اللهم باستثناء الحياة الأخرى - هذا التبشير لايناشد الكرامة والاحترام فى الشخص الذى يراد له الدخول فى المسيحية، هل تدلنى على ذلك التبشير المسيحى الذى يتخذ من الزنجية زوجة ويجلس مع الزنجى على قدم المساواة تماما؟ وتظل علاقاتهم فى أفضل حال كما هى العلاقة بين المعلم والمتعلم، وعلاقة السيد بالخادم، وعلاقة الكبير بالصغير، التبشير الإسلامى من المغرب مختلف تماما، التبشير الإسلامى يقول للزنجى:"تعال واجلس بجانبى، أعطنى ابنتك وخذ ابنتى، كل من يعتنقون الإسلام متساوون فى هذه الدنيا وفى الآخرة أيضاً".

والعبد عندما يصبح مسلما يكتسب وقارا على الفور، ويكتسب أيضاً حق احتقار الرجال الآخرين، أيا كان لونهم، الذين ليسوا مثله، هذه رشوة فى يد الواعظ بالقرآن، إنها رشوة لم تكن بلا جدوى مطلقا فى أعين أعراق العالم المستعبدة [1]. وهنا يمكن اعتبار وسط أفريقيا وارثا للإسلام خلال فترة وجيزة، يقال إن عدد المسلمين فى وسط أفريقيا يقدر بنحو عشرة ملايين نسمة.

المدرسة الشافعية، أو المذهب الثالث من المذاهب الأربعة، هى الأكثر ازدهارا من بين المدارس الأربعة فيما يتعلق بالأعداد، ولها من الخصائص ما يجعلها تبرز من بين المدارس الأربعة على أنها أفضل المدارس التى تناسب البقاء على قيد الحياة فى الصراع القائم بين مدارس الفكر الدينى فى الإسلام، يمكن مقارنة الشافعية بكنيستنا العريضة أو الواسعة، على الرغم من نزعتها المباشرة إلى التكفير، الشافعية لديهم ميل إلى توسيع وليس تضييق علم الكلام، يعلن الأحناف والمالكية بصوت عال أن باب الاجتهاد قد أغلق، وأن التغيير أصبح مستحيلا، ولكن الشافعية ميًالون إلى البحث عن

---

١ - هذا هو السر فى الردة السريعة التى حدثت فى الزمن القديم، بين فقراء الإمبراطوريتين الرومانية والفارسية، كما هو السر أيضاً فى الردة الحالية بين الطبقات الدنيا من الهنود.

مجتهد جديد يتعين عليه القيام بنوع من المصالحة بين الإسلام والظروف والاحوال الحديثة فى العالم، يرى الشافعية أن هناك خطأ فى الأشياء بالصورة التى هى عليها، نظرا لأن الإسلام لم يعد مزدهرا من الناحية السياسية، وهم يودون أن يروا الإسلام متحدا من جديد ومعترفا به حتى وإن كان ذلك على حساب التنازل عن بعض الجماعات العقدية، وأنا أعرف أن الكثيرين من الشافعية أنفسهم سينكرون ذلك، نظرا لأن أى مسلم من المسلمين يرفض الاعتراف بأنه من أنصار التغيير؛ لكن الذى لا شك فيه هو أن هذه الأفكار تشيع بين أعضاء هذه المدرسة على العكس من المدارس الأخرى.

تشيع أيضاً بين الشافعية أفكار عن الإصلاح الخلقى، وهم يتكلمون بصراحة أكثر من المذاهب الأخرى، عن شكهم الذى مفاده أن العثمانيين، على الرغم من مضاجعاتهم وبذاءاتهم واحتقارهم للعدالة، هم السبب فى تدمير الإسلام، العادات والأعراف العربية هى بمثابة الأساس من أفكار الإسلام من فوق هذه الرأس، والسبب فى ذلك أن السواد الأعظم من العرب خارج إفريقيا يعتنقون المذهب الشافعى؛ والشافعية هى مدرسة الفقراء الفضلاء وليست مدرسة الأغنياء الفاسقين، يضاف إلى ذلك أن الشافعية أكثر إنسانية فى توجهها نحو اليهود والنصارى، إذ تجد معهم مشتركا يتمثل فى عبادة إله واحد، وفى القانون الأخلاقى المقدم للإنسان فى أزمات مختلفة، وفى التمييز الطبيعى بين الصواب والخطأ.

قد أكون مبالغا فى ذلك، ولكن شيئاً من هذا موجود بالفعل، وهو إحساس وشعور آخذ فى النمو.

الشافعية لها معقلها فى القاهرة التى يعتنق شيخ الإسلام فيها المذهب الشافعى لكن الشافعية أيضاً المدرسة السائدة فى آسيا التى دخل إليها الإسلام عن طريق المبشرين العرب، غالبية مسلمى الهند يعتنقون المذهب الشافعى، وبخاصة فى رئاسة حيدر أباد وبومباى، اللتين يعد العنصر العربى اقوى عناصرهما، فى حين نجد أن الحنفية هى مدرسة كبار الناس الذين يرجع أصولهم إلى الغزوات المغولية، كما أن كثيرا من العلماء يعتنقون المذهب الحنفى أيضاً، وبخاصة أولئك العلماء الذين درجوا على استكمال تعليمهم



الدينى فى المدارس الحنفية فى بخارى، تسيطر الوهابية أيضاً فى الوقت الحاضر على الطبقات الأفقر، وقد بدأ، فى السنوات الأخيرة، شكل من أشكال الدعاية التركية، فى الانتشار بين الوهابيين ولقى شيئاً من النجاح، لكن سنتناول هذه النقطة أيضاً فيما بعد.

الحج الهندى هو أكثر عددا، ويمثل أكبر عدد من السكان على قائمة الحج، يزاد على ذلك أن الحج الهندى هو الأغنى والأثرى، المسلم الهندى لا يخاف مناخ الجزيرة العربية مثل المواطن وسكان المناطق الشمالية، كما أن قلة قليلة من الذين يطيقون هذا المناخ هم الذين يفشلون فى أداء هذه الفريضة ولو مرة واحدة فى حياتهم، الحكومة البريطانية لا تعرقل الحج ولا تشجع عليه، وكشفت خلال السنوات الأخيرة عن شىء من الإهمال والتغاضى عن مصالح الرعايا البريطانيين المتعلقة بالحج، هذا هو الرأى الذى كنت أسمعه بصورة مستمرة فى جدة والأحداث الأخيرة المتعددة تثبت أن عدم التركيز على الاهتمام بهذه المسألة شىء مطلوب، يزاد على ذلك أن تلك القضية الكئيبة التى نشرت فى صحفنا قبل ما يزيد على عام من الزمان، والتى تخلى فيها قبطان إنجليزى عن سفينة من سفن الحج، قصة حقيقية، وسمعت الناس وهم يرددونها فى كل الظروف التى تساعد على تفاقم الموقف من التهم التى يجرى ارتكابها، قام قبطان السفينة فى نوبة من الغضب بترك السفينة بلا أى مبرر، ولولا التصرف الطيب الذى جاء من جانب ابن أخيه الشاب الصغير الذى رفض مغادرة السفينة من باب الإنسانية، على الرغم من أمر القبطان له بترك السفينة، لضاعت السفينة، وأحدث ذلك التصرف انطباعا سيئا لدى أهل جدة أثناء وجودى فيها. عندما علم الناس أن الحكم الذى صدر على هذا القبطان من قبل محكمة إنجليزية كان عبارة عن تعليق العمل بمؤهل ذلك القبطان مدة عامين، يزاد على ذلك أن الحجاج الهنود جرت أيضاً إساءة معاملتهم فى الحجاز من قبل السلطان طوال العام الماضى من منطلق أنهم رعايا بريطانيون، دون الحصول على أى تعويض، هذا هو القيل والقال الذى يدور فى جدة، وأيا كان الأمر فأنا مندهش لترك أمر مهم للمصادفة المحضة.

مثل الحج الهندى الذى يأتى من جاوة، على هذه الشاكلة، الهولنديون لا يتركون حجهم

ومعروف أن الحج الهولندى الذى يأتى من جاوا يجئ فى المرتبة الثانية بعد الحج الهندى من حيث العدد، سياسة الهولنديين محددة تماما ويبدو أن النتائج تبرر وجودها، يقول الهولنديون: إنه ليس هناك وهم لدى المسلم أكثر من زيارته لمكة، ويقول الهولنديون أيضاً إن الحاج الذى يعود من الحج يندر أن يشتكى من كونه أحد رعايا دولة مسيحية، يزاد على ذلك أن الإحباط الذى اعتاد الحجاج جميعا على الاحساس به، وبخاصة من يعودون منهم بآمال كبيرة ويكتشفون أن أراضيهم المقدسة غير مميزة عن مناطق العالم الأخرى، وأن الحج إلى مكة يتحتم أن يكون محفوفا بأخطار كثيرة ومضايقات لا يجد الحاج مفرا من الاعتراف بأنها ناتجة عن سوء الحكم الإسلامى، والحاج بعد أن تطأ أقدامه أرض الشاطئ المقدس، يجد نفسه محاصرا بالمخاطر، فالمسئولون الأتراك ينهبون الحجاج، ويستغفلهم ملحاحو المدن، ويجرى سرقتهم علانية بواسطة قطاع الطرق، والحكومة الدينية فى هذه المنطقة ليس لديها ما تعطيه تعويضا لهؤلاءالحجاج، يزاد على ذلك أن حماة الأمن الذين بيدهم الحكم يطلبون أتعابا، الحاج يجرى تضليله والضحك عليه وإساءة معاملته.الحاج يجد الحجازيين، وسدنة الأماكن المقدسة، وخدام الأضرحة، وقد اصطبغوا بصبغة المال والأعمال أكثر من الصبغة الإيمانية، ويعود إلى وطنه وهو أكثر حزنا، وأكثر حكمة وتعقلا على حد قول الهولنديين، وأنا لا أؤكد هنا أن الهولنديين على حق فيما يقولون؛ لكن هذا هو المبدأ الذى يتصرفون بناء عليه، ويتفاخرون بنجاحه.

نحن، كما سبق أن قلت، وبسبب إهمالنا الكبير نترك هذه الأمور كلها للمصادفة فى الهند، الهند لاتزال، على الرغم من ذلك كله، تحتل المكان الأول فى الحج؛ وتتمثل الأمور كلها التى تجرى دراستها فى الوقت الحالى، فى تلك الرقعة بالغة الأهمية من الأرض التى تتسودها عقيدة الإسلام، لم يكن للإمبراطورية المغولية فى زمان عظمتها، نظير فى الإسلام، وعلى الرغم من أن قوتها السياسية موقوفة التنفيذ، فإن الدين نفسه آخذ فى التحلل فى جميع الأحوال، والأرجح أن الهند لها فى الوقت الحالى علاقة أوثق مع مكة أكثر من أية دولة أخرى، وينظر الكثيرون إلى الهند باعتبارها أرض الإسلام فى المستقبل، واقع الأمر أننا يمكن أن نؤكد أن سير الاحداث فى الهند، أكثر

من أى شىء آخر، هو الذى سيحدد مصير الإسلام فى المستقبل القريب وفى الجيل القادم.

وعلى الرغم من أن أهل الملايو، لا يحتلون مكانة عالية فى الكومنولث الإسلامى، فإن أهميتهم تنبع من أعدادهم ومن ازدهارهم التجارى، لكن المراقب الأوروبى يرى أن هذه الأهمية تنبع من الحقيقة التى مفادها أن عددا كبيرا من سكان الملايو يعدون رعايا هولنديين، وهولندا، إن قدر لها التعلم من دروس التاريخ بغية الاستفادة من ذلك مستقبلا، يتحتم عليها أن تربط مصيرها بمصير ألمانيا خلال سنوات قلائل، والشىء نفسه ينسحب على المستعمرات الهولندية، أنا لن أزيد على ذلك الأمل المرتقب الذى بدأ بالفعل، لكن ما أقوله هو مجرد اقتراح، جدير بأن نوليه المزيد من الاهتمام، الحجاج من أهل الملايو،دونا عن سائر الحجاج الآخرين، يزورون الأضرحة، وهم لا يتباهون بأن لهم مدرسة كلامية كبيرة أو واجهة دينية خاصة بهم؛ والحجاج الذين يأتون من الملايو ينظر إليهم نظرة متدنية بسبب عوزهم وإملاقهم، لكنهم يشكلون عنصرا مظلما فى المستقبل، وقابلا للزيادة أو النقصان، ولما كان أهل الملايو قد دخلوا الإسلام على أيدى العرب، ونظرا لانحدارهم عن العرب إلى حد ما، فهم على حد علمى، يعتنقون المذهب الشافعى، وميالون إلى الممارسات الإسلامية واسعة الأفق وليس الممارسات ضيقة الأفق، ونقلا عن التمثيل القنصلى الهولندى فى جدة فإن عدد سكان الملايو يقدرون بنحو ثلاثين مليون نسمة، ويتزايد عددهم فى كل من جاوة والجزر الاخرى فى أرخبيل الملايو، زيادة سريعة.

يشكل الصينيون لغزا آخر، شاهدت قلة قليلة منهم فى الشوارع، وتحريت عنهم لكنى لم أستطع الحصول على معلومات مؤكدة، سمعت أن عدد الصينيين يقدر بنحو عشرين مليون صينى فى الحد الأعلى ونحو خمسة ملايين صينى فى الحد الأدنى، لكن المؤكد أن عدد الصينيين كبير [1].. يقال إن المسلمين استوطنوا الصين فى القرن الإسلامى الثانى، وإن مبشريهم كانوا

١ - أدى العصيان الذى حدث فى يونان yunan وكاشجار kashgar، والذى جرى قمعه بوحشية كبيرة إلى تقليل عدد المسلمين، لكن هناك اسباباً قوية تجعلنا نظن أن المسلمين يحققون تقدما مطرداً فى الإمبراطورية.

رجال من العرق العربى، والمسلمون الصينيون مبعثرون على شكل جماعات فى سائر أنحاء الصين، وفى الداخل بصفة خاصة، ولهم الحرية كل الحرية فى الممارسة الدينية، وهم يشكلون هيئة واحدة ومتحدة تحظى بالاحترام وتفرض احترامها على الغير - من هنا نجد أن ما يسميه الصينيون "هوى - تسى" houi-tsi وإن شئت فقل: أهل البعث، على حد تسمية الناس لهم، يجرى استخدامهم فى أعلى مناصب دولة الصين [1].. من الواضح، على الرغم من ذلك كله، أن المسلمين الصينيين لا يرتبطون بأى علاقة مع الحياة الإسلامية الحديثة، وسبب ذلك، أن قلة قليلة من هؤلاء المسلمين الصينيين هم الذين أدوا فريضة الحج خلال السنوات القلائل الماضية، وأنا إذا ما أضفت الصينيين ضمن قوائمى باعتبارهم من أهل السنة أو الشافعيين فسيصبح ذلك تقصيرا فى حق التصنيف الآخر، هذا يعنى أن موقف الصينيين فى العالم الإسلامى قد يكون شبيها فى عزلته بالموقف الذى تقفه الكنيسة الحبشية فى عالم النصارى، هؤلاء الصينيون قد يثبتون وجودهم فى يوم من الأيام، لأن الصين ليست أمة ميتة، وإنما أمة نائمة ليس إلا، وبوصولنا إلى الصينيين نكون أنهينا مسحنا للإسلام الأصولى.

يتبقى لنا الآن تناول المذاهب البدعية، المذهب الشيعى، أو مذهب على، يظل هو الأشهر وبلا منافس من بين هذه المذاهب؛ ويرجع أصل هذا المذهب إلى يوم وفاة النبى صلى الله عليه وسلم ، عندما اختير أبو بكر خليفة واستبعد على (رضى الله عنهم)، وأنا لن أجدد هنا الحجج التى وردت فى ذلك الجدل أو النزاع القديم، ولكنى أقول إن النزاع لايزال موجودا، على الرغم من أنه لم يعد منذ زمن طويل، سبب الخلاف الوحيد بين الشيعة والسنة.

نظراً لأن المذهب الشيعى بدأ فى أساسه على شكل انقسام سياسى، فإنه يتجلى الآن فى شكل بدعى، يبتعد كثيرا عن طريق الإسلام الأصولى، وتتجلى ملامح الخلاف الشيعى مع السنة فيما يلى - أولا، التبرئة من الخلافة والسلطة الهرمية بكل أنواعها، ثانيا، الإقرار بالحكم الحر عند العلماء، والإقرار فى الأمور المتعلقة بالدين، وثالثا، ميل عام إلى المعتقدات الخرافية

---

١ - قارن هذا الكلام بما قاله هيو hue عن أصول هؤلاء العلماء.

التى لا يقرها القرآن أو الدليل المنقول عن صحابة النبى صلى الله عليه وسلم، الشيعة يؤمنون أيضاً - وهذا هو نزاعهم العقدى الكبير مع أهل السنة التوحيديين - بسلسلة من التجسيدات بصفات الله سبحانه وتعالى فى شخوص "اثنى عشر إماما"، ويؤمنون أيضاً بمجئ آخر هؤلاء الأئمة على شكل مسيح أو "مهدى"، كما يؤمنون أيضاً بمعتقدات مقدمة بصفة خاصة من شيخ المذهب الشيعى ومقللة إلى أقل حد ممكن بواسطة المتشرح mutesharreh أو الأصولى، يزاد على ذلك أن هذه الأشياء الأخيرة، هى من عرف الأشياء الزائدة التى لا لزوم لها وغير ضرورية فى المذهب الشيعى، ويرجع انتشار هذه الامور بلا أدنى شك، إلى الذهنية الفارسية نفسها ، التى يغلب عليها التشكك والسذاجة، كما تسود أيضاً فى الأماكن التى يحكم المذهب الشيعى قبضته عليها.

وصف لى واحد من الشيعة الذين يعرفون أوروبا حق المعرفة، المؤسسة الدينية العلوية (الشيعية) بأن تنظيمها شبيه بتنظيم الكنيسة المشيخية فى أسكتلندا، هذا يعنى أن المؤسسة الشيعية، لا تعترف برئاسة، سواء أكانت مؤقتة أم روحية، وأن كل جماعة تمثل فى حد ذاتها وحدة مستقلة من وحدات السلطة، وبلاد فارس لا تعترف بالمناصب التى من قبيل شيخ الإسلام، أو سماحة المفتى، كما أن شاه إيران لايزعم أنه إمام ولا خليفة، وكل عالم من علماء الشيعة الذين حصلوا على درجاتهم العلمية من كربلاء أو أصبهان يحق له أن يدلى بفتواه أو رأيه فى الأمور المتعلقة بالعقيدة، ويتمثل المعيار الوحيد لقدرته على الوعظ أو إمامة الصلاة فى قدرته على اجتذاب عدد كبير من المصلين، ومن الغريب حقا فى مذهب ترجع أصوله إلى التأكيد على حق الوراثة فى الخلافة، استبعاد كل ما هو وراثى استبعادا تاما.

أنا أعتقد، من الناحية المظهرية، أن الشيعة لا يزالون يقرون بالأئمة والخلافة، لكنهم لا يتسامحون مع أى أحد من أصحاب السلطة، يدعى بأنه صاحب هذا اللقب، وهم يتركون هذا الأمر معلقا إلى أن يجئ المهدى، أو المرشد، الذى سيعيد توحيد الإسلام ويستعيد حظوظه، لقد وصل الحال إلى حد أن الشاه على الرغم من طابعه الملكى، وعلى الرغم من أنه السلطة المطلقة فى بلاد فارس، فإنه وإلى يومنا هذا ينظر إليه من قبل الفرس على

أنه مغتصب، وهو نفسه يقر هذه الحقيقة بحفاوة غريبة، هناك معيار عند المذاهب الإسلامية كلها أن الصلاة لا تصح إذا ما أقيمت فى منزل رجل آخر دون موافقة منه، وفى ضوء ذلك، وفى ضوء اعتراف الشاه بأن قصوره المملوكة له، إنما هى مملوكة للمهدى، فإنه (الشاه) مجبر على تأجيرها طبقا لشكل شرعى من عالم أو مجتهد، يعمل لحساب المهدى المفترض،قبل أن يقوم بأداء الصلاة فيها، وأن هذا لفائدة الشاه الروحية.

يجب أن يكون مفهوما أنه فى ضوء مثل هذا التنظيم وفى ضوء مثل هذه الاتجاهات إلى الاستنتاج الاستقرائى، فإن ذلك يفسح مجالا كبيرا لاختلاف الرأى بين الشيعة، وأنه فى الوقت الذى يعظ فيه كبار متعلميهم بين الملالى عن وحدة الوجود المطلقة بين الحين والآخر، فإن بعضا آخر من هؤلاء العلماء (الملالى) يميلون إلى استثارة الميول الأكبر عند عامة الناس، ويغرقون من يستمعون إليهم بحكايات مبالغ فيها عن المعجزات والخرافات، هذه الحكايات تكون دوما مصدرا للسخرية من أهل السنة، يضاف إلى ذلك أن المعتقدات الشيعية الأكثر احتراما، تشيع بينها قناعة عامة فى بلاد فارس كلها مفادها أن إصلاح الإسلام قريب وفى متناول اليد، وأن زعيما جديدا يتوقع مجيئه فى أى لحظة، ومن صقع من الأصقاع، ولهذا يوجد دوما كثير من المتحمسين الذين يتظاهرون بعطايا الوحى ويتصنعون مهمة مقدسة، تاريخ البابية babites، موصوف وصفا جيدا بواسطة م.دى جوبانيو فى كتابه "أديان آسيا"، والمصادر التى من هذا القبيل جد نادرة فى بلاد فارس.

التقيت فى جدة رجلاً ماجدا فارسيا متعلما تعليما عاليا، أبلغنى أنه هو بنفسه كان شاهدا على صبى أعجوبة، فى تبريز، وأنه كان سيئ السمعة على ما أذكر، فى تلك المناسبة كان من بين الأنبياء[1] المحكوم عليهم بالإعدام من قبل الحكومة العليا، واحد مربوط على صليب ومعه اثنان من أصحابه، وبعد أن ظل مربوطا ساعات عدة فتحت القوات الملكية النار عليه، والذى حدث هو أنه عندما سقط أصحابه مع أول دفعة من الطلقات، بقى الثانى نفسه دون أذى، والذى لايصدق هو أن الحبال التى كانت تقيده انقطعت بفعل الطلقات، وسقط وهو واقف على قدميه على الأرض، قال ماجد فارسى آخر ذات مرة: أنتم أيها النصارى تتحدثون عن مسيحكم بأنه ابن الله، وتظنون أن هذا أمر

---

١-الأنبياء هنا يُقصد بهم الشخصيات التى يستحدثها الشيعة لتاكيد وجهات نظرهم بُغية استثارة الميول الأكبر لدى عامة الناس.

غريب، لكن هذا الأمر شائع، صدقنى أن لدينا "أبناء الله" كثيرون فى كل قرانا.

من هنا نرى أن الآراء المتطرفة تلتقى عند الشيعة، من هنا نجد أن أكثر الناس استعداداً للتكيف مع الإلحاد الشكلى فى أوروبا هم الفارسيون، شأنهم فى ذلك شأن كل أولئك الذين شاهدوا لعبة معجزة الإمامين، هناك أيضاً تطرف أخلاقى، وتقشف وزهد وحشى، وفسق وفجور، ولا يؤدى الشيعة فريضة الحج، كما هى منصوص عليها فى الدين مثلما تفعل المذاهب الإسلامية الأخرى، فالصلاة والوضوء لايتمان عند الشيعة طبقا للطقوس المحددة لهما، فالحجاج الشيعة الذين يسافرون سيرا على الأقدام لأداء فريضة الحج فى مكة لا يتورعون عن شرب النبيذ هناك، والأخلاقية الفارسية هناك هى مضيفة فى الأفواه.

فى ظل مثل هذه الظروف، يصبح هناك الكثير من الأمور التى يجرى الخوف منها أو التطلع إليها فى المذهب الشيعى: لكن مستقبل الشيعة يدخل بطريقة غير مباشرة ضمن مستقبل الإسلام الأصولى الصحيح، عدد الشيعة قد لا يزيد على خمسة عشر مليون نسمة، ولا يكشف عن اتجاه نحو الزيادة، خارج نطاق بلاد فارس، هناك نحو مليون عراقى عربى، وهناك قلة من الشيعة فى سوريا وأفغانستان، ونحو خمسة ملايين شيعى، فى أفضل أحوال فى الهند، وهناك أيضاً مجموعة شيعية صغيرة لا تزال موجودة بالقرب من المدينة المنورة، وهى موجودة لكنها ليس معترفا بها، ويمكن العثور أيضاً على قلة قليلة من الشيعة فى المدن الكبرى فى الغرب، ولكن المذهب الشيعى يقف فى كل مكان على مبعدة ويتخذ موقفا عدائيا من بقية الإسلام، يزاد على ذلك، أن المرارة الدينية بين الشيعة والسنة أخذت تنخفض بشكل ملحوظ خلال السنوات الخمسين الأخيرة.

تعد الأباضية أهم المذاهب البدعية بعد المذهب الشيعى، يقول البعض، إن الأباضية هم الخلف الدينى للخوارج، هذا المذهب فصل نفسه عن الخلافة فى زمن سيدنا على، وبعد مطاردتهم مطاردة عنيفة فى العراق، لجأوا أخيرا إلى عمان، وبغض النظر عن معتقداتهم الحالية، فهم يبدون منذ الوهلة الأولى كما لو كانوا شيعة، منشقين سياسيين، والأباضية يؤكدون على أن أى

مسلم، طالما لم يقتنع بالكفر، من حقه أن يصبح إماما ،وأنه يمكن عزله بسبب الكفر أو سوء السلوك، وهم يؤكدون أيضاً أنه ليست هناك ضرورة ملحة للإمام، والأباضية لا يوجدون حاليا إلا فى عمان وزنزبار، حيث يصل عددهم إلى نحو أربعة ملايين نسمة، وحتى أواخر القرن الماضى، كانت الأمامة بين الأباضية منصبا يجرى الحصول عليه بالانتخاب، لكن بعد وصول أسرة أبو سعيد المالكة إلى الحكم أصبح منصب الإمامة وراثيا فى تلك الأسرة [1].. والأباضية يرفضون أشكال التواصل كلها مع السنة، لكنى لم أتمكن من اكتشاف أية معتقدات عدائية لديهم، ضد المسلمين، إختلافات الاباضية سلبية فى أساسها، وتتمثل فى رفضهم لتاريخ الخلافة والسلطة فيما بعد عهد (سيدنا) عمر، كما يرفضون أيضاً عددا كبيرا من الموروثات الداخلة حاليا فى السنة.

زيود اليمن متحالفون مع الأباضية، لكنهم على حد فهمى، منفصلون عنهم، وزيود اليمن هؤلاء منحدرون عن الخوارج، لكن نظرا لأن زيود اليمن متعودون على اخفاء حقيقة بدعهم، وتمرير أنفسهم أثناء موسم الحج على أنهم من السنة، لم أستطع الحصول على معلومات كثيرة عنهم، كان زيود اليمن، منذ عشر سنوات، مستقلين فى ظل حكم أئمة صنعاء، ومن المؤكد أن الزيود يتصلون من الخلافة، كان هؤلاء الأئمة، فى الأزمان القديمة، وقبل غزو الأتراك للجزيرة العربية، أقوياء فى الحجاز، وبعد تدمير الخلافة فى بغدد أضفى هؤلاء الأئمة على أنفسهم لقب حامى الحرمين، أى حامى الأماكن المقدسة، يحتل الأتراك صنعاء، فى الوقت الراهن، ومنصب الإمام معطل، وعدد الزيود لايزيد بحال من الأحول على مليونين، وتتمثل أهميتهم المستقبلية فى حقيقة قربهم الجغرافى من مكة (المكرمة)، وفى الحقيقة التى مفادها أن تعاطفهم يقف إلى جانب الليبرالية فى مسألة الرأى ومسألة الإصلاح الأخلاقى. والزيود هم والأباضيون ليس لهم أتباع أو مريدون خارج بلادهم.

يحتاج الوهابيون إلى دراسة أكثر تفصيلا، وهم على الرغم من صغر عددهم وأهميتهم السياسية عما كانت عليه من قبل فإن روح حركتهم

---

١ ـ قارن ذلك بما ورد فى كتاب الدكتور بارجر، عن تاريخ عمان.

الإصلاحية لا تزال على قيد الحياة، ولها نفوذ قوى على الأفكار الإسلامية الحديثة، لقد وصفت فى موضع ما [1].. تقلبات ذلك المذهب فى الجزيرة العربية، وأفول نجم الوهابيين فى نجد، لكن أستمحيكم السماح لى بإجمال ما سبق ذكره مفصلا.

جاء مطلع القرن الماضى بمثابة فترة ركود دينى للإسلام. وكان ذلك مثلما حدث للنصرانية أيضاً، فقد تدنت الممارسة الدينية والأخلاقيات والإيمان بين المسلمين، وبدا للمراقبين الأوروبيين أن الايمان المكى وصل إلى مرحلة الهرم، وأنه بدأ يتخلى عن مكانه، كان العالم الإسلامى نائما على الصعيدين السياسى والدينى، ليستيقظ فجأة، وينتعش منتفضا مثل مارد شاب فى الجزيرة العربية، كان الإصلاح الذى نادى به عبد الوهاب راديكاليا (أصوليا)، بدأ عبد الوهاب بالانشقاق على المعيار الذى يعتنقه الأصوليون كلهم والذى مفاده أن باب الاجتهاد فى المسائل الإيمانية قد أغلق، ونصب عبد الوهاب نفسه مجتهدا جديدا وأسس مدرسة جديدة، لا هى بالحنفية، ولا المالكية ولا الشافعية، وأطلق عليها اسم مدرسة الموحدين unitarians، ذلك الاسم الذى يعتز به الوهابيون إلى يومنا هذا، رفض عبد الوهاب رفضا قاطعا الأحاديث كلها باستثناء الأحاديث المأخوذة عن صحابة النبى (صلى الله عليه وسلم)، وأنكر عبد الوهاب أيضاً الدعوات كلها باستثناء دعوات الخلفاء الأربعة الأول التى قال عنها إنها اختيرت اختيارا شرعيا، وتقرر أن يكون القرآن هو الشريعة الوحيدة المدونة، وتقرر أن يكون الإسلام على الصورة نفسها التى كان عليها فى عقده الأول، أقام الإسلام السياسى فى الرياض على أساس من القاعدة التى أرساها له فى المدينة (المنورة)، وفكر فى مد الإسلام إلى كل أصقاع الجزيرة العربية، يوم أن كانت ضمن العالم القديم، وأنا مؤمن بأن المسلمين على يقين من أن عبد الوهاب قاب قوسين أو أدنى من النجاح الكامل فيما هو قائم به.

كان الرؤساء من أبناء سعود. أبطال الإسلام التوحيدى، قد بسطوا سلطتهم على شمال الجزيرة العربية كله إلى نهر الفرات قبل نهاية القرن

---

١ - راجع كتاب "حج إلى نجد"، الملحق، هذا الكتاب من منشورات المركز القومى للترجمة فى جمهورية مصر العربية. (المترجم)

الثامن عشر، واستولوا فى العام ١٨٠٨ على كل من مكة والمدينة، كانت المعتقدات الوهابية فى ذلك الوقت تحقق المزيد من المكاسب الميدانية، كانت الهند، فى وقت من الأوقات، على وشك التحول إلى ذلك المذهب، وكذلك مصر، وشمال إفريقيا، بل إن الكثيرين فى تركيا كانوا يشاركون سرا فى اعتناق تلك المعتقدات الجديدة، لكن أمرين هما اللذين أفسدا خطة ذلك الإصلاح العام وحالا دون تحقيقه.

أول هذين الأمرين، هو أن الإصلاح كان شديد الرجعية، هذا يعنى أن ذلك الإصلاح لم يأخذ فى الحسبان التقدم الذى طرأ على الفكر الحديث، وحاول على الفور ترك الجزيرة العربية التى وجد نفسه فيها وجها لوجه مع متاعب ومصاعب لا يمكن التغلب عليها إلا عن طريق النجاح السياسى والدينى، كانت مسألة عوربة arabianise العالم من جديد، أمرا مستحيلا، إلا إذا كان ذلك باستعمال قوة السلاح، ولم يكن هناك ما هو أقل من ذلك، الخطأ الثانى الذى ارتكبه ذلك الإصلاح، هو إصراره الشديد على بعض الفروع، والذى كان متماشيا مع حماسه صلى الله عليه والسلام، أدان عبد الوهاب المآذن وشواهد القبور لأنها لم يكن لها وجود خلال سنوات الإسلام الأولى، وعليه جرى هدم المآذن فى كل مكان، وعندما وقعت الأماكن المقدسة فى الحجاز فى أيدى أنصار عبد الوهاب وأتباعه، قاموا بتسوية قبور الأولياء والصالحين بالأرض، علما بأن تلك القبور كانت تحظى على امتداد قرون بالتوقير من منطلق أنها من مزارات الحج، يزاد على ذلك أن قبر النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة جرى إهماله ووزعت الكنوز التى كان يحتوى عليها، على جنود بن سعود، أدى ذلك إلى إثارة غضب وسخط الإسلام كله وأوقف مد النجاح الوهابى، وهنا انقلب عليهم شعور الاحترام الذى كان يقف إلى جانبهم، واستحال عليهم بعد ذلك العودة إلى وضعهم باعتبارهم مصلحين أخلاقيين واجتماعيين.

كان ذلك الإصلاح، من الناحية السياسية، سببا فى دحر الوهابيين، كان العالم الإسلامى الخارجى ينظر إلى الوهابيين باعتبارهم همجاً منتهكين للحرمات، ولذلك تخوف الناس من زيارة مكة وانخفض عدد الحجاج على وجه السرعة، الأمر الذى أزعج الحجازيين، فقد اكتشفوا أن مصدر رزقهم

قد قطع، بل إنه كان على وشك التوقف تماما، وهنا استغاث الحجازيون بإسطنبول، مستحثين السلطان على إثبات دعوته بأنه حامى الأماكن المقدسة، وما حدث بعد ذلك معروف تماما، كلف السلطان محمود، بعد صلح باريس، محمد على بتخليص كل من مكة والمدينة من الوهابيين البدعيين، وقام محمد على بما طلب منه فى الوقت المناسب، جرت الحرب على أرض نجد؛ وجرى سلب ونهب الدرعية عاصمتهم وجرى أسر ابن سعود نفسه، وقطع رأسه أمام الشيخة صوفية sophia فى إسطنبول، وهنا جرى تعطيل حركة الإصلاح فى الإسلام، لنحو مائة عام أخرى.

لم تكن البذرة التى وضعها عبد الوهاب بلا ثمر كلية، صحيح أن الوهابية فشلت فى كونها بثا لروح سياسية جديدة فى العالم، لكن الروح الإصلاحية بقيت ودامت لهذه الحركة، واقع الأمر أن التحضر الإسلامى القلق فى الوقت الحالى إنما هو نتيجة غير مباشرة لتلك الحركة، وهى فى ذلك تشبه حركة الإصلاح الدينى التى قام بها مارتن لوثر فى أوروبا والتى تسببت فى الإصلاح الحقيقى للكنيسة المسيحية على الرغم من فشلها فى تغييرها؛ ومن هنا تكون الحركة الوهابية قد ولدت رغبة حقيقية فى الإصلاح، وظهورا لعبد الوهاب أكثر حكمة، وليس مبتدعا، لكن بوسعه أن يلعب فى الإسلام الأصولى، الدور الذى لعبه لويولا loyola أو بورروميو borrmeo فى إصلاح الكنيسة، بنجاح كبير.

حال الوهابيين الحالى كمذهب آخذ فى التدهور، وأنا أعتقد أن مبشريهم فى كل من الهند وبعض أجزاء أخرى فى جنوب آسيا لايزالون يواصلون إدخال الناس فى الدين الإسلامى، ويحظى هناك الوعاظ الوهابيون بتقدير كبير، لكن حماس الوهابيين بدأ يخبو على المستوى المحلى، وبدأت تحل محله الأفكار الليبرالية التى تعد أكثر اتساقا مع الذهن العربى، لم تعد أسرة بن سعود المالكة تحل المكان الأول فى نجد، يزاد على ذلك أن ابن الرشيد، الذى حل محلهم، ليس فيه أى شىء من التعصب الوهابى، على الرغم من أنه وهابى الاسم، واقع الأمر أن ابن الرشيد زعيم شعبى ووطنى أكثر منه زعيما دينيا، وهو على الرغم من وصف إسطنبول له بأنه بدعى مؤذٍ، فإنه يعده الكثيرون من السنة حليفا للأتراك، وليس مرجحا لابن الرشيد أن يسحب

ولاءه لخليفة شرعى من بيت قريش، لكن هذا الذى أتحدث عنه خارج نطاق هذا الفصل من الكتاب.

ينتهى حديثنا عن تعداد الإسلام بانتهاء حديثنا عن الوهابيين، آمل أن يكون هذا الحديث قد أعطى وجهة نظر دقيقة إلى حد ما عن القوى المكونة للعالم الإسلامى، وعلى الرغم من أن حصر وتعداد هذه القوى لن يكون سوى عمل كئيب، فإنى لا أظن أن هذا العمل ضاع سدى، وبدون هذا الحديث عن تعداد الإسلام، ربما يستحيل علينا توضيح المشكلة التى يمثلها لنا الإسلام الحديث، أو التفكير فى حل لها. يزاد على ذلك، أن هناك أمرا أهم ينتظرنا، ولذلك فأنا أنوى فى الفصل التالى، تقديم القارئ إلى تلك المسألة الساخنة حاليا فى آسيا. مسألة الخلافة، وأشرح موقف العثمانيين من العالم الإسلامى.

# الفصل الثاني

# مسألة الخلافة الحديثة

**عندما وجد سليم الأول ، عاهل الأتراك العثمانيين، وامبراطور إسطنبول نفسه فى العام ١٥١٥ الميلادى (المصادف للعام ١٩٢١ الهجرى)، اقوى أمراء الإسلام فى زمانه، ورغبة منه فى تدعيم حكمه، اختمرت فى ذهنه فكرة إحياء أمجاد الخلافة المنقرضة فى شخصه هو .**

كان لدى الأمير سليم أكثر من زعم، مما جعل المسلمين الأصوليين يعدونه بطلاً لهم، لأنه كان حفيد محمد الثانى، الدى استطاع فى نهاية المطاف إخماد الإمبراطورية الرومانية فى الشرق، وكان هو نفسه قد أنهى حملة ناجحة شنها على شاه بلاد فارس، رئيس المذهب الشيعى، كان منافسو سليم الأول من بين الأمراء السنيين: سلطان الهند، الذى نسميه نحن المغولى Mogul الأكبر، وسلطان الغرب، أو إمبراطور مراكش، وسلطان مماليك مصر الذى كان الناس يعرفونه فى ذلك الوقت باسم السلطان، فى ظل وجود الاثنين الأخيرين، بصفتهما حاكمين لما يسمى بأراضى الإسلام البعيدة، لم يشغل نفسه بهما كثيراً؛ لكنه شن الحرب على مصر، وغزا سوريا فى

حلب عند عودته إلى الشمال فى العام ١٩١٧[٥]. ... القاهرة بعد ذلك فى العام ١٥١٦ الميلادى هى وأقاليمها الخارجية، ثم دخل القاهرة بعد ذلك فى العام ١٥١٧. وفى القاهرة قام بأسر المملوك الحاكم فى ذلك الوقت، قنصوه الغورى، وأمر بإعدامه على الملأ، أو طبقا لرواية أخرى، تسلم رأسه من جندى، قام بقتله وهو على الأرض عندما سقط ( كان السلطان رجلاً كبيراً فى السن) من فوق حصانه، واستناداً إلى تنازل مشكوك فيه تماماً وصادر حول حقوقه، من شخص يدعى متوكل بن عمر الحكيم، المنحدر عن بيت بن عباس، والذى وجده سليم خليفة شرفياً فى القاهرة، أطلق سليم الأول على نفسه الألقاب التالية: سلطان السلاطين، وحاكان الحواكين[١]، ملك البحرين[٢]، وحامى البرين[٣]، خليفة رسول الله، أمير المؤمنين وسلطان وخان[٤].. ويقال إن السلطان سليم أحس بالرضا عندما بلغه أن اسمه ذكر فى الصلاة على أنه الخليفة عندما زار مسجد زشارياس Zacharias فى حلب عند عودته إلى الشمال فى العام ١٩١٧[٥].

هذا بأختصار هو أصل الخلافة الحديثة من الناحية التاريخية، وهذه هى الألقاب التى يحملها عبد الحميد سليل السلطان سليم الأول، ومن الصعوبة بمكان فى ظل هذه المسافة التاريخية، وفى غياب الروايات المفصلة المعاصرة، أن نفعل شيئاً غير التخمين ونحن نتحدث عن تأثير مظاهر سليم الأول الدينية على المسلمين إبان حكمه، لابد أن يكون الرجل مغتصباً فى نظر الجميع، أصدقاء وأعداء، على حد سواء والسبب فى ذلك، أنه قبل سليم الأول لم يحدث أن ادعى أحد من قريش، ومن ثم يكون من أقارب النبى (صلى الله عليه وسلم) بأنه وارثه الروحى، الواقع، أن كل المدارس المذهبية فى مختلف العصور تسلم أن الانحدار من قريش يعد اللقب الأول من القاب

---

١ـ حاكان: كلمة تركية بمعنى "سيد" Lord. (المترجم).

٢ ـ المقصود هنا البحر الأبيض المتوسط والبحر الأحمر (المترجم).

٣ ـ المقصود هنا الحجاز وسوريا، أو بمعنى أخر أراضى الإسلام المقدسة. (المترجم).

٤ ـ سلطان وخان: إمبراطور. (المترجم).

٥ ـ أنا لست على يقين من صحة هذه التواريخ أو دقتها، المؤرخون الأتراك يقولون:إن سليم الأول توفى فى العام ٩٢٦ الهجرى، وهو يصادف العام ١٥٢٠ الميلادى، وهناك شك حول اتخاذ سليم الأول لنفسه القابا غير لقب خدام الحرمين، على الرغم من أن من جاءوا بعده كانوا يسمون انفسهم حامى الحرمين، ولم تعترف مكة بالخلافة العثمانية إلا بعد وفاة سليم الأول بخمس سنوات.

الخلافة؛ لكن يجوز لنا القول: إن السلطان سليم فى نطاق ممتلكاتة الخاصة، وأمام جمهور العامة فيما وراء تلك الممتلكات، كانت أعماله السامية، بصفتة الإمبراطور العثمانى، تحظى بالقبول والموافقة.

كان سليم الأول شخصية لا تبشر بخير فى الإسلام؛ وكانت روعة رؤيته تخطف أبصار الكل فى الشمال، ورأوا فيه أيضاً بطل دينهم فى مواجهة العالم النصراني؛ وأن الابتعاد عن الحكم القائم لصالحه، ربما يكون قد بدا مبرراً ومقبولاً من المتقين والمتدينين باعتباره أفضل الآمال لدينهم فى المستقبل، وكان سليم الأول سيدا Lord مؤقتا على القسم الأكبر من العالم الإسلامى، ومن ثم ينتظر الجميع استعادة السيادة الروحية أيضا، يزاد على ذلك، أن آذان المسلمين فى القرن السادس عشر، لم تعد تألف لقب الخلافة، وأن لقب السلطان الذى كان يحمله السلطان سليم الأول بالفعل يمثل أعلى السلطات التى يعرفونها.

كانت الخلافة، إن كان لها وجود على الإطلاق، فى العالم الحديث مجرد اسم أقل جاذبية وعظمة من السلطنة؛ وكان الاسمان قد اختلطا فى أذهان الناس الذين لم يعودوا يستعملون الاسم القديم على نطاق واسع، وعليه لم يعد صعباً على السلطان الجديد فى كل من دمشق والقاهرة، والمدينة المنورة فرض نفسه على الجماهير - لا بصفته مجرد وارث لممتلكات الخلافة، وإنما أيضاً للقب الخلفاء ومرتبتهم الروحية، ويبدو أن هذه الميزة جرى الاستفادة منها منذ الوهلة الأولى، نظراً لحدوث تشابه عارض فى الاسم بين عثمان Othman، وأسلاف سليم، وعثمان الخليفة الثالث، كانت آذان العامة تسمع وقع الاسم على أنه مألوف لها، وكانت تشعر بالرضا، نظراً لأن العالم كله مدرج ضمن الاسم.

فيما يتعلق بالعلماء، كان لابد أن يكونوا أكثر دقة؛ ونحن نعرف أن مسألة الحق العثمانى فى الخلافة الروحية للنبى (صلى الله عليه وسلم) كانت واحدة من المسائل التى حظيت بنقاش ساخن طويل فى المدارس المذهبية، كان التقليد (العثمانى) رسمياً فى مسألة استبعاد القرشيين من الوراثة الشرعية للخلافة الروحية، نظراً لأن (سيدنا) محمد (صلى الله عليه وسلم) ميز قريش مراراً على أنهم هم الورثة الوحيدون لسلطته؛ ولم يكن أى فقيه من

فقهاء المدارس المذهبية العربية على استعداد للحيدة عن أفكار مطلقة إلى هذا الحد، يزاد على ذلك، أن المدرسة الحنفية، التى تمثل أولئك المهتمين بصفة أساسية بقبول الادعاء العثمانى، شرعت فى دفاعها الشرعى، ونجحت على الرغم من عقبة المولد الوحيدة الكئود، عندما أوضحت حالة مقبولة تماما منهم ومن بنى عثمان - حاله تقضى بأنه فى حال عدم وجود أى مرشح منافس يعارضهم، ومن ثم وافق عليها معظم علماء السُنة بطريقة ضمنية.

تمثلت الصعوبة، فى الجانب العملى الذى جرى التوصل إليه عن طريق حل وسط، يُزاد على ذلك أن النزاع نفسه قد نسيه الجميع باستثناء المتعلمين، إلى أن أثيرت من جديد خلال الجيل الحالى، المجادلات نفسها، وأذيعت على الملأ خدمة لهدف سياسى، من هنا تصبح الدفوع الحنفية مهمة من هذا المنظور، وقد لاقيت متاعب ومشاق عندما حاولت التأكد من هذه الدفوع وتفهمها، لكن قد يكون من المفيد قبل الدخول فى تناول هذه الدفوع بالمزيد من التفصيل، المرور مروراً سريعاً ومختصراً على تاريخ الخلافة فى عصر سابق على أن أقوم بعد ذلك بوصف الأحوال التى حل محلها العمل الذى أتاه السلطان سليم الأول.

يقر الكتاب المسلمون الأصوليون أربعة أطوار متميزة يمر بها منصب الخليفة، ويقرون أيضاً أربعة مراحل متميزة فى تاريخ هذا المنصب، وكلمة "خليفة" Khalifah مشتقة من الجذر العربى خَلف بمعنى "يترك فى الخلف"، وهى تعنى حرفياً شخصاً تُرك فى الخلف، والمعنى الشرعى لها هو "شئ باقٍ على حاله" Relict أو "خلف" Successor للنبى (صلى الله عليه وسلم) ووارث لسلطته الدنيوية الروحية.

الطور التاريخى الأول طور شرائعى خالص، الذى يكون فيه خليفة محمد (صلى الله عليه وسلم) أو من يأتى ولياً وشيخاً وملكاً، وكان مُلهماً إلى حد ما، دام هذا الطور مدة ثلاثين عاماً فقط، وهو يتمثل فى الخلفاء الأربعة الكبار - أبو بكر، عمر، عثمان وعلى - الذين يسبق المؤمنون أسماءهم قبل ذكرها بكلمة "سيدنا".

الطور الثانى، الذى دام ستمائة عام، وهو طور الملكية العربية، الذى اتخذت الخلافة فيه شكل الممتلكات الدنيوية الوراثية، وممثلو هذا الطور

ليسوا أولياء أو فقهاء فى الشريعة، وهم على طرفى نقيض تماماً ممن
سبقوهم، وقد بدأوا بمعاوية بن أمية، مؤسس الأسرة الأموية المالكة، وينتهون
بالمعتصم بالله، آخر السلاطين العباسيين.

الطور أو المرحلة الثالثة هى مرحلة تداخل الحكم الدنيوى الذى ظل
الخليفة لايمارس فيه أى شكل من أشكال السيادة طوال ثلاثمائة عام تقريباً،
وبقى مجرد رئيس روحى ليس إلا، أو مثل ما نسميه الآن فى القاهرة شيخ
الإسلام - كانت سلطة الإسلام الدنيوية، التى كان مفترضاً لها من الناحية
النظرية الاستمرار بلا انقطاع طوال هذه الفترة، كانت مخولة للسلاطين
المماليك فى مصر هم والأمراء المسلمين الآخرين.

أما الطور أو المرحلة الأخيرة فهى مرحلة الخلافة العثمانية، نظراً لأن
الجدل الحديث كله تقريباً حول الخلافة يستدعى أمثلة من الفترة السابقة،
قد يكون من المفيد دراسة وإمعان النظر فى أصل تأسيس الخلافة هى
والأساس السياسى للإسلام نفسه، يؤكد فقهاء الإسلام أن رسول الله محمد
(صلى الله عليه وسلم)، عندما ترك مكة، لم يفعل ذلك من منطلق المواطن
المتمرد، وإنما بوحى من الله، وهو (صلى الله عليه وسلم) بحكم مولده وكان
أميراً من البيت القرشى الملكى، والتى تعد أنبل قبائل الحجاز، كما أن جده
كان حاكماً أعلى لمكة، وعليه وطد محمد (صلى الله عليه وسلم) هو وصحابته
فى موطن الهجرة بصفته رئيساً لجماعة سياسية مستقلة، متبعاً فى ذلك
عادات وتقاليد الجزيرة العربية القديمة، التى تقضى بانقسام بعض الأقسام
بصفة مستمرة عن القبيلة الأم لتكون أمما جديدة تحت قيادة مستقلة من
شخص أو آخر من العائلات الملكية، ومن هنا يمكن القول: إن الإسلام من
بدايته كان هيئة دينية وسياسية، وفى الوقت الذى كان محمد (صلى الله عليه
وسلم) يعظ أتباعه بصفته نبياً، فقد كان يعطيهم أيضاً قوانين باعتباره
مليكهم وحاكمهم، كان أمامهم، بمعنى أنه كان يؤمهم فى الصلاة، وكان هو
أيضاً أميرهم Emir وقاضيهم، ومن هنا كانت السلطتان الدينية والدنيوية
مرتبطتين، ومن هنا كان الإسلام منذ بداية أمة وليس فرقة Church.

بقيت هذه الأمور بلا نقاش طوال وجود محمد (صلى الله عليه وسلم) على
قيد الحياة، ولم تبدأ المتاعب إلا بعد وفاته، هذه المسألة دار حولها نقاش

كثير حول نواياه (صلى الله عليه وسلم) فيما يتعلق بهذه المسألة، فى الأزمان الباكرة كان مذهب "على" (الشيعة) يؤكد أنه (صلى الله عليه وسلم) عين صهره خلفاً له، فى حين أكدت المذاهب الأخرى أن أبا بكر جرى تحديده بالاسم؛ لكن غالبية أهل السنة، فى هذه الأيام، متفقون على أن أحداً بعينه لم يحدد، وأن مسألة اختيار الخليفة تُركت لتكون بالانتخاب، على كل حال، فإن الإجراء الذى اتبعه أتباع محمد (صلى الله عليه وسلم) المثكولون كان انتخابياً، وإن تفاصيل ذلك الانتخاب كانت متفقة تماماً مع العادات والأعراف العربية التى نزل القرآن مبنياً عليها بصفة أساسية.

فى ذلك الزمان، وعندما يموت شيخ من شيوخ القبائل، فإن كبار القبيلة، رؤساء بيوت (عائلات) القبيلة وأقسامها، كانوا يجتمعون فى خيمة واحد منهم، ويجلسون على شكل دائرة ويروحون يناقشون موضوع خلافته، ويكون اختيار الخليفة، من الناحية النظرية، مفتوحاً أمام أى واحد منهم، والسبب فى ذلك أن القبيلة مهما يكبر حجمها تعد أسرة واحدة كبيرة، منحدرة عن سلف مشترك، وعلى الرغم من السماح لأى أحد من خارج القبيلة للتقدم للحكم الأعلى، فإن أى شخص من داخل القبيلة يستطيع شغل هذا المنصب، لكن الاختيار يكون مقصوراً، من الناحية العملية، على قلة قليلة من الأشخاص، توقير العرب للدم، واحترامهم لسلالات نسبية بعينها، هو الذى يمنعهم إلا فى حالات استثنائية قليلة جداً من تغيير الأسر المالكة لحكامهم، وإذا كان الميت قد ترك وراءه ابنا بالغاً محترم الخصال، فسوف يتم الاعتراف به شيخاً بلا جدال، وإذا لم يتيسر ذلك، يتم اختيار العم، أو ابن الأخ أو ابن العم، وفى حالات الضرورة القصوى الناجمة عن خطر عام أو عدم وجود ورثة ذكور، يمكن لعضو من أسرة جديدة تبوء السلطة، يضاف إلى ذلك أنه ليس هناك قانون محدد للانتخاب.

والاجتماع الذى يعقد لايهدف إلى إعطاء حق وإنما تأكيد ذلك الحق؛ والسبب فى ذلك أن هذا الحق ليس فى أيدى الناخبين وإنما بيد ذلك الذى يضمن انتخابه، من هنا يمكن القول: إنه ليس هناك شكل رسمى للتصويت، وإنما يقوم الكبار بالتأكد من ذلك الذى يحظى بأكثر قدر من الأتباع من بين أقارب المتوفى، ثم يقومون بالاعتراف به بأن يمدوا له أيديهم ليصافحوه،

وبعدها يصبح شيخاً عليهم، ومع ذلك، يحدث فى بعض الأحيان أن تنقسم الأطراف إلى قسمين متساويين بين زعيمين متنافسين، مما يؤدى إلى انقسام القبيلة إلى قسمين: قسم يسير فى هذا الطريق وقسم آخر فى ذاك، إلى أن يستسلم أحد الزعيمين؛ وإذا لم يحدث ذلك تتم تسوية النزاع بالسيف.

يمكن ملاحظة كل هذه الملامح من ملامح منظومة الخلافة القبلية العربية فى الانتخابات الأولى التى أجريت بشأن الخلافة، فور ذيوع خبر وفاة محمد (صلى الله عليه وسلم) انعقد اجتماع خاص مكون من مجموعة خاصة من كبار السن ومشايخ الإسلام، ومكتفين ذاتياً دون أن يقروا أية ولاية شعبية أخرى، اجتمعوا فى دار عمر بن الخطاب - أهل الشرع يعرفون تلك الجماعة الخاصة بأسم أهل الحل والعقد، لأنهم كانوا يتولون مهمة حل مسألة الخلافة المعقدة، كان لابد من حل مسألة دقيقة، مسألة كانت على مر الزمن سبباً للحرب الأهلية فى الجزيرة العربية، لم يترك النبى (صلى الله عليه وسلم) ولداً، لكن وقع اضطراب داخلى، وكانت العناصر الدينية والعناصر المدنية على وشك رفع السلاح على بعضها البعض، كان المرشحان الرئيسيان: على بن أبى طالب وأبى بكر؛ كان الأول صهراً وابن عم لمحمد (صلى الله عليه وسلم) أما الثانى فكان حما للنبى محمد (صلى الله عليه وسلم) - كان على يمثل العنصر المدنى فى حين كان أبو بكر يمثل العنصر الدينى؛ والذى حدث هو أن الطرف الثانى كان متسوداً المدينة المنورة ووقع الاختيار على أبى بكر، ونودى به رئيساً على حزب أقوى، ومد المشايخ له أيديهم؛ فى حين أخمدت الحرب الأهلية عن طريق تنازل شهم من جانب على وخضوعة للأمر الواقع.

يرى فقهاء السنة أن هذا الشكل من أشكال الخلافة هو الشكل الذى قصده النبى (صلى الله عليه وسلم)، كما أن الخلافات الثلاثة التى تلته لم تختلف عنه فى أية نقطة من نقاطه، وما ينبغى ملاحظته فقط هو أن أبا بكر عين عمر باعتباره أنسب شخص يمكن أن يخلفه، وعليه يكون قد اتبع أسلوب أهل العقد، جرت العادة فى كل مرة عند انتخاب الخليفة بواسطة كبار السن فى المدينة المنورة، أن يجرى تأكيد ذلك الاختيار عن طريق الإقرار العام فى الأماكن الأخرى.

يضاف إلى ذلك؛ أن مبدأ جديدا بدأ فى الظهور إبان حياة الإمام على (رضى الله عنه)، وإيذانا بإحداث تغيير فى طبيعة الخلافة، جاء انتخاب أبى بكر كما سبق أن قلت بفعل الإحساس الدينى الذى كان سائداً فى ذلك الوقت، كان أبو بكر أتقى الناس فى الإسلام، إضافة إلى أن حكمه كان دينياً، لم يطبق أبو بكر الشريعة الإسلامية فقط وإنما كان مفسرا وشارحاً لها، كان أبو بكر يجلس كل يوم فى المجلس Mejlis، للبت فى المسائل الدينية والمسائل التشريعية، كان أبو بكر يؤم المصلين فى المسجد، ويفسر القرآن، ويخطب الجمعة ويؤم الناس فى صلاة الجمعة، هذا يعنى أن أبا بكر كان يقوم بالمهام المخصصة لشيخ الإسلام وسماحة المفتى، منفصلاً عن الأعمال التنفيذية - هذا يعنى أن أبا بكر كان ملكاً وشيخاً، وقاضياً وفقيهاً فى الشؤن الدينية والمدنية، فضلاً علي كونه حاكماً اعلى فى الأمور التى تتعلق بالراى أو الممارسة؛ اختصاراً كان أبو بكر باب الإسلام، يزاد على ذلك أن الثلاثة الذين جاءوا بعده لم يلغوا شيئاً مما جاء به أبو بكر، وكانت السلطة الوحيدة التى خولت لهؤلاء الثلاثة هى قيادة الجيوش الإسلامية، التى بدأت تجتاح العالم فى ذلك الوقت، وتكتسح الحكم فى البلاد التى فتحتها هذه الجيوش.

على كل حال، لقد وجد «على» نفسه عندما تولى الخلافة، يلقى معارضة من الجانب الذى كان هو مرشحاً عنه فى يوم من الأيام، وكان ذلك الطرف قد قويت شوكته فى تلك الفترة، وعندما غزا المسلمون العالم بدأت الأفكار الدنيوية تملأ قلوب المسلمين، وكان هناك رد فعل قوى أيضاً لصالح الأفكار الوطنية الخاصة فى الجزيرة العربية التى تبناها الحماس الدينى فى ذلك الوقت، كان طبيعياً وإن شئت قل حتمياً، أن يصل الأمر لذلك الحد، نظراً لأن كثيراً من الدول التى جرى غزوها اعتنقت الإسلام، ونظراً لأن هذه الأمم أصبحت مسلمة، فقد تساوت مع غزاتها إلى حد أن عناصر المباهاة عند تلك الأمم التى جرى غزوها، بدأت تجد متنفساً وأشباعاً لها فى الأفكار الخاصة بالعرق والمولد أكثر من الدين، أفكار لم تستطع الأعراق المغزوة المشاركة فيها، والتى كانت تعد إرثاً خاصاً من موروثات الجزيرة العربية.

كان الطرف الوطنى قد جرت تقويته، على حساب الطرف الدينى، بين القرشيين الذى كان لايزال على رأس شئون الدولة كلها، كان معاوية بن أمية

زعيماً لذلك الطرف الدينى، وكان رجلاً ذا كفاءة متميزة وحلو المعشر، مما مكن كبار العرب من استغلاله فى تحقيق أهدافهم السياسية، كان معاوية بن أمية حاكماً على سوريا سنوات عدة، وكان مشهوراً فى سورية أكثر من شهرة سيدنا على (رضى الله عنه)؛ وعلى الرغم من أن سوريا لم تكن المقر الاسمى للحكومة الإسلامية، فإنها كانت المقر الفعلى لتلك الحكومة، وهنا رفض معاوية الموافقة على انتخاب على فى المدينة المنورة، وعندما وجد نفسه مدعوماً من قبل أهل العقد المنافسين فى دمشق، فقد رأى الاحتكام إلى السيف، الذى يعده العرب الحق الأخير لكل المدعين.

يتفق الكتاب الدينيون على إدانة معاوية على تمرده؛ وفى الوقت الذى تعد فيه خلافته لعلى أمراً مقبولا شرعا، فإنهم يضعونه على مستوى منخفض تماماً عن مستوى الخلفاء الأربعة الذين سبقوه، فقد رأوا أن معاوية تحققت فية نبوءة نبيهم التى تقول إن الإسلام يجب أن يحكم مدة ثلاثين عاماً بواسطة إمام، ثم بعد ذلك بواسطة ملك، واقع الأمر أن معاوية هو من نفس نوعية الأباطرة الإسلاميين الذين جاءوا بعد ذلك، ومن الناحية الشرعية فإن رئيس الدولة هو الذى يكون رئيساً لكل مايتعلق بأمور الدين؛ لكن معاوية (رضى الله عنه) توقف عن ممارسة المهام الدينية بشخصه وقد خول معاوية وعلى العكس ممن سبقوه، تلك المهام إلى أشخاص آخرين، ولم يعد يؤم المصلين أو يخطب فى الناس، ولم يعد أحد ينظر إليه باعتباره أفضل الرجال أو أغزرهم علماً بشئون الإسلام، مثلما كان أبو بكر وآخرون، يزاد على ذلك - وهذه هى أهم النقاط التى تجب ملاحظتها عند معاوية - أنه أدخل منظومة الوراثة الملكية إلى الخلافة، بأن عين ولده يزيد خلفاً له إبان حياته، هذا التغيير على الرغم من فائدته من الناحية السياسية، فإنه خطأ دينى، ومنذ ذلك الحين لم يجر فى واقع الأمر اختيار الخلفاء سواء أكانوا من الأمويين أو بعد ذلك من العباسيين عن طريق الانتخاب، على الرغم من مسألة التأييد من جانب العلماء؛ وادعوا حق الخلافة بحكم المولد وليس عن طريق التصويت الشعبى.

لا نجد طوال فترة الخلافة فى الجزيرة سوى أمير واحد للمؤمنين، كان يشغل نفسه كثيراً بتعلم الدين، وقلة قليلة من الذين كانوا يمارسون المهام

القضائية، ولم نقرأ سوى عن خليفة عباسي واحد هو الذى كان مصراً على إمامة الناس فى الصلاة، وربما كان ذلك أثراً من آثار الغيرة الطارئة، معروف أن الحكومة الدنيوية كانت بيد الصدر الأعظم [1]، وكانت مسألة الصلاة من اختصاصات النائب [2]، وكانت مسألة تفسير القرآن والعقيدة موكلة إلى العلماء [3] المتبعين، كانت شخصية الخليفة حتى ذلك الحين مقدسة، فقد كان الخليفة من قريش ومن سلالة النبى (صلى الله عليه وسلم)، ولذلك كان مميزاً عن أمراء الدين الآخرين، ومع تدهور سلطة الخلفاء الدينية، وقع العباسيون فى أيدى المغامرين الذين اعتادوا بين الحين والأخر على استغلال الخلفاء كصنائع لهم فى تنفيذ أهدافهم الطموحة الخاصة؛ لكن المنصب ظل محتفظاً بالاحترام ولم يستطع أو يجرؤ صلاح الدين الكردى، أو طغرال بك ولا مالك شاه، ولا أى أحد من الأمراء السلاجقة العبث بلقب الخليفة.

دام حكم الأسرة الأموية المالكة التى أسسها معاوية فى دمشق خمسة وثمانين عاماً، جرى بعد ذلك انتزاع الخلافة منها عن طريق الاحتكام إلى السيف فى العام ٧٥٠ الميلادى بواسطة خلف آخر من فرع آخر من أفرع قريش - بني العباس- الذين نقلوا عاصمة الإسلام إلى بغداد وبقوا فيها حكاماً دنيويين طيلة خمسة قرون.

يرى علماء الإسلام أن هذه الفترة الثانية من فترات الإسلام، وعلى الرغم من احتوائها على أنتصارات عظيمة وازدهار دنيوى كبير، كانت أدنى من فترة الأعوام الثلاثين التى سبقتها، هذا يعنى أن الإسلام لم يعد واحداً مثلما كان، ناهيك عن الانقسامات الفارسية والعربية، نظراً لأن العالم الأصولى نفسه كان منقسماً، إضافة إلى أن خلفاء منافسين كانوا قد نصبوا أنفسهم فى كل من إسبانيا ومصر، يزاد على ذلك أن سلطة الخلفاء الدنيوية طوال القرنين الماضيين كانت مخولة من الناحية العلمية للأتراك السلاجقة، الذين كانوا يقومون بدور العمد فى مختلف الأماكن، فضلاً على أن هذه السلطة الروحية لم تكن مدعومة بأى دليل عن القداسة أو العلم، وقد أنهى هولاكو الوثنى هذه

---

١- رئيس الوزراء فى الدولة العثمانية (المترجم).
٢ - الإمام المناب (المترجم).
٣ - يقال لهم ايضاً المجتهدون (المترجم).

السلطة، عندما قام على رأس المغول بالسطو على بغداد وسلبها ونهبها فى العام ١٥٢٨ الميلادى.

شهدت الفترة الثالثة من تاريخ الخلافة سحب السلطة الدينية من الخلفاء. اقتصر الإسلام بعد القضاء على الملكية العربية على عدد من الدول المنفصلة التى يحكم كل واحدة منها بك Bey أو سلطان، الذى كان بحكم إمارته الدنيوية رئيساً أيضاً للدين داخل ممتلكاته الخاصة، أسس المغول الذين دخلوا فى العقيدة المكية إمبراطورية إسلامية فى الشرق، وحكم السلاجقة الأتراك الذين حل العثمانيون محلهم آسيا الصغرى؛ كانت الولايات البربرية Barbary لها حكامها أيضاً، وكانت مصر محكومة بواسطة أسرة ملكية غريبة من العبيد، هم السلاطين المماليك، ولم يعد هناك رئيس دنيوى أعلى للإسلام فى أى مكان، وتوقف تردد صدى اسم الخليفة فى العالم بوصفه ملكاً حاكماً، لم تجر مراعاة الخلافة الاسمية للنبى (صلى الله عليه وسلم) بصورة مبهمة سوى فى القاهرة وحدها، التى يمم وجوههم شطرها، أولئك العباسيون الذين بقوا على قيد الحياة بعد المجزرة التى أقيمت لآل عباس فى بغداد.

يصعب تأكيد الوضع الدقيق لأولئك الخلفاء الشرفيين فى ظل الملكية المملوكية فى مصر، مسألة أن شهرتهم كانت أقل ذيوعا على مستوى العالم أمر مؤكد ولا يحتاج إلى نقاش؛ وهذا يجعل المرء يميل فى بعض الأحيان إلى الشك فى أصالة مسألة المحافظة على إبقاء تولى الخلافة فيهم، لايأتى الكُتاب المسيحيون على ذكرهم، ومن الواضح أن السير جون مندفيل Mandeville هو وآخرون يرون أن السلطان فى مصر كان يجرى الحديث عنه باعتباره رئيساً للدين الإسلامى، وقد سمعت بنفسى مقارنة وضع السلاطين بوضع شيوخ الإسلام الحالى فى إسطنبول - أى تأكيد الولاء الإسلامى- وأنا أعتقد أن ذلك كان وضعهم الحقيقى، وقد ورد ذكرهم على لسان علماء الحنفية على أنهم سادة بشكل أو آخر، والذين يقولون إن تولى الخلافة بعد النبى (صلى الله عليه وسلم) لم يعتوره مطلقاً النسيان غير المقصود، أو أن الإسلام بقى بدون رئيس دنيوى معترف به، ولم يحدث أبداً أن طالب السلاطين لا فى مصر ولا فى الهند ولا حتى فى عصر حكم

السلطان سليم الأول من الإمبراطورية التركية، لأنفسهم بلقب الخليفة، ولم تفعل ذلك أيضاً أسرة الأشراف فى مكة، والتى يحق لها وحدها المطالبة بهذا الحق بطريقة شرعية شأنها فى ذلك شأن قريش، ولم يطالب بذلك اللقب أيضاً تيمور لنك Tamerlane أو أى أحد من المغول الذين حكموا بغداد، واقع الأمر إننا يمكن لنا القول إن الخلافة كانت قد نسيت تماماً عندما فكر سليم الأول فيها باعتبارها أداة من أدوات السلطة.

وهنا يمكن القول إن المسلمين وجدوا فى المطالب الجديدة بالعظمة القديمة تجديداً مهماً ومدهشاً- كان ذلك مهماً لأن اسم الخليفة كان مرتبطاً بكثير من أمجاد الإسلام الماضية؛ وكان التجديد مدهشاً لأن من ينادى بذلك التجديد ويطالب به شخص عاجز عن فعل ذلك، كان العلماء الأحناف كما سبق أن قلت قد تولوا مسألة الدفاع عن سليم أو بالأحرى الدفاع عمن جاءوا بعده، لأن سليم نفسه قد توفى بعد ذلك بأقل من عام، ونجح فى أن يبرهن- وقد أرضى ذلك السواد الأعظم من أهل السنة_ أن البيت العثمانى لديه لقب شرعى طيب للمنصب الذى كانوا يشغلونه، وجاءت حجج أولئك العلماء الأحناف فى دفاعهم عن العثمانيين، مرتكزة على ما يلى:

١- حق الاحتكام إلى السيف، بمعنى الامتلاك الواقعى للقب السيادة، قيل لأن الخلافة ضرورة (وهذا أمر يقره المسلمون الأصوليون كلهم)، وقيل أيضاً إن من الضرورى الاعتراف بحامل اللقب الفعلى على أنه هو الخليفة، إلى حين ظهور مطالب بها يحمل لقبًا أفضل، كانت أول مؤهلات ذلك المدعى الجديد تتمثل فى حتمية مطالبته بالخلافة، أما المؤهل الثانى فيتمثل فى حتمية مساعدته بواسطة جماعة؛ وأن السلطان سليم الأول طالب بالخلافة وعزز مطالباته وهو على رأس جيش، وقد تحدى العالم على أن يوجد له منافس، ولم يجر العثور على منافس له - لم يظهر أى أحد اعترفت به المدرسة الحنفية فى أضعف الأحوال، والسبب فى ذلك أن سلطان "مراكش" آخر خلف للعباسيين كان قد تنازل عن حقوقه، ومن باب تأييد المقولة التى مفادها أن السيف يمكن أن يعطى اللقب استشهد الأحناف بما فعله معاوية، الذى لجأ إلى السيف فى تأكيد حقه فى مواجهته لأسرة على (رضى الله عنه)، واستشهدوا أيضاً بأبى العباس الذى أثبت أحقيته فى مواجهته لمعاوية.

٢- الانتخاب، أى الأقرار بهيئة الكبار الشرعية، وقيل إنه جرى نقل أهل العقد من المدينة المنورة إلى دمشق، ومن دمشق إلى بغداد، ومن بغداد إلى القاهرة، فمن الطبيعى نقلها مرة أخرى من القاهرة إلى إسطنبول، كان السلطان سليم الأول قد أحضر معه إلى سينت صوفيا بعضاً من علماء الأزهر فى القاهرة، وقام هؤلاء العلماء بالاشتراك مع العلماء الأتراك بانتخاب سليم أو بالأحرى أقروا بانتخابه، وهناك شكل من أشكال الانتخاب مازال يجرى فى إسطنبول إلى يومنا هذا اعترافاً بذلك الحق، يزاد على ذلك أن كل سلطان من السلاطين العثمانيين يتحتم عليه عندما يخلف غيره فى تولى السلطة الدنيوية فى تركيا، الانتظار إلى أن يتسلم سيف المنصب من العلماء، قبل الاعتراف به فى منصب الخليفة، جرت العادة أن يتم ذلك الاحتفال فى مسجد أيوب.

٣- التسمية: كان السلطان سليم قد حصل من المتوكل المنحدر من العباسيين، وحامل لقب الخلافة الشرفية على تنازل عن كامل حقوق تلك العائلة فى الخلافة، الواقع أن هذا التنازل بالشكل الذى هو عليه، يعد تاريخياً، وأن العيب أو النقيصة الوحيدة فيه تتمثل فى أن المتوكل ليس له الحق فى إعطاء اللقب إلى شخص آخر غريب، وأن هذا الحق أعطى للمتوكل بحكم مولده، الحالة هنا كانت شبيهة إلى حد كبير بحالة إمبراطور ألمانيا، الذى تحتم عليه بعد أن تملك لندن أن يحصل من الدون Don كارلوس على تنازل كامل عن عرش إسبانيا، وأن نابليون كان يتعين عليه الحصول على مثل هذا التنازل من البابوية Papacy، فى العام ١٨١٣ الميلادى، من البابا بيوس السابع، لايزال العلماء الأحناف مصرين إصراراً شديداً على إعطاء لقب ملكى أكثر دواماً من التوصيات السابقة، والعلماء الأحناف يستشهدون بما قام به أبو بكر، الذى وصى وهو على فراش موته بأن يكون عمر خليفة له.

٤- خدمة الحرمين الشريفين، أى الحرم المكى والحرم القدسى، والحرم المكى بصفة خاصة، وقد أكد بعض العلماء، وهذا رأى عام مؤكد فى الوقت الحاضر أن سيادة الحجاز بحد ذاته تعد لقباً كافياً للخلافة، ويبدو أن ذلك كان فى العصر الأول من الإسلام، وأن حروباً دموية كثيرة دارت بسبب الحق فى حماية بيت الله؛ لكن ارتباط الحجاز بإمبراطورية الخلفاء يبلغ من

كانت سيادة الأمر الواقع على الحرمين، دفعاً من دفوع سليم الأول؛ وقدعادت هذه الحجة إلى الظهور مرة أخرى فيما يتعلق بحقوق من جاءوا بعده فى الخلافة.

ه- امتلاك الأمانات أو المأثورات القديمة - هذا الدفع قصد به العامة وليس المتعلمين؛ لكن هذا الدفع لايمكن السماح له هنا بالمرور مر الكرام، لأن هذا الدفع له تأثير كبير فى الوقت الحاضر على جمهور المسلمين الجهلة، فقد تأكد، ولايزال أعتقاداً دينياً، أنه بدءا من تدمير بغداد وسلبها ونهبها، فى العام ١٢٥٨ الميلادى جرى إنقاذ بعض المأثورات القديمة عن النبى (صلى الله عليه وسلم) وصحبه، وإحضارها إلى القاهرة ثم نقلت بعد ذلك بواسطة سليم الأول إلى إسطنبول، وقد جرى تصوير هذه المأثورات على أنها تشكل شعار المنصب، وأن امتلاكها يعطى الحق فى وراثة الخلافة، وقد تكونت هذه المأثورات من عباءة النبى (صلى الله عليه وسلم) التى حملها جنوده لتكون لهم بيرقاً، وبعض من شعر لحيته وسيف سيدنا عمر، وعامة المسلمين يؤمنون بأن هذه المأثورات لا تزال محفوظة فى مسجد أيوب، وعلى الرغم من أن العلماء لم يعودوا بعد يصرون على أصالة هذه المأثورات، فإنها يشار إليها فى أغلب الأحيان باعتبارها دليلاً إضافياً على حق السلطان.

كانت تلك هى حجج المدرسة الحنفية فى ذلك الوقت، والتى دافعت عن دعوى سليم الأول، وكانت هى الحجج نفسها أيضاً فيما يتصل بالذين جاءوا بعده من العثمانيين، ويبدو أن هذه الحجج كانت مقبولة من العالم كله بشكل عام، وكان ذلك مقبولاً أيضاً من جانب السلاطين الأتراك، الذين كان لهم هدف سياسى واحد تمثل فى رضاهم عن اعتراف رعاياهم بهم اعترافاً رسمياً، ولم يجعلوا من الأمر مشكلة مع جيرانهم المستقلين، يزاد على ذلك أنه لا أباطرة المغول فى دلهى ولا أشراف مراكش جرت الإهابة بهم للاعتراف بالسيادة الدنيوية أو السيادة الروحية للسلاطين العثمانيين، ولم يؤثر ذلك أيضاً على الاستعمال اليومى للقب القديم الذى كانوا يحملونه.

كان رئيس البيت العثمانى لايزال يُعرَفُ فى الهند عند المسلمين باسم بادى شاه Padishah أو سلطان الروم Sultan Er Roum أو الأمبراطور الرومانى، أقوى الأمراء المسلمين لكنه لم يكن بأى شكل أو طريقة خاصة رئيساً لدينهم، وبالتأكيد ليس مليكاً عليهم، واقع الأمر أن العلماء بالشكل الذى كان عليه علماء الحنفية، اعترفوا بالسلطان خليفة شرعياً؛ لكن كثيراً من العلماء الشافعية أنكروا ذلك بدفع مفاده أن دعوى السلطان غير شرعية لأنه ليس من قريش، فى حين ظل لقب السلطان الروحى (خليفة) غير معروف للجماهير الجاهلة فى المناطق غير الداخلة فى ممتلكاته، واللوم هنا يقع على السلاطين أنفسهم بلا أدنى شك، لأنهم كانوا يرون أن المهام الروحية لمنصبهم الجديد لايجرى القيام بها على الإطلاق، والسبب فى ذلك أننا ينبغى ألا نركز تركيزاً شديداً على أن مسألة تولى الخلافة كانت مجرد وسيلة لتحقيق غاية من غايات البيت العثمانى، بمعنى تدعيم سلطة البيت العثمانى الدنيوية على أساس معترف به، وأنه بعد تحقيق هذه الغاية، تصبح مسألة الكرامة الدنيوية للسلطان بمثابة كل ما كان هؤلاء الناس يفكرون فيه فى واقع الأمر، وعليه لم يفكر هؤلاء السلاطين فى السعى إلى ممارسة الحق المتعلق بمنصب الخليفة فى تعيين النواب، فى الأراضى الواقعة خارج ممتلكاتهم، أو التدخل فى الأمور العقدية على المستوى المحلى، اللهم إلا إذا كان ذلك يسئ إلى مصالح حكمهم، وفيما يتعلق بهذه المصالح، نجد أن علماء الدين فى إسطنبول، بعد أن قاموا بتسوية النزاع على الخلافة تسوية مرضية، وبعد أن أعلنوا البيت العثمانى وارثاً إلى الأبد للتكريم والتبجيل الذى حصل عليه، طلب منهم رأس الدولة ألا يشغلوا أنفسهم بعد بالمسائل العقدية، وأن يعتبروا باب الاجتهاد Ijtahad قد أغلق مستقبلاً فى كل المدارس، وقد أصر سليمان الكبير[1] Soliman The Magnificent على ذلك، كان سليمان الكبير قد أصدر سلسلة من المراسيم الخاصة بالإدارة المدنية لإمبراطوريته، التى أعلن أنها غير قابلة للتغيير كما أعلن أيضاً غير القابلية للتغيير هذه على العقائد الدينية الجوهرية، التى ظن أنها ستزيد من تأمين السلام والاستقرار لحكمه، علاوة على أنه لم يواجه أى شئ هنا سوى الموافقة من جانب العلماء الأحناف.

١ - يلقبه المؤرخون أيضاً سليمان القانونى (المترجم).

دأب العلماء الأتراك، منذ أول ظهور لهم فى المدارس المذهبية العربية فى القرن الحادى عشر، وعندما وجدوا أنفسهم فى وضع غير موات، بسبب جهلهم بلغة المدرسة، ونظراً لعدائهم المؤسسى للجهد الفكرى، دأبوا على الإبقاء والمحافظة على المسألة التى مفادها أن الاسترخاء الفكرى أصبح هو المعلم الرئيسى من معالم الأصولية، كما أصر العلماء الأتراك فى فتاواهم، على الاعتماد على السلطة ورفضهم للجدل الحقيقى، وترتب على ذلك تأييد هؤلاء العلماء عن طيب خاطر، للسلطان فى آرائه، وجرى رسمياً منع الجدل فى المدارس الفقهية حول المبادئ الأولية، ومن أجل تفسير وشرح الشريعة القائمة جرى إنشاء منصبين - أحدهما للعقائد الدينية الجوهرية، ويشغله شيخ الإسلام، والمنصب الثانى للقرارات ويشغله سماحة المفتى، غلق السلاطين العثمانيون باب الاجتهاد، ونقلهم لمقر الحكومة الروحية العليا من جو القاهرة العربى إلى الجو التتارى فى البسفور كانا سببا مباشراً فى الركود الدينى الذى عانى الإسلام كثيراً منه فى القرنين السابع عشر والثامن عشر.

بهذا نكون قد وصلنا بتاريخ الخلافة إلى الفترة التى وصفناها فى الفصل السابق بأنها واحدة من فترات الخدر الفكرى فى الإسلام، كانت تلك الفترة بمثابة خمول وفتور بديا وكأن الإسلام لن يفيق منهما، واللذين بديا للمعاصرين ومن بينهما فولتير وكأنهما اقتراب من الوفاة Unbelief وعلى الرغم من الترتيبات الأبدية التى قام بها سليمان الكبير (القانونى)، فقد تناقصت السلطة الدنيوية للبيت العثمانى تناقصاً مؤسفاً، وولى أيضاً نفوذ السلاطين الروحى عند المسلمين، وبحلول منتصف القرن الماضى (الثامن عشر)، كان لقب الخليفة، حتى فى ممتلكات العثمانيين قد أصبح فى طى النسيان، كما أصبح البلاط الإسطنبولى مضرب المثل فى السوء بسبب رذائله وكفره، وعليه يمكن أن نتصور وبحق أن صحوة الشعور الدينى، التى وصفتها بأنها نجمت عن الحركة الوهابية، جاءت بمثابة تهديد للسلطان فى مطالباته بالخلافة، ومع بداية القرن الحالى أصبح العالم الإسلامى الحقيقى جاهزاً بالفعل للتغيير، وأصبح لقب الخليفة مفتوحاً أمام كل من يتحتم عليه إثبات أحقيته فى حمله، كان اثنان يحلمان بحمل هذا اللقب، وكانا من أصحاب

العبقريات الفذة، وكانت عناصر النجاح فى أيديهما، ولا يراودنا أى شك فى أن هذين الرجلين كانا يمكن أن يحققا طموحهما لو ظهرت قوة معادية لهما، وقوتها المادية أقوى من قوتهما؛ تلك القوى التى بدأت عندئذ وللمرة الأولى، أثبتت وجودها قوة أولى فى آسيا، تمثلت تلك القوة فى إنجلترا وفى إحباطها لمطامع كل من بونابرت ومحمد على باشا فى آسيا.

وأنا أعرف على وجه الدقة، حسب اعتقادى، أبعاد المشروع الضخم الذى أُطيح به فى معركة النيل، كان فكر نابليون مبنيا على الحصول على ممتلكات فى الشرق، وأن يحول مافشل فيه فى أوروبا إلى نجاح فى آسيا، السياسات الصغيرة عديمة النفع فى آسيا، أما السياسات الكبيرة فتؤسس نفسها على تربة مناسبة؛ وكان نابليون واقعاً فى قبضة فكره لابد أن تكون قد ازدهرت، ولكن خصومة الإنجليز، معه من خلال حكمهم على نابليون بأفكارهم الخاصة بهم، نسبوا إليه فضل وضع الخطة المصغرة لبرنامج غزو الهند، وهو عندما نطق بالكلمات Kelemat فى القاهرة، وعندما نطق بشهادة الإسلام كان يود أن يكون رئيساً للإسلام، وراح يجادل على حق مفاده أن ما كان ممكناً لسليم الأول قبل ثلاثمائة عام كان ممكنا له أيضاً فى ذلك الوقت، يزاد على ذلك أن العالم الإسلامى لم يكن أكثر اندهاشاً فى العام ١٧٩٩ الميلادى، عندما طلب منه الاعتراف ببونابرت خليفة، عنه فى العام ١٥١٩ الميلادى عندما طلب منه أن يصبح عثمانياً، فى ظل عبقرية بونابرت الحربية، وباستثناء المعركة البحرية وخيمة العاقبة التى دارت فى النيل، ربما كان ذلك بل وأكثر من ذلك أمرا ممكناً؛ من المتصور أن أوروبا لو أنها على العكس من ذلك جرى الاستيلاء عليها بواسطة حشد كبير من المسلمين، فلربما كانت عانت من عواقب أوخم من تلك العواقب الناجمة عن حرب نابليون، فى الوقت الذى كان يمكن فيه تأسيس إمبراطورية على النيل أو البسفور أكثر ثباتاً ومتانة من تلك التى كان البونابرتيون قادرين على تأسيسها على نهر السين، والذى حدث أن تلك كانت مجرد حادثة عارضة فى سياق الأحداث، ومفيدة فقط لكل تلك القلة القليلة التى رأت ذلك الحدث عن قرب إلى حد جعلها تعجب به وتتفهمه [1].

---

١ - كانت مذكرات لاسكارس Lascaris الأصلية - لاسكارس هذا هو عميل نابليون عند العرب - قد اكتشفت على حد فهمى - خلال العامين الأخيرين فى حلب، واشترتها الحكومة الفرنسية، ونشر هذه المذكرات، إذا ماتقرر ذلك، سوف يلقى - إذا لم اكن مخطئاً - ضوءا مهماً وجديدا على مستقبل نابليون العملى فى مصر.

كان محمد على، ذلك المغامر الألبانى، الذى تولى حكم مصر عندما عادت بريطانيا إلى الباب العالى، واحداً من الذين تأثروا بمستقبل بونابرت العملى فى مصر، كان بونابرت منذ البداية بمثابة النموذج الذى أحتذاه محمد على باشا، والذى ورث عنه هذه الرؤية عن خلافة جديدة، وتلك كانت أعظم أفكار نابليون، وعمل جاهداً على تنفيذها، كان محمد على قاب قوسين أو أدنى من النجاح، فى العام ١٨٣٩ الميلادى، كانت مكة، والقاهرة والقدس فى يد محمد على باشا، وكان قد تمكن من هزيمة السلطان فى كونيا Konia، وكان يتقدم عبر آسيا الصغرى زاحفا على إسطنبول، وفى إسطنبول وبلا أدنى شك، كان بوسعه أن يعلن نفسه خليفة، له كل العناصر الأساسية، المعترف بها فى حق السلطان، والتى يمكن أن يبنى عليها مطالبته الجديدة بالخلافة.

ولم يكن مرجحاً أن يواجه محمد على باشا معارضة دينية كبيرة من العلماء الأتراك فى تحقيقه لمشروعه، هؤلاء العلماء الذين انزعجوا كثيراً من الإصلاحات الإدارية التى أدخلها السلطان مراد، كان من الصعب عليهم دعم دفاع السلطان بشئ من الحيوية؛ وعلى الرغم من أن محمد على نفسة كان معرضاً لتهمة حرية التصرف، فإنه كانت له حملة كبيرة واحدة على الإسلام الأصولى، مفادها أنه خلص المدينتين المقدستين مكة والمدينة من الوهابيين، كان البيت العثمانى فى ذلك الوقت قد بدأت تفوح منه رائحة العفن - ولم تصل هذه الرائحة العفنة إلى أنوف العالم الخارجى، وإنما وصلت إلى أنوف المدرسة الحنفية نفسها، ونظراً لأن علماء المدرسة الحنفية كانوا قد أعلنوا عن قبولهم رسمياً للسلطان سليم، فإنهم يجوز لهم أيضاً، فى العام ١٨٣٩، قبول محمد على والموافقة عليه، لكن هذه المحاولة أيضاً أوقفتها إنجلترا تنفيذا لسياسة يصعب الآن عدم الندم عليها، فقد أعيد الأرناؤوطى شديد المغامرة إلى المنصب الملكى المناب فى مصر، وأعطى للبيت العثمانى عقداً جديداً بالسيادة الروحية إن لم تكن القوة الروحية.

يتميز حكم كل من عبد المجيد وعبد العزيز عند المسلمين بأن الحكمين شهدا الفصل الكامل للمصالح بين الحكومة الإمبراطورية وعلماء المدرسة الحنفية القديمة، وأنا ليس أمامى هنا متسع كى أناقش طبيعة الإصلاحات التى حاولا القيام بها وجرى تنفيذ البعض منها فى الإمبراطورية العثمانية

فى الفتـرة مـا بين ١٨٣٩ و١٨٦٩ من باب التنازل للصخب الأوروبى، هذه الإصلاحات لم تجئ من الدين أو عن طريقه، كما هو مُحَتَّم، وإنما جاءت تحدياً للدين، وعليه فشلت فى أن تحظى بالقبول من قبل المتدينين فى أى مكان، وكل التغييرات التى تكون من هذا القبيل لابد وأن تبوء بالفشل فى الإسلام؛ لأنها تنطوى على رذيلة اللاشرعية، وأنا أتمنى أن أجد الفرصة التى تمكننى فيما بعد من شرح وتوضيح الطريقة التى يستطيع بها أى شكل من أشكال الإصلاح الحقيقى، الحصول على القبول، وأنا هنا أرى ومن قبيل الملاحظة فقط، أن إصدار قوانين حتى Hatti هومايوم[1] Humayoum ومراسيمه الشائعة على أنها نقاط فى تاريخ أفول نجم الخلافة العثمانية، وأرى أيضاً هذه القوانين والمراسيم على أنها كانت أسباباً مباشرة فى التغيير الرجعى للواجهة التى نشهدها حالياً فى سياسة إسطنبول.

وبسبب محاولات عبد المجيد التى أسئ الحكم عليها، فقد رُمى بالمروق من الشريعة، وجرى عزل ابنه كما نعرف جميعاً، لأنه كان خارجاً على الشريعة، ومع ذلك يبدو أن عبد العزيز، ادرك حقيقة وضعه، فى فترة من الفترات، وأنه كانت لديه فكرة ما عن الدور المطلوب منه، وهذا هو ماسيتضح من الحادث التالى، هذا الحادث يتواكب تماماً مع فترة إحياء مطالبات السلطات الروحية، كما هى منصوص عليها فى السياسة، والتى تقررت فى تركيا فى أول الأمر، وقد رويت لى ظروف ذلك الإحياء على النحو التالى:-

جاء إلى إسطنبول فى بداية حكم السلطان عبد العزيز سياسى صاحب عبقرية حقيقية، ومتبحر فى معرفة كل من أوربا والشرق، وفى التاريخ الدينى للإسلام بصفة خاصة، كان ذلك الرجل صديقا من أصدقاء رشدى باشا، رئيس الوزراء، وصديقاً أيضاً لأعضاء آخرين فى حزب تركيا الفتاة، أولئك الذين يحاولون بكل الوسائل، الصالح منها والطالح، إعادة تشكيل وتقوية السلطة المركزية للإمبراطورية، حث ذلك السياسى أعضاء حزب «تركيا الفتاة»، ومن بعدهم السلطان فى المقابلة الشخصية التى جرت بينهما فيما بعد، على اغتنام الميزة التى يمكن أن تعود على الحكومة العثمانية من منطلق

١- حتّى هومايوم : مؤلف ألمانى ألف كتاباً عن أفول نجم الدولة العثمانية.

اعتبارها أداة فى السيطرة على المقاطعات Provinces وباعتبارها سلاحاً مضاداً للدبلوماسية الأوربية فى حال إذا ماجرى التركيز على سلطة السلطان الروحية بطريقة ملحة، أوحى ذلك السياسى إلى السلطان عبد العزيز بصفة خاصة أن قوته الحقيقية لا تكمن فى إعادة تنظيم قوته الدنيوية وإنما فى قوته الروحية؛ وأعرب الرجل عن اندهاشه من أن مصدرا واضحا من مصادر القوة لم تجر الاستفادة منه بشكل كبير، كما أوضح الرجل أهمية السكان المسلمين خارج الإمبراطورية للسلطان، وأن هؤلاء السكان يتعين - إدخالهم قدر المستطاع - ضمن نفوذ إسطنبول، وأضاف أيضاً أن ولايات البربر، والهند الإسلامية، ووسط آسيا يمكن أن تتجاوب مع كل الأهداف والنوايا الإسلامية، فيما عدا مسألة الجزية، وتصبح بذلك من رعايا الباب العالى.

كان تعيين أئمة أو نواب يمثلون السلطة الروحية فى كل المقاطعات الإسلامية، من مهام الخلفاء فى الأزمان القديمة، واقترح ذلك السياسى إعادة تعيين هؤلاء الأئمة أو النواب، والإمام يعد ضرورة عند المسلمين الأصوليين، وفى عدم وجود تعيين شرعى من الخليفة، الذى يعد الإمام الأعلى، اضطر المؤمنون إلى التوجه إلى الحكومات المحلية طلباً للقيام بهذه التعيينات وانتخاب الموظفين أنفسهم- أقرت الحكومات المحلية بأن هذا العمل غير شرعى، وأنها سوف تحيل الأمر إلى المنظومة الشرعية الأعلى؛ وقال السياسى أيضاً: إن إعادة تأسيس هذا النظام الهرمى سوف يترتب عليه عودة المزيد من القوة الروحية إلى إسطنبول، وأوضح ذلك السياسى أيضاً للسلطان عبد العزيز مدى أهمية الجزيرة العربية القصوى لمركزه، كما أوضح ذلك السياسى أيضاً للسلطان عبد العزيز مدى الإهمال الكبير لمسألة النفوذ فى الجزيرة العربية.

قال لى واحد من الذين حضروا تلك المقابلة: إن عبد العزيز لم ينشرح صدره وحسب للفكرة وإنما اندهش لها اندهاشاً عجيباً، يبدو أن عبد العزيز لم تكن لديه أية فكرة مسبقة عن الكرامة التاريخية للمنصب الروحى الذى يشغله هو، ولا عن الحقوق الخاصة بذلك المنصب، وكانت أفكار عبد العزيز، فى وقت من الأوقات متجهة نحو الاتجاه الذى جرى تحديده له، استدعى عبد العزيز كبار العلماء وسألهم عما إذا كان ما سمعه صحيحاً أم لا، وعندما

وجد عبد العزيز أن أفكارهم كانت متفقة تماماً مع ما سمعه، كلف شيخ الإسلام بدفع معتقد زعامة عبدالعزيز الروحية إلى الأمام بكل الطرق والوسائل المتاحة له، وجرى على الفور إرسال مبعوثين إلى سائر أنحاء العالم الإسلامى، وبخاصة إلى الهند وولايات البربر، لشرح المذهب الحنفى الذى تعتنقه الخلافة؛ وعلى الرغم من أن هؤلاء المبعوثين لم يصيبوا نجاحاً فى البداية، فإنهم استطاعوا فى نهاية المطاف، تحقيق هدفهم فى تلك البلدان التى كان المؤمنون فيها يرزحون تحت حكم مارق، الأمر الذى أدى بصورة متدرجة وفى غضون سنوات قلائل إلى حصول مسألة الخلافة العثمانية على المزيد من الاعتراف من كثير من المدارس المذهبية، وقد حصل هؤلاء المبعوثون على عون ، من أداة قوية فى ذلك الوقت، جرى أستخدامها لأول مرة فى تركيا، وتمثلت فى الصحافة [1].. جرى دعم وإعانة جريدة تصدر باللغة العربية واسمها الجوايب Jawaib فى إسطنبول، وتحت إدارة شخص يدعى إشمت فارس Achmet Faris، الذى دخل فى الإسلام، وكان صاحب مقدرة أدبية كبيرة ومعرفة كبيرة باللغة العربية، كما كانت له آراء فى موضوع الخلافة؛ وراحت تلك الجريدة منذ ذلك الوقت فصاعداً تساند وتدافع عن السياسة الجديدة للعلماء.

كانت العصبة الرسمية فى إسطنبول لا تزال عازمة على مشروعات أخرى، ولم تكن على فهم كامل بالدور الذى يلعبه الدين فى مشروع إصلاحهم الإدارى فى الإمبراطورية، يضاف إلى ذلك - وتلك كانت العقبة الرئيسية أمام العلماء - أن السلطان عبد العزيز لم يكن من القادرين على التنفيذ الجاد لفكرة سياسية عظيمة، فضلاً على كونه أدنى حتى من رجل الملذات، وهنا نجد أن عبد العزيز وحكومته ينجرفان إلى بيارة السياسة المادية التى سار عليها أسلافه، والتى اعتمدت فى قوتها على القوة المادية للسلاح، والفروض الأجنبية، ومؤامرات المسئولين.

تمثل الشئ العملى الوحيد الذى قام به الوزراء العثمانيون فى السير على الخط المحدد، فى الحملتين اللتين قام بهما العثمانيون على وهّابى الأحساء وعلى أئمة صنعاء المهرطقين، لكن ذلك لم يكن السبيل إلى إرضاء علماء

١ - جريدة الجوايب Jawaib ، التى صدرت أول مرة فى العام ١٨٦٠ الميلادى (تقريباً).

الأحناف، كان العلماء الأحناف قد عقدوا العزم على تنفيذ الفكرة التى تبنوها، وإجبار السلطان على وضع نفسه على رأس تيارى الحركة الدينية والأصولية؛ وعندما اكتشف العلماء أن عبد العزيز لا يمكن جعله يتصرف تصرف الخلفاء، قاموا بعزله وبذلك يفتحون الطريق أمام بطل حقيقى لفكرتهم، وكان ذلك البطل هو السلطان عبدالحميد فى ذلك الوقت.

على الرغم من أن وصول ذلك السليل من البيت العثمانى إلى الخلافة الروحية للنبى (صلى الله عليه وسلم) جاء بمثابة عون من الله للمسلمين المتدينين من حيث الشكل، فإن كل من يتمنون الخير للإسلام اعتبروا ذلك نكسة ومصيبة كبيرة، والمؤكد أنه لو كان عبد المجيد وعبد العزيز قد جاءا بعد واحد من تلكم الملوك قليلى الفهم والتقدير والذين اعتلوا العرش الإمبراطورى، لكانت الخلافة العثمانية أصبحت شيئاً من الماضى، وبخاصة فيما يتعلق بالقسم الأكبر والمفهوم من الإسلام، لو عجزت العصبة النافذة الرسمية فى إسطنبول؛ عندما انهارت السلطة الفعلية فى العام ١٨٧٩ الميلادى، عن التعامل مع الثورة المضادة لسلطة السلطان الروحية والدنيوية. لحل شئ ما محل هذه السلطة وقدم أساساً أكثر عقلانية للإصلاح الدينى، كانت الجزيرة العربية فى ذلك الحين قد اكدت استقلالها، وكان بإمكانها أن تصبح فى ظل خلافة قرشية جديدة جاذبة لتعاطف الشرق ومساندته، ربما كانت ستحدث بعض الانقسامات والتشنجات الدينية، لكن ذلك مؤشر على وجود حياة بالفعل؛ والإسلام لايبتغى سوى الحياة، ولكن من سوء طالع المتصارعين أن السلطان عبدالحميد لم يكن من النوع الشهوانى المحب للملذات، ولا أبله، ولا فاتناً، بطلعة لا يمكن للإنسان إلا أن يعجب بها، والتى كانت بمثابة حبل الأمان الذى بقى لعبدالحميد والبيت العثمانى؛ ولذلك قام الرجل بوضع نفسه على رأس أكثر أحزاب الإسلام أصولية، الأمر الذى أدى إلى تأجيل ساعة المصير والقدر برهة من الوقت.

يعد الحصول على معلومات دقيقة عن شخصية السلطان عبدالحميد وأفكاره الدينية أمراً صعباً، لكننى أعتقد أننا يمكن أن نجزم بأن الرجل كان يمثل الحنفية المتشددة فى أفكاره الدينية، كان عبدالحميد فى شبابه، يوم أن كان أميراً، رجلاً جاداً، يكشف سلوكه عن كونه صاحب علم، وأنه كان محباً

الجغرافيا والتاريخ، وصاحب الرغبة في [illegible]، إنه لم يكن [illegible]، فقد كان لديه قدرة
المعرفة الدينية، وهذا يجب الاعتراف به أن عبد الله [illegible] وقد كان في مقدمة
الخاصة بوحدة الوجه [illegible] وبين السلطان أن يكون الأمراء [illegible]
ومساعدته في العقيدة والإيمان، إذ [illegible] عندما قام
السلطان عبد الحميد في ذلك الوقت [illegible] من أولئك الذين [illegible]
وعندما قام بإسلام السيد في المسجد [illegible] في اليوم التالي لاعتلائه العرش
أفراد حاشيته بالأمر الماضي الذي بدأ على وجوههم عبر الأقاليم المختلفة
قدرة عصر ذلك اليوم بالحديث إلى أفراد العائلة عن مكانة الوحدة، فقد راح الرجال يسمع
لسنوات طوال قرون داخل نطاق منطقة الحريم في القصر. والمؤكد أيضاً أن
أول عمل قام به السلطان عبد الحميد عندما تخلص من ضغط الغرب
الروسي، تمثل في إعادة التنظيم لخارطة الدعاية التي كانت قد بدأت بالفعل
وبدأ يرسل مبشرين إلى كل من الهند وولايات الجنوب التي يبشروا بمذهب
سلطة الخلافة، بين الأقليات المسلمة في مناطق الغرب، يزاد على ذلك أن لغة
الرجل مع الغرباء عن الإسلام الخارجي كانت لغة أمير روحي منذ البداية،
أكثر منه أميراً دنيوياً، وقد استفاد عبد الحميد من هذه المكانة في تعامله مع
السفراء الأوروبيين، استفادة كاملة ومطلقة.

لم يكن غريباً من جانب السلطان عبد الحميد أن يخترع صيغة العجز
الإسلامي التي استعملها في الاختلاف مع دبلوماسيتنا، يقال إن السلطان
عبد الحميد كان مداوماً على الصلاة في حياته الخاصة، على الرغم من
القول أيضاً: إنه كان يجاري عادة السلاطين الأتراك فيما يخص مسألة
الزواج الشرعي، وهو في الوقت ذاته أيضاً كان راعياً للدراويش، وصناع
الخوارق، والأولياء، وهو لا يألو جهداً في البحث عن هؤلاء واستقبالهم
استقبالاً مليئاً، وهو في حكمه يلزم الأئمة صارماً بالشرع في كل ما يقوم به
هو شخصياً من أعمال، وفي حال الشك يستشير دائماً المفتي أو شيخ
الإسلام، وهو دوماً يكشف عن علمه في مقاومته للمطالب الأوروبية عندما
تتعارض مع الشريعة [1].

1 - ابتعد السلطان التركي عبد الحميد عن الشريعة في المراهقة التي أعجبت معظمها القلة
السلطان عبد العزيز وهذا الخلط قد يحسب عليه في يوم من الأيام في حال ما أراد العلماء
عزله، يقال إنه يعمل بنصيحة ظاهر أوقاتي، يقوم بالوجه لفاصل دبلوماسيته مع أوروبا

هذه الأسباب كلها تجعلنا نفهم أن عبدالحميد لم يكسب مساندة علمائه الأتراك فقط، وإنما حصل على تعاطف قطاع كبير من الرأى العام خارج ممتلكاته، هذا السلطان العثمانى تحول من جديد من خائن لقضية الدين، إلى بطل من أبطاله فى نظر كل من الشرق والغرب؛ ومن خلال مدرسته الأصولية القديمة بدأ يتحول إلى بطل كبير من أبطال الدين، لم يكن الأمر كذلك عندما كنت فى جدة قبل عام مضى، لكن يبدو أن الأمر على هذه الشاكلة الآن، فى ذلك الوقت كان أفراد حزبه يشككون فيه، إضافة إلى أن الرجل لم يكن يثير الحماس بينهم، لم يفهموا الرجل، وظنوا أنه يلعب دوراً محددا له، قيل إن والدته أرمينية (من ناحية الأم) وأن إخلاصه للإسلام كان مثارا للشكوك، ويبدو أن مسألة أن يصبح إنسان ولد فى حرملك عبد المجيد رجلاً جاداً أمراً مستحيلاً، يزاد على ذلك أن الرجل لم يثبت قوته بعد، ومسألة إثبات القوة تحتم أن يكون الرجل بطلاً فى كل مكان.

لكن الاحداث تسارعت فى خلال الأشهر الثمانية الماضية، فقد لعب السلطان عبد المجيد بأوراقه الناجحة فى اليونان، وفى ألبانيا، ومع الأكراد أيضاً، ولم يخش عبدالحميد إنجلترا وكشف عن مواجهته الجريئة للإصلاحات المارقة، وكان له من الشجاعة قدر مكنه من القبض على مدحت باشا على مسمع ومرأى من أوروبا التى كانت تحميه، وحاكمه على جريمة القتل، أخيراً تمكن عبدالحميد من استغلال الفرنسيين فى تونس، واستطاع كسب تعاطف المسلمين معه فى شمال أفريقيا، وبخاصة أن هؤلاء المسلمين كانوا يعارضون دعاواه طوال قرون من الزمان، قبل ذلك بعشرين عاماً، كان من المستحيل تماماً على أى سلطان عثمانى إثارة أى شعور بالموالاة فى أى صدر عربى، كانت تونس فى ذلك الوقت بصفة خاصة تتباهى باستقلالها عن الباب العالى، وكان الجميع بأستثناء الأحناف فى المدن الساحلية الأفريقية، مستعدين لفكرة القتال لحساب الأتراك، الآن نجد المالكية أنفسهم بيوريتانى القيروان، يتحركون بناء على إشارة من عبدالحميد، ويبدو أنه يحرز شيئاً من النجاح فى مصر، كما أن مسلمى الهند يدعون له فى مساجدهم - الجماعة الرجعية تنتشر فى كل مكان شاهرة سلاحها، وبدأت توشك على الاعتراف بزعيم لهذه الخلافة الأرمينية الهشة، وأن يكون ذلك الزعيم قادراً على تحدى

أوروبا، وأن يكون لديه الاستعداد إذا ماتطلب الأمر ذلك، لقيادة تلك الجماعة الرجعية على طريق الجهاد.

زد على ذلك أنه على الرغم من ذلك كله، فـإننا لايجب أن نسلم أن الإسلام الأصولى عاد إلى إسطنبول بأى حال من الأحوال، والسبب فى ذلك أن تركيا هى والمذهب الحنفى، كما سبق أن أوضحت لا يشكلان أبداً العالم الإسلامى كله، وإلى جانب حزب الدولة العثمانى المتصلب الرأى والمتطرف، والأصولية المتشددة عند المكيين، يوجد حزب ذكى متفائل يحبذ الإصلاح الدينى، ومصر الشافعية هى معقل ذلك الحزب الذكى المتفائل، لكن هذا الحزب قوى أيضاً فى الجزيرة العربية وأقصى الشرق، أول مبادئ هذا الحزب الذى يحبذ الإصلاح هو أن البيت العثمانى يعد لعنة وسبة فى جبين الإسلام، وأن نهايته قد اقتربت.

وعلى الرغم من أن عبدالحميد يخطب ود علماء الشريعة فإنهم ينظرون إليه باعتباره واحداً من أولئك الذين يسببون المتاعب للإسلام، وعبدالحميد هو ممثل ذلك الحزب من الناس الذين يعارضون الخير بكل أشكاله، وهم يعلمون أنه طالما أن هناك خليفة عثمانياً، سواء كان اسمه عبد العزيز أو عبدالحميد، فإن التقدم الخلقى يعد أمراً مستحيلاً ، وأن باب الاجتهاد لا يمكن فتحه مرة أخرى، وأنه لا يمكن إحداث أية تغييرات فى العقيدة أو الممارسة بهدف تمكين عقيدتهم من مسايرة ما استحدثه الأتراك، وهم يرون أيضاً أنه على الرغم من تظاهره باتباع الشرع فإن حكمه (عبدالحميد) ليس أعدل ولا متبعاً للشرع، أكثر من حكم من سبقوه، رذائل حكم من سبقوه موجودة أيضاً فى حكمه، وهو أيضاً لا يكترث برفاة رعاياه، ومن بين بلاد الإسلام؛ لا يجد عبدالحميد من يتبعه سوى من يعيشون فى وطنه، وإسطنبول هى أضعف نقاط السلطان عبدالحميد، والسبب فى ذلك أن حزب تركيا الفتاة أبعد ما يكون عن الموت، صروف الحياة والموت تتوالى مسرعة فى منطقة البسفور، إضافة إلى أن الحزب الليبرالى أقدر على تحمل الانتظار من الحزب الرجعى، وإذا ما توفى السلطان عبدالحميد أو عزل عن العرش، فإن ذلك سيسفر فوراً عن حركة مضادة للخلافة العثمانية.

# الفصل الثالث

## العاصمة الحقيقية.. مكة

أوجزنا فى الفصل السابق موقف السلاطين العثمانيين من كتلة الإسلام الأصولى، وأوجزنا أيضاً الأسس التى ارتكز عليها حيازتهم للقب الخلافة، وقد أوضحت أن هذه الأسس ليست بالقديمة جدا وليست مؤسسة فى إيمان وميول المؤمنين؛ وعلى الرغم من حدوث رد فعل موالٍ فى الوقت الراهن لإسطنبول، فإن رد الفعل كان ناجماً عن ظروف طارئة، ومن غير المحتمل لها أن تدوم، فضلاً علي بعد رد الفعل هذا عن أن يكون عاماً فى واقع الأمر، قد يكون من المفيد هنا إجمال ما سبق أن فصلناه.

العالم الإسلامى السنى وإن شئت فقل الأصولى يرى حتمية وجود الخليفة على أنها واحدة من معتقدات الإيمان؛ لأن الخليفة بحكم منصبه يكون رئيساً لمجتمعهم الدينى، وخلفاً لنبيهم، وفى المسائل الدنيوية يكون شاغل هذا المنصب هو ملك الإسلام كله من الناحية النظرية؛ وفى المسائل الروحية يكون شاغل هذا المنصب أيضاً هو السلطة الدينية العليا، لكن من الناحية العملية نجد أن ولاية الخليفة الدنيوية أصبحت منذ بضعة قرون

مقصورة على البلدان والأراضى التى يمكنه التحكم فيها بقوة السلاح فى الوقت الذى لم يمارس الخليفة فيه أية سلطة مباشرة من أى نوع كان على الشئون الروحية، ومع ذلك فإن الخليفة يمثل للمسلمين شيئاً هم بحاجة إليه، ومدعوون إلى احترامه ونحن لا يمكن إن ننكر أن الخلافة عندما تكون فى الأيدى الصحيحة وفى اللحظة المناسبة يمكن أن تصبح من جديد أداة خيرة أو شريرة لقوة تكاد تكون كونية فى الإسلام وإلى الآن وفى ظل احتمال وجود مخاوف من خطر داهم عام على الدين فإن المؤمنين سوف يتطلعون إلى قيام الخليفة بالدفاع عن مصالحهم، وكما سبق أن رأينا فإن مسألة الكشف المعتدل عن التقوى والصلاح والتأكيد على احترام الشرع كان كافياً - على الرغم من المعارضة السياسية العنيفة - لأن يضمن لحامل اللقب (الخليفة) الفعلى قدرا من التعاطف لم يحصل عليه أى أمير مسلم آخر عن طريق الحكم الجيد بأى حال من الأحوال.

على الجانب الأخر أوضحنا أيضاً أن الولاء - بالشكل الذى هو عليه - الذى يحظى به السلطان عبدالحميد لا يرجع لشخص الرجل وإنما بصفته أصلاً شاغلاً لمنصب الخليفة وليس ممثلاً لأى عرق أو أية أسرة مالكة، من هنا فإن البيت العثمانى بهذه الصورة لا يمثل للمسلمين شيئاً مقدساً؛ يضاف إلى ذلك أن العرق التركى بعيد كل البعد عن الاحترام من قبل المسلمين - يزاد على ذلك أن بيت الخلافة الحالى ليس مرتبطا من حيث الدم بالسلسلة الوراثية "للخلفاء" Successors ؛ يزاد على ذلك أن بيت الخلافة الحالى لا يحظى بتوقير كبير من الأتراك أنفسهم، أضف إلى ذلك أن شاغل هذا المنصب حاليا يقال عنه: إنه ليس عثمانياً أصيلا نظراً لأنه سليل الحرملك أكثر منه معروف الأبوين؛ الاسم عبدالحميد هو الوحيد الذى يؤهل الرجل للحصول على الاحترام الروحى، وهذا هو ما يحاول عبدالحميد إبرازه، ونحن إذا ما أردنا وضع الولاء الإسلامى فى شكل قياس منطقى، فإنه يمكن أن يكون على النحو التالى: لابد أن يكون هناك خليفة، والخليفة يستحق الاحترام، وليس هناك خليفة غير عبدالحميد؛ إذن يتحتم احترام عبدالحميد.

على كل حال لقد أوضحنا أنه إذا كان إحياء السلطان مؤخرا للادعاءات

الروحية هو الذى يمثل قوة عبدالحميد الحالية، فإن هذا الإحياء نفسه قد يصبح فى المستقبل القريب نقطة ضعفه، زد على ذلك أن التحدى الذى نبذته المدرسة الحنفية فى إسطنبول للعالم قبل عشر سنوات استؤنف من جديد؛ كما أن العالم المتعلم يعرف الآن مدى هشاشة الموقف الروحى للبيت العثمانى، معروف أن التاريخ الحقيقى للخلافة جرى نشره ووضعه جنبا إلى جنب مع التاريخ التركى الذى أدى جهل الجيل السابق به إلى الخلط بينهما - لا يشك أى أحد من المثقفين فى الوقت الحالى أن عبدالحميد هو وبيته قد يعزل ويطاح به مع أول منافسة ناجحة، وأن حق إسطنبول الوحيد فى تزعم الإسلام هو عن طريق السيف، وطالما بقيت الإمبراطورية العثمانية، وطالما لم يظهر خليفة مضاد سيظل السلطان باقياً ومعترفاً به رئيساً للإسلام، لكن هذا الوضع لن يطول، وهذه الخلافة المتمثلة فى عبدالحميد الأجنبى على قريش، يتعين الحفاظ عليها دوما بقوة السلاح، ومع أول نجاح كبير يحققه مطالب جديد بالخلافة فإن الاتباع الحالى الذى يحظى بة حالياً سينحسر عنه بلا أى تأنيب من الضمير، وينتقل الولاء إلى ذلك المطالب الآخر بالشروط نفسها التى تلقى بها عبدالحميد الخلافة، وهنا سيجرى عزل عبدالحميد بطريقة شرعية ويختفى بعد ذلك، إذ من المحتمل أن يجد عبدالحميد حامياً له فى شدته ومصيبته مثلما حدث للخلفاء الشرعيين أثناء خلافتهم قبل نحو ستمائة عام، العلماء يقرون هذه الأوضاع إلى حد أنى وجدت الرأى السائد فى العام الماضى يفيد أن عبدالحميد سيكون آخر خليفة من البيت العثمانى.

وعليه ومن الأهمية بمكان أن نتبين من بين الأمراء المسلمين فى حالة قبوله بشكل عام من الإسلام الأصولى يستطيع المطالبة باستبدال الأسرة المالكة العثمانية فى مسألة الخلافة، عندما يجئ اليوم المحتوم، هذه المسألة ينبغى أن تلقى اهتماما من جانب الإنجليز، والسبب فى ذلك أن مشكلة الولاء الإسلامى أو التمرد الإسلامى فى الهند تعتمد فى الأغلب الأعم على هذه المشكلة وعلى الرغم من أنه قد لا يكون من الحكمة فى الوقت الحاضر أن تقوم الحكومة الإنجليزية بإقحام نفسها بطريقة عنيفة، فى صراع دينى لم ينضج بعد، فإن هناك الكثير الذى يمكن عمله بطريقة قانونية للتأثير على مسار الأحداث وتوجيه ذلك المسار إلى قناة مناسبة للمصالح البريطانية.

هل هناك فى الإسلام (شرقاً أو غرباً أو جنوباً أو شمالاً)، رجل صاحب شخصية بارزة شجاعة مرموقة يمكن أن يعلن نفسه خليفة للمسلمين، فى حال انهيار حكم السلطان عبدالحميد أو فى حالة وفاته؟

ترى ماهى أعماله أو حظه الذى يمكنه من الحصول على تأييد المسلمين وقبولهم له؟ وأين سينشئ عاصمته، وماهى الأسلحة التى سيعتمد عليها؟ وعلم مَنْ سيرفع؟ وفوق ذلك كله - وهذا هو مايهمنا جميعا - هل مثل هذا التغيير فى الحكام يمكن أن يؤثر على مستقبل الفكر الإسلامى والحياة الإسلامية؟ وهل يمكن أن يؤدى إلى إصلاح إسلامى حقيقى؟ هذه الأسئلة التى يسألها المفكرون الإسلاميون لبعضهم البعض فى كل ركن من أركان الشرق، أفكر أنا هنا فى الإجابة عنها، فى حدود ما أستطيعه.

قلت إن الإسلام مستعد تماما للتغيير، وبغض النظر عن نظرة الأوروبيين إلى مستقبل الإمبراطورية العثمانية، فإن المسلمين مقتنعون تماما بأن الإمبراطورية العثمانية فى ظل الأساس الذى ترتكز عليه حالياً، لن تدوم طويلاً، يزاد على ذلك أنه حتى فى تركيا نفسها فإن فكرة إعادة بعث الإمبراطورية العثمانية على شكل إمبراطورية أوروبية جرى التخلى عنها، ولم يعد هناك من يفكر فى استمرار البسفور مستقبلا سوى سنوات قلائل، لم يكن الحال كذلك قبل عشرين عاما، ولا حتى قبل خمس سنوات، بل إن الجميع مضطرون إلى ذلك.

تشير النبوءات القديمة والخرافات الحديثة على حد سواء إلى عودة الهلال الوشيكة إلى آسيا، كما تشير أيضاً إلى اقتراب حتف الأتراك بوصفهم عرقا أفسد الإسلام، هناك نبوءة بهذا المعنى ذاعت على امتداد قرون فى عقول المسلمين العاميين والمسلمين المتعلمين، وهذه النبوءة تحدد العام ١٨٨٣ الميلادى على أنه الفترة التى يتحتم فيها إنجاز هذه الأمور، وتحدد حمص على نهر أورونتوس، فى شمال سوريا مسرحاً لآخر مشاهد هذا الصراع، هذا يعنى أن الإسلام سوف يتراجع عن الشمال، وسوف يتوقف الحكم التركى. التنبؤات التى من هذا القبيل غالبا ما تحدث، إضافة إلى أن الإحساس بالمصيبة القادمة متأصل تماماً وعام تماما، إلى حد يجعلنى أتساءل عما إذا كان إعلان السلطان للجهاد يمكن أن يغرى أو يقنع ألفاً من المسلمين على القتال ضد الصليب فى أوروبا.

فى الوقت الذى يتشبث فيه السلطان نفسه هو والحزب التركى العجوز بالأرض من الناحية الشكلية، نجد أن أعينهما فى حقيقة الأمر لا تتجه إلى أى مكان آخر غير آدريانوبل Adrianople وسالونيكا ومدينة الأباطرة الرومانيين، ومن غير المرجح ألا يواجه أى تقدم جديد تقوم به الدول المسيحية من البلقان معارضة أشد وأقوى من المعارضة الرسمية؛ وهنا سيجرى التخلى عن إسطنبول، ولن تحظى بالمعاونة الأوروبية، ولن يتبقى لها سوى الكشف عن شئ من المقاومة نظرا لأن الشريعة تحتم التنازل عن الأرض[1].. ومع مثل هذا الحال، سيدخل السلطان آسيا، وقد بلغنى من مصادر عليمة أن السلطان لن يجعل بروسا Broussa عاصمة له وإنما سيتخذ من بغداد أو دمشق عاصمة له، وهو يرى أن هذا التصرف سيكون أكثر اتساقا مع تقاليد الخلافة، كما أن الخلافة ستكتسب قوة جديدة عندما تعود إلى مراكزها القديمة، علماء الدين يطلقون على دمشق اسم باب الكعبة؛ وفى دمشق أو بغداد مدينة الخلفاء التقليدية، سينشئ السلطان إمبراطورية دينية.

هذا هو ما يقولون عنه إنه هو فكر السلطان؛ وهكذا ستكون الإمبراطورية التى يود المسلمون تأسيسها فى المستقبل، لكن من غير المحتمل أن تستمر تلك الإمبراطورية عثمانية إلى الأبد بأى حال من الأحوال، أو أن عبدالحميد ستتاح لة فرصة تأسيس مثل هذه الإمبراطورية، كما أن ضياع إسطنبول سيكون ضربة لنفوذ عبدالحميد، ولن يفيق من هذه الضربة، ولم يحدث مطلقا أن تأسست إمبراطورية جديدة بعد الهزيمة، والمرجح حدوثه هو اختفاء عبدالحميد هو وآل بيته فى مثل هذه الظروف ويظهر بعد ذلك نظام جديد تماما لتولى الخلافة ليحل محل العثمانيين، وحتى فى حال افتراض عدم حدوث تشنج فى الإمبراطورية نتيجة ضياع البسفور، فإن حكم عبدالحميد لن يطول طويلا، صحيح أن علماء إسطنبول كلهم يقفون إلى جانب عبدالحميد، وصحيح أيضاً أن حزب "تركيا الفتاة" الذى يخشى فى الوقت الراهن الإرهاب الدائر هناك، يناصب عبدالحميد العداء ولن يذيقه طعم الراحة، والأكيد أن حزب "تركيا الفتاة" مع أول خطر قادم من أوروبا، سيرفع رأسه من جديد بغية الثأر لنفسه.

---

١ - لايمكن للخليفة طبقا للشريعة الإسلامية، التنازل عن اى جزء من الارض الإسلامية إلا فى حال الضرورة الملحة.

يقال إن برنامج هذا الحزب، إذا ما وصل إلى السلطة سيكون الفصل بين المهام الروحية ومهام رئاسة الدولة، وأنه سيحذو حذو الممارسة الأوروبية الحديثة فى تعاملها مع البابوية، وأنا أرى أنه ستكون هناك محاولة لأستعادة الأمور كما سبق أن رأينا إلى الشكل الذى كانت عليه فى القاهرة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر؛ ونحن نتصور أنه فيما يخص تركيا نفسها فإنه ستكون هناك فى إسطنبول قوتان: حاكم القصر الذى يتولى الحكم، والخليفة الذى يترأس الدين؛ - هذا النوع من الفصل بين السلطات قد يسهل بكل تأكيد القيام بالإصلاحات التى يريدها مدحت باشا هو وأصدقاؤه، لكن هذا الحادث سيظهر أمام العالم كله وكأنه إشارة إلى أن إسطنبول قد تخلت رسميا عن مطالبتها بالزعامة، يزاد على ذلك أن الإسلام لن يعترف مطلقاً بصنيعة من صنائع تلك الزمرة من المسئولين غير المتدينين خليفة على المسلمين لمجرد أنه من بنى عثمان، القوة السياسية للخليفة هى الشئ الوحيد الذى يخلق التوافق بين الإسلام وأى خليفة من الخلفاء العثمانيين، وإذا ما غابت السيادة سيجرى التخلى عن مثل هذا الخليفة، ومن هنا، وأيا كانت نظرتنا إلى الأمور فإن هناك مبرر كافى لترجيح القناعة التى سبق الإشارة إليها التى مفادها أنه بعد رحيل عبدالحميد سنرى نظاما جديدا لتولى الخلافة.

يبدو أن هناك رأيا عاما فى الوقت الراهن، بين كل من يفكرون فى هذا الأمر، مفاده أنه أياً كان نوع التغيير الذى على وشك الحدوث فى الإسلام، فإن التغيير سيكون فى اتجاه التركيز وليس فى اتجاه التوسع، بل والأطراف كلها ترى أن زمان الغزو الخارجى قد انتهى، وان أقصى مايتطلع إليه الإسلام على الصعيد السياسى هو المحافظة على مواقعه الحالية، وأن أقصى الأحتمالات يمكن أن يكون تحرير مناطقه الضائعة فى كل من الهند وشمال افريقيا من الحكم المسيحى، ومن ثم، هناك قناعة مفادها أن إزالة مقر السلطة العليا إذا ما تم سيكون فى اتجاه المركز، وليس فى اتجاه أى طرف من أطراف الإنسان الجديدة البعيدة، وأسطنبول نفسها إذا ما اجتمع الإسلام كله للدفاع عنها، فإن الناس يحسون بأنها تبلغ من القرب من حدود الكفر مبلغا يجعلها غير آمنة منه، ونظرا لأنها أصبح فيها قوم من شعوب

شتى، فقد بدأ كثير من الناس ينظرون إليها باعتبارها مدينة كافرة، وجود موقع أكثر بعدا عن الخطر، وأكثر صفاء من الناحية الإسلامية، يعد مطلبا ضروريا فى هذه الأيام؛ وليس هناك أدنى شك أنه عندما يحين الأوان فإن الأرض التى ستكون لها هذه الأفضلية ستكون أول الأمور المؤهلة لكل من سيتولى زعامة الإسلام.

سبق أن أوضحنا أن عبدالحميد يحلم بدمشق أو بغداد، لكن آخرين يحلمون بالقاهرة، وأن تكون هى المقر الجديد للخلافة؛ يزاد على ذلك أن السواد الأعظم من المسلمين بعيدى النظر يعرفون جيدا أن التراجع إذا مابدأ، لابد وأن يستمر، أن المقر الأخير للحكومة الدينية سيكون فى الجزيرة العربية، محل ميلاد الإسلام، ورأس نافورة وحيه، هنا، دونا عن سائر الدنيا كلها تتوفر كل شروط الممارسة المستقلة للسيادة الدينية، الجزيرة العربية ليس فيها مسيحيون ولا يهود، ولا كفرة من أى نوع كان، حتى يضيق بهم صدر الإسلام، إضافة إلى أن الجزيرة العربية ليس فيها من الثروة مايمكن أن يثير جشع الدول الغربية وطمعها، الخليفة فى الجزيرة العربية لن يكون بحاجة إلى أى تقريع من السفراء الفرنجة فيما يتعلق بالامتيازات الممنوحة للأجانب؛ سيكون الخليفة حراً باعتباره خلفا للرسول، وسوف يتنفس هواء الإسلام النقى الخالص، وعليه فإن عودة الخلافة الجديدة إلى المدينة المنورة أو مكة المكرمة فى المستقبل أمر مرجح ومحتمل.

تأكدت فى السنوات الأخيرة أهمية الجزيرة العربية فى كل من إسطنبول وفى الأماكن الأخرى، وقد دأب عبدالحميد فى سياسته وبكل الوسائل الممكنة وبأى ثمن، على المحافظة على نفوذه فى الجزيرة العربية؛ وهو يعلم أنه بدون الجزيرة العربية لن تقوم مباهاته الروحية على أى أساس من الأسس المتينة. ينظر عبدالحميد إلى الجزيرة العربية باعتبارها النقطة الرئيسية فى مشكلة الخلافة؛ وسواء أكان حامل لقب الخلافة فى المستقبل مقيما أو غير مقيم فى الحجاز، فمن المؤكد أن الحيازة على الجزيرة العربية وحدها ستجعل العالم الإسلامى يحكم بحق على حامل اللقب فى أن يكون زعيما للمسلمين. وأنا أرى أن من المهم قبل الاستطراد فى هذا الأمر، دراسة العلاقات الماضية والحاضرة بين مكة والخلافة، وتأكيد المكانة التى يحتلها عبدالحميد فى الجزيرة العربية، وأنا أعتقد أن بوسعى تقديم بعض المعلومات الجديدة والقيمة حول هذا الموضوع.

يعد الدستور السياسى للأرض الإسلامية المقدسة واحدا من أشد الدساتير تشددًا فى العالم، الحجاز شأنه شأن أى جزء آخر من الجزيرة العربية نفسها فيه سكان من البدو ومن الحضر، لكن ليس بينهما طبقة وسيطة زراعية، لقد وصفتُ السكان الحضر بأنهم جمع كبير من أصول مختلطة، منحدرين عن الحجاج الذين جاءوا من سائر انحاء الأرض لزيارة الأماكن المقدسة، وبقوا فى هذه الأماكن ليعيشوا أو يموتوا فيها، البدو على العكس من ذلك، عرق نقى ذو طابع نبيل غريب، ولم تتغير الملامح السياسية لحياتهم عما كانت عليه فى زمن محمد (صلى الله عليه وسلم)، هؤلاء البدو محبون للحرب، لايهدأون، مترحلون، جمالون (لأنهم ليس لديهم خيول)، مسلحون ببنادق فتيلية؛ وهم فخورون باستقلالهم، متشبثون بحقوقهم، ولم يقم أحد بأية محاولة جادة لإخضاعهم، سوى محمد على ولم ينجح أحد فى ذلك مطلقا، وهم على العكس من عامة بدو شبه الجزيرة العربية، مسلمون سنيون متشددون إن لم يكونوا من النوع شديد التدين؛ وهم يعترفون بالشريف حسين، كبير أشراف قريش، شيخا لقبيلتهم التى تعد أنبل القبائل وهو أيضاً أمير مكة.

لاتزال قريش قبيلة بدوية متميزة، تقيم على مقربة من مكة؛ وهى ليست كبيرة العدد، لكنها لم تتحلل، وينقسم القرشيون إلى أقسام عدة، ويحكم كل قسم شيخ من الشيوخ، وأشهر هذه الأقسام هم العبادلة Abadleh، الذين يشكلون الأسرة الحاكمة للحجاز منذ قرون عديدة، والحاكم الأخير منحدر من نسل على بن أبى طالب الخليفة الرابع، من خلال ولده الحسن ومن خلال زوجة على فاطمة بنت محمد (صلى الله عليه وسلم)، والأرجح أن هذه أقدم سلالة نسبية ذكورية فى الدنيا كلها، وأقدس السلالات كلها، يحمل كل فرد من أفراد اسرة العبادلة لقب شريف، ورئيس هذه العائلة يميز بلقب الشريف الأكبر، لكن باقى قبيلة قريش لم يكونوا منحدرين من فاطمة، ولذلك فهم لايحملون هذا اللقب، يلبس الأشراف كلهم الزى البدوى المكون من العباءة والكوفيه، بما فى ذلك الأمير نفسه الذى يقف مميزا بذلك اللباس، متناقضاً فى ذلك مع مواطنى الحجاز الذين يتباهون بالعباءة والكمباز.

يحتل بدو قبيلة حرب منطقة المدينة المنورة، وقبيلة حرب أكبر وأقوى من

قبيلة قريش؛ وقبيلة حرب هى الأخرى تعترف بالشريف رئيسا لها، لكن ولاء هذه القبيلة متأرجح؛ فى حين نجد فى شرق وجنوب مكة قبيلتى عتيبة وعسير، وهما أقوى من قبيلة حرب ومستقلتان تماما، ومن الصعوبة بمكان المحافظة على الأمن والسلام بين هذه العناصر القاسية بعضها على البعض وبين المواطنين، والشريف نفسه لن يتطلع إلى إحداث ذلك حتى وإن لم يكن هو نفسه بدويا ومن نسل أصيل.

تاريخ الأشراف الباكر شديد الغموض، عندما تخلى الخلفاء عن المدينة المنورة تماما ولم تعد عاصمة لهم فى العام الأربعين من الإسلام (المصادف للعام ٦٦٢ الميلادى)، خلفوا وراءهم طوال فترة من الوقت نوابا لأسرة الأشراف ليحكموا باسمهم، ومع استمرار بقاء الأسرتين المالكتين الأموية فى دمشق والعباسية فى بغداد، بقيت سيادة الأشراف على الحجاز أمرا معترفا به، لكن مع القضاء على الخلافة العربية فى العام ١٢٥٩، يبدو أن أسرة الأشراف بدأت تستقل بنفسها، معتمدة على ذلك وبطريقة عشوائية على مساعدة السلاطين المصريين لها، ومعتمدة أيضاً على إمام صنعاء فى حمايتها من بدو نجد وعسير، الذين لم يكونوا مسلمين فى ذلك الوقت حتى ولو بالاسم، على كل حال كان سلطان مصر الحامى الشرفى للأماكن المقدسة، وكان هو الذى يرسل الصُرة أو المساهمات والتبرعات الدينية المقدمة من المؤمنين، وكان هو الذى يوفر الحرس الذى يرافق كل عام الحج إلى الأماكن المقدسة، وعليه فنحن نقرأ عن إعادة بناء قايتباى لمسجد المدينة المنورة فى العام ١٤٧٦ الميلادى، وانه هو الذى كان يرسل كل عام إعانة تقدر بحوالى ٧٥٠٠ أردب من القمح للحضر، كان هناك أمراء آخرون يقدمون تبرعاتهم أيضا، وحصلوا على ألقاب شرفيه لها علاقة بالأرض المقدسة، ومنهم شاه بلاد فارس، والمغول والعثمانيون، وكانت أول علاقة للعثمانيين بمكة فى العام ١٤١٣ الميلادى عندما قام البادى شاه محمد خان الأول بعد ارسال الصُرة حقيبة مليئة بالذهب إلى الشريف ليجرى توزيعها على شكل صدقة، وحصل البادى شاه من الشريف على لقب خادم الحرمين؛ خادم الضريحين؛ وتواصلت تلك العطية كل عام من قبل البادى شاه العثمانى، مما مهد الطريق بعد ذلك إلى الاعتراف بهم خلفاء.

قد يبدو الأمر غريبا وفريدا للوهلة الأولى، عندما نرى أن الأشراف الذين هم أنفسهم من أسرة مقدسة كانت الخلافة فيها إرثا، يعترفون بغريب على أنه الوارث لهذه الخلافة، لكن ضعف حكومة مكة فى القرن السادس عشر لابد من أخذه بعين الاعتبار، وأنه كان سببا كافيا وراء ذلك الاعتراف، كان من الصعب على الشريف الكبير الوقوف وحده كملك مستقل، لأنه كان يجرى تهديده بصورة مستمرة بواسطة العمانيين المتمردين من ناحية، وبواسطة قبائل نجد من الناحية الأخرى، وبخاصة أن حدوده على هاتين الناحيتين كانت بلا دفاعات، لم يستطع الشريف الأكبر فى حدود الموارد المتوفرة له حماية طرق الحج من السلب والنهب - وكان رفاه الحجاز يعتمد على موسم الحج، وقد حتم ذلك أن يكون للمكيين حام من نوع أو آخر؛ وبعد سقوط السلطان قنصوه الغورى اعترفوا بالسلطان سليم.

أصبح السلاطين العثمانيون بعد ذلك حماة للأماكن المقدسة، وجرى الاعتراف بهم خلفاء دون احتكام إلى السلاح فى مكة والمدينة، كانت أسلحة العثمانيين فى واقع الأمر عبارة عن قطع من الذهب والفضة، كانوا يقدمونها معونة للأشراف، وهذا هو السلطان سليم الأول، يأمر فور الاعتراف به بزيادة قدرها ٥٠٠٠ أردب إضافيه من القمح، على الحصة السنوية على أن تدفع إلى مكة، وتحمل السلطان سليم هو ومن جاءوا بعده وعلى نفقتهم الخاصة نفقات إصلاح وصيانة الأضرحة وتحسينها، وترتب على ذلك استقبال ميناء جدة، الذى كان المصريون يحتلونه من قبل، فرقة من الجنود الأتراك. لكن لم يحدث أن جرى إخضاع الحجاز من الداخل أو فرض أى نوع من الضرائب على الحجاز، لم يكن الجيش العثمانى يظهر أمام أسوار المدينة المنورة سوى مرة واحدة كل عام، على رأس الحج القادم من دمشق، وحاملا للصرة المرسلة إلى الحجاز. كان نيبور قد وصف أحوال مكة فى القرن الماضى وصفا دقيقا وواضحاً. كان الأشراف أمراء مستقلين فى واقع الأمر، لكنهم كانوا "يشبعون مباهاة الشريف الأكبر". إذ كانوا يطلقون عليه اسم الحاكم المطلق، وكان هو الآخر يقوم من جانبه، فى بعض الأحيان بممارسة سلطة عزل الشريف الحاكم وتعيين غيره من الأسرة نفسها، لم يحاول الأتراك فى ذلك الوقت إدخال أى شكل من أشكال الإدارة إلى الحجاز.

أدى احتلال محمد على للحجاز فى العام ١٨١٢ الميلادى إلى دخول القوات الأجنبية إلى داخل الحجاز للمرة الأولى، أسس محمد على لنفسه قصرا فى الطائف، المنتجع الصيفى للمكيين؛ وعزل محمد على الشريف غالب الكبير، وعين محله عضواً آخرا من أعضاء أسرة الأشراف؛ وأعلن سيادة السلطان على البلاد - أرتضى المكيون هذه الأعمال بسبب تخوفهم من الوهابيين، الذين وعد محمد على الأشراف بتخليصهم منهم، وبذلك تكون الحكومتان المصرية والتركية قد مارستا بعض أعمال السيادة على الحجاز خلال القرن الحالى.

يمكن تصوير وضع السلطان عبدالحميد فى الحجاز فى الوقت الراهن على النحو التالى، تحتل قوات عبدالحميد كلا من جدة وينبع، الميناءان البحريان، كما تحتل قوات عبدالحميد أيضاً كلا من المدينة المنورة والطائف فى الداخل، يعترف الأشراف بالسلطان عبدالحميد ملكا عليهم فيما عدا مكة: وهو الذى يعين من يشغلون المناصب الرئيسية فى الحجاز بما فى ذلك منصب الشريف الأكبر نفسه، ويمثل عبدالحميد فى الحجاز باشا يقيم فى كل من جدة والطائف بالتناوب حسب فصول السنة، لكن هذا الباشا لايحق له دخول مكة بدون موافقة من الشريف الأكبر، وليس من حق هذا الباشا إرسال قوات إلى مكة، تراوح عدد الحامية التركية الكلى فى الحجاز فى الشتاء الماضى بين ٨٠٠٠ و١٠٠٠٠ رجل، كان من بينهم ٤٠٠٠ رجل من القوات النظامية الكفؤة، لم يتقاضوا رواتبهم ولم يحصلوا على تعيينات[1] منذ مدة طويلة ويقال إنهم يعيشون على الإحسان والتبرعات، يزاد على ذلك أن بدو الحجاز لايقرون أية سيادة أخرى غير سيادة الشريف، إضافة إلى أن السلطان لايستطيع المحافظة على الأمن والنظام خارج المدن إلا من خلال تدخل الشريف، والسلطان لايفرض ضرائب فى الداخل، ولايحصل أية إتاوات من أى نوع، والدخل الوحيد الذى يأتيه من الحجاز يتمثل فى الجمارك التى يجرى تحصيلها فى كل من جدة وينبع، والتى قد تصل إلى ٤٠٠٠٠ جنيه إنجليزى.

وفى مقابل ذلك يتعين على السلطان عبدالحميد أيضاً القيام كل عام وفى

١ - المقصود بالتعيينات هنا هو الطعام والشراب الذى يقدم للجنود (المترجم)

وسم الحج بإرسال المبالغ النقدية التى جمعها كمتحصلات من الأوقاف اخل ممتلكاته، ومن الأراضى التى أوقفها المتدينون لأسرة الأشراف، ويقال ن أموال الأوقاف هذه تقدر بحوالى نصف مليون جنيه إنجليزى، ويجرى توزيعها على الشخصيات الرئيسية فى الحجاز، واقع الأمر أن إرسال دخل الأوقاف الذى يعد السلطان فيه وكيلا بشكل أو آخر للشريف هو الرابطة الحقيقية التى تربط الحجاز بالخلافة؛ وتوزيع عائد الأوقاف يعطى السلطان حق الرعاية ومعه السلطة فى البلاد، يزاد على ذلك أن هذه الرابطة هى مجرد شئ مهم ليس إلا، والأشراف الذين يتباهون بسلالتهم المقدسة ينظرون إلى الخلفاء الأتراك باعتبارهم دجالين وهمجيين، فى حين ينظر السلاطين إلى الحجاز باعتباره عبئا على دخلهم، وكلاهما يكره الآخر ويحتقره، الراعى والمرعى ؛ ولولا التوحد المفروض بحجم الضرورة لكان ذلك التوحد قد انقضى منذ وقت طويل بموافقة الطرفين، الشريف يعتمد على السلطان لأنه بحاجة إلى الحماية، كما أنه بحاجة أيضاً إلى أوقافه، والسلطان يعتمد على الشريف لأن اعتراف الحجاز بالسلطان حاميا له لقب مهم من ألقاب الخلافة. مكة فى واقع الأمر أمر ضرورى ومهم للإسلام بل إنها أكثر أهمية من الخليفة نفسه؛ ومن تكون له السيادة على مكة من الطبيعى أن تكون لة السيادة أيضاً على العالم الإسلامى كله.

يستحوذ السلطان خارج الحجاز على ما يستحوذ عليه من الجزيرة العربية بالقوة. وأنا بدورى وصفت بالفعل القوة المتنامية لابن الرشيد أمير نجد؛ واعتبارا من ذلك الوقت أى منذ سنتين قام ابن الرشيد بتمديد نفوذه وتأكيده فى الجزيرة العربية بشكل محسوس، وقد استطاع ابن الرشيد إدخال كل القبائل المهمة فى شمال الجزيرة العربية فى تحالف معه، وقد اشتملت هذه القبائل على قبيلة عتيبة القوية، التى كانت تهدد مكة قبل أشهر قلائل؛ وأصبح اسم ابن الرشيد رناناً فى الحجاز مثل اسم السلطان، عرض ابن الرشيد يوم أن كنت فى جدة حراسة قافلة الحج الدمشقى بقواته الخاصة، مثلما يقوم حاليا بحراسة قافلة الحج الفارسى؛ هذا فى الوقت الذى لدى فيه معلومات حديثة تماما عن حملة قام بها على منافسيه، أبناء سعود وأن تلك الحملة حققت نتيجة ناجحة، فى اليمن، الجار الآخر للمكيين، يحتاج

الأمر إلى حامية قوامها ٢٠٠٠٠ جندى تركى لتبقى على شكل حاميات صغيرة فى المدن التى يدعى السلطان أنها ملك له، ولولا التسهيلات التى أعطيت له من خلال امتلاكه لشاطئ البحر، لما استطاع هؤلاء الجنود التشبث بالأراضى التى يقفون عليها، وأنا أتوقع كل يوم أن تصلنى أخبار عن تمرد فى ذلك المكان، يضاف إلى ذلك أن أول علامة من علامات ضعف إسطنبول سوف تشعل بل ستعجل بإشعال حرب الاستقلال فى ذلك الجزء من الجزيرة العربية.

من هنا نتوقع فى حال حدوث انهيار للقوة العثمانية على النحو الذى أشرت إليه - إما عن طريق فقدان الأرض أو عن طريق زيادة اضمحلال الإمبراطورية الذى لابد أن يحدث فى غضون عقود قلائل وينتهى بالضمور الكامل للإمبراطورية - تنافس بين الأمراء المسلمين على حق حماية الأماكن المقدسة ووراثة لقب الخلافة، عندما يقتصر ملك السلطان على آسيا الصغرى، وحتى عندما يحتفظ بكل من أرمينيا وكولاستان (وهذا أمر غير محتمل تماما) سيصبح عاجزا تماما عن تحميل نفسه الترف المكلف الذى يترتب على احتفاظه بغزواته فى الجزيرة العربية ودفع ثمن رعاية مكة، سيصبح السلطان عاجزا أيضاً عن إيقاع الرعب فى البحر الأحمر، وعاجزا أيضاً عن تأمين طرق الحج، يزاد على ذلك أن أمراء نجد لن يطيقوا وجود الجنود الأتراك فى المدينة المنورة، وسوف يتعين على أشراف مكة الاتفاق مع أمراء نجد ومع الأئمة الذين أعيدوا إلى اليمن لحين مجئ اليوم الذى يعثرون فيه على حام جديد فى مكان ما، يزاد على ذلك أن عائد الأوقاف الذى يقدر بحوالى نصف مليون جنيه إنجليزى سوف يتوقف، كما أن وصول أمير الحج التركى خالى الوفاض إلى مكة سيضع سيده على قمة الازدراء والاحتقار، وهنا سيتعين على الحجاز البحث عن راع آخر يكرمه بأن يسبغ عليه لقب حامى الحرمين وأمير المؤمنين؛ وفى حال تقدَّم أى أحد سيعلن الحجاز نفسه الخلافة، ولعلنا هنا نلقى نظرة على أراضى الإسلام التى يحتمل أن يظهر فيها أمير كفؤ للمؤمنين.

من الممكن على الرغم من عدم احتمال ذلك فى المنظور الأوروبى أن يظهر من بين الاضطراب الذى نشهده حاليا فى ولايات البربر، زعيم صاحب قوة

حقيقية وتميز دينى، وتكون لديه موهبة تجميع قوات الإسلام الهائلة المبعثرة فى شمال أفريقيا فى قوة كبيرة واحدة، ويقوم بعد تحقيق شئ من النجاح فى مواجهة السياسة الفرنسية الجديدة بتأسيس نفسه فى طرابلس أو فى تونس على شكل ملكية مستقلة، لو قدر ظهور رجل آخر مثل عبد القادر القديس الواعظ والجندى الذى لايبالى بالأهداف الوضيعة للحكم المحلى، وصاحب الموهبة العسكرية والتدين الحقيقى، وصاحب اللسان الطلق، فأنا أعتقد أنه قد يصيب فى الوقت الراهن نجاحا جزئيا.

الجيش الفرنسى ضعيف من حيث النظام والثقة، إذا ما قارناه بما كان عليه فى عهد عبد القادر الجزائرى، يزاد على ذلك أن الجيش الفرنسى مطلوب منه الدفاع عن حدود أطول بكثير من الحدود فى زمن ذلك الرجل؛ هذا فى الوقت الذى تبدو فيه الحكومة الفرنسية مترددة، فضلاً علي أن العرب يحظون بتعاطف كبير فى أوروبا وأماكن أخرى، وانا لا أقول إن هذا الأمر مرجح، لكنه يمكن تصوره؛ يزاد على ذلك أن أفريقيا تحتوى على عناصر تنطوى على احتمالات سيادة جديدة لأمير مسلم، وأن هذه العناصر قد تقود هذا الأمير فى نهاية المطاف إلى الطريق المؤدية إلى مكة، والذى لاشك فيه أنه فى ظل النفوذ الناجم عن تحقيق النجاح فى مواجهة القوة المسيحية وفى ظل المساندة من الأعداد الكبيرة من سكان السودان، وفى ظل الحماس العسكرى الشرس الذى يتمتع بة العرب المالكيون، قد يظهر عبد القادر أو عبد الوهاب الذى يحظى بتعاطف الإسلام، وقد يتطلع إلى الوصول إلى أعلى درجات احترامه، لكن لابد من توفر بعض المسلمات قبل إلقاء نظرة على المشهورون فى أفريقيا، على احتمال أن أحدهم قد يترشح للخلافة فى المستقبل.

الزعماء الحاليون للعرب ليسوا سوى أبطال محليين، وهم بهذه الصفة يكونون لم ينجزوا شيئا يستحق الاحترام، فى طرابلس هناك قديس عالى المطالب فى واقع الأمر، يعرف باسم الشيخ السنوسى، وله مريدون كثيرون، والذى وعد بالتقدم إلى الأمام خلال فترة وجيزة على أنه المهدى Mohdy أو المرشد الذى ينتظره قطاع كبير من المسلمين السنيين ومن الشيعة المسلمين، سيصل السنوسى فى العام القادم إلى العام الأربعين من عمره (العمر

الشرعى للنبوة)، ويتوقع له أن يلعب دورا بارزا فى أى تحرك عام يكون فى طور التنفيذ، لكننا لانعرف شيئا عنه إلى الآن سوى اسمه وحقيقة قدراته التى هى من النوع الوهابى، زد على ذلك أنه حتى وبفرض حدوث شئ من النجاح فإن هناك موقع مصر وقناة السويس فيما بين دولة البربر ومكة، وهذا يجعلنى أظن أنى على حق، فى زمن الأساطيل البخارية والبرقيات الكهربية والحفلات الموسيقية الأوروبية إذا ما تعاملت مع شمال غرب أفريقيا على أنه خارج الحسابات فى مسألة دراستى لمستقبل الخلافة، وواضح أن سلطان مراكش (المغرب حاليا) لم يلعب إلى الآن دورا بارزا فى الحركة الدينية البربرية Barbary الحديثة.

الأمراء المسلمون فى الهند لهم موقف مماثل، هؤلاء الأمراء إذا ما استمرت السياسة البريطانية غير الذكية التى اتبعتها بريطانيا فى الهند خلال السنوات العشرين الأخيرة، وفى ظل اعتراضهم على وجود حكومة أوروبية مسلحة سوف تتهيأ لهم فرصة القيام بدور بارز فى أعين المسلمين؛ وإذا ماقامت إمبراطورية إسلامية جديدة فى دلهى أو حيدر أباد Hyderabad ستصبح الهند دار السلام، وعندها تصبح الهند وإلى حد بعيد أغنى الدول الإسلامية وأكثرها سكاناً، وقادرة على المزايدة على حجم الصُرة التى ترسل إلى مكة.

تقدر قيمة الأوقاف الموجودة حاليا فى الهند بقيمة الأوقاف التى فى الإمبراطورية العثمانية، وبذلك ستصبح هذه الأوقاف مصدرا من مصادر الرعاية مع الحكومة، وذلك بدلا من سدادها على انفراد فى الوقت الحالى، وإذا كان المال وحده هو القادر على شراء الخلافة فإن الزعيم الذى ينجح فى التمرد على الإنجليز فى الهند يمكن أن يملى شروطه على الإسلام، لكنى أقول من جديد إن عقبتى المسافة والبحر تحولان دون لعب هذا الدور، يزاد على ذلك أن الهند المسلمة لا يمكن لها مطلقا توفير الحماية التى يتطلبها الإسلام لمكة المكرمة، ولايمكن للهند تأكيد سيادتها فى أى مكان غير بلادها بقوة السلاح، وهذا أيضاً على سبيل المسلمات كما هو الحال فى الدولة البربرية Barbary - فى حال النجاح.

من هنا لايمكن أن تكون الهند ولا غرب إفريقيا ذلك البديل الذى نحتاجه

للبيت العثمانى، وهنا أيضاً وبصورة واضحة وحسب رأى البعض، فإن المرشح المرجح لتولى الخلافة يمكن أن يكون من بين أفراد أسرة الحاكم المناب فى مصر، محمد توفيق إن قدر لمثل هذا الرجل أن يكون صاحب عبقرية مثل جدة، أو إذا ما قام رجل أمين مثله بلعب أوراقه بطريقة ناجحة، فإنه يمكن أن يكون منافسا مهما للسلطان فى مكة، ومصر بحكم علاقتها التقليدية مع الخلافة لديها ماهو أكثر من ذكريات محمد على باشا، ويمكن أن يكون حافزا لصالح مصر عند الحجازيين باعتبار مصر دولة حامية للإسلام.

وفى أضعف الأحوال فإن اسم محمد على واسم ولده إبراهيم باشا، إن لم يكونا مشهورين فى مكة فإنهما يحظيان بالاحترام؛ واسم إبراهيم باشا يحظى بذيوع كبير لدى أهل السنة بعد قيامه فى العام ١٨١٨ الميلادى بتدمير الإمبراطورية الوهابية، وقد تناولت بالفعل طموح محمد على؛ وكان المرحوم الخديوى إسماعيل لديه أيضاً طموح مماثل فى مسألة الخلافة، يقال إن إسماعيل فى غمرة وفرة سلطته المالية، أنفق مبالغ طائلة على دعم وإعانة الأشراف من باب التحسب للطوارئ المحتمل وقوعها فى إسطنبول، لكن من سوء طالع إسماعيل أن افتتاح قناة السويس الذى عول عليه أنه سيكسبه مساندة أوروبا، جاء بمثابة الأداة الدقيقة التى دمرت مشروع إسماعيل.

عندما استشعر الباب العالى فى العام ١٨٧١ الميلادى الخطر المحدق بادعاءاته فى الخلافة فى هذه المنطة، قام باحتلال البحر الأحمر بالقوة، ودعم حامياته فى كل من جدة وينبع، ثم تقدم نحو الطائف، وألقى بجيش كبير فى اليمن، وقد تمكن الباب العالى من فعل ذلك كله عن طريق قناة السويس فقط، والمحزن أن إسماعيل وجد نفسه ينطبق عليه المثل الذى يقول: "من حفر حفرة لأخيه وقع فيها"، من هنا يمكن القول إن محمد توفيق يمكن أن نلتمس له العذر فى الموروث العائلى إذا ما راودته الأحلام التى من هذا القبيل بين الحين والآخر، علاقة محمد توفيق مع مكة فى الوقت الحالى تجئ فى المرتبة الثانية بعد علاقته بإسطنبول؛ خط البواخر الخديوى الملاحى يعمل بصورة مستمرة بين السويس وجدة؛ يزاد على ذلك أن الحج الذى يرسله الخديوى إلى مكة ومن ضمنه عدد كبير من الحجاج المغاربة، أكبر من الحج الذى يرسله السلطان، ومحمد توفيق يحتفظ فى أضعف

الأحوال بعلاقات حميمة مع واحد من كبار أسر الأشراف وهو يرسل المحمل كل عام حاملا صُرة مهمة إلى المدينة المنورة، يزاد على ذلك أن محمد توفيق ذاع صيته أيضاً على أنه رجل مسلم خالص وأمين، ومن المؤكد أن قطاعا كبيرا من الرأى الليبرالى الحقيقى ينظر إلى محمد توفيق باعتباره من أكبر المؤيدين لآراء ذلك القطاع، وعلى الرغم من هذا كله فأنا أشك فى أنه ليس بالقامة التى يمكن أن تنجح فى التطلع إلى خلافة السلطان عبد الحميد.

الموقف المالى للحاكم المناب الحالى، على الرغم من قوة أساسه ليس قويا مثل موقف والده؛ ومن يتطلع إلى منصب الخلافة يتحتم عليه أن يكون لديه الكثير من المال، يزاد على ذلك أن قوته القتالية صغيرة أيضاً، ويتحتم عليه الإعلان عن تسلحه، يضاف إلى ذلك - وسوف يظل ذلك عقبة كأداء - أن الحاكم المناب مقيد بالسيطرة الأوروبية، والإسلام لن يطيع بأى حال من الأحوال. خليفة هو نفسه مطيع للنصارى؛ زد على ذلك أن الأسباب التى أدت إلى تدمير البيت العثمانى ستكون هى الأسباب نفسها التى ستدمره، الخليفة بحكم الوضع القائم لا يمكن أن يحكم إلا بأحكام الشريعة، وعلى الرغم من التغاضى عن بعض التجاوزات فى الأمير العادى أو حتى فى الخليفة الذى يتولى المنصب، فإن الخليفة الجديد المتقدم للمنصب لابد أن يكون ملتزما وصارما. لكن كيف يوازن محمد توفيق بين احتياجه للإسلام وبين احتياجه لأوروبا؟ تصعب على محمد توفيق مسألة عدم السقوط بين المقعدين[١].

وطالما أنه لم يظهر حتى الآن فى شرق آسيا بطل دينى غير منتظر، وطالما أنه لم تظهر أية إشارة إلى مثل هذا البطل، فنحن نجد أنفسنا منساقين إلى الجزيرة العربية بحثا عن حل لهذه المعضلة، وتأسيس دولة إسلامية، ومنساقين أيضاً إلى أسرة الأشراف فى مكة، بحثا عن أسرة ملكية جديدة.

تمتاز أسرة الأشراف بهذه الميزة الكبيرة عن الأسر المنافسة الأخرى على هذا اللقب السامى من ألقاب الإسلام، أقصد أن هذه الأسرة يسرى فى عروقها دم قبيلة قريش التى حددها محمد صلى الله عليه وسلم لتكون وريثة

١ - كتبت هذا الكلام قبل الأحداث التى وقعت فى شهر سبتمبر من العام ١٨٨١. وقد زادت تلك الأحداث من فرص أن تصبح القاهرة من جديد مقراً للخلافة، على الرغم من عدم اختيار محمد توفيق لذلك المنصب.

له، هناك بعض الأحاديث الصحيحة الأخرى التى تؤيد حقوق قريش وتنص عليها، وأشهر هذه الأحاديث وأوضحها والتى تستحق الإشارة إليها هنا، هو حديث أم هانى بنت أبى طالب: "فضَّل الله [1] قريشاً: أنى منهم، وأن النبوة فيهم، والحجابة والسقاية فيهم، وأن الله نصرهم على الفيل وأنهم عبدوا الله غز وجل عشر سنين لا يعبده غيرهم وأن الله أنزل فيهم سورة من القرآن ثم تلاها رسول الله صلى الله عليه وسلم ( بسم الله الرحمن الرحيم، لإيلاف قريش: إيلافهم رحلة الشتاء والصيف؛ فليعبدوا رب هذا البيت؛ الذى أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ) "[2]، [3]، يقول النبى صلى الله عليه وسلم فى حديث آخر:" طالما بقى رجل واحد من قريش، فيظل ذلك الرجل خليفتى"؛ وفيما يتعلق بالعرق العربى" إذا ما سقط العرق العربى، سيسقط الإسلام"، الدنيا كلها تعرف هذه الأمور، والذهن الشعبى، يعرفان الشريف بصفه خاصة، هو فى حقيقه الأمر، الأكثر تمثيلا للمنزلة الروحية، عن أى سلطان من السلاطين وأى خليفة من الخلفاء.

هذا العدد الكبير من السكان فى جنوب وشرق آسيا يرسلون حجاجهم ليس إلى إسطنبول وإنما إلى مكة، وهم لا يجدون رئيسا أعلى سوى الشريف، هذا يعنى أن وضع الحكومة التركية فى الحجاز يعد غير ذى بال بالمقارنة مع وضع الشريف، يزاد على ذلك أن ممثل السلطان فى جدة يكاد حجمه لا يزيد

---

١- أخطا المؤلف فى ترجمة الحديث، الحديث يقول" فضل الله " والمؤلف يقول: "فضل النبى" (المترجم).

٢ ـ يقول حديث أم هانى بنت أبى طالب" فضل النبى قريش بسبع خلال: أولها النبوة (حقيقة أنهم انجبوا نبيا) ثانيها، الخلافة، ثالثها، الحجابة (سدانة الكعبة) رابعها، السقاية (حق إمداد الحجاج بالماء)، خامسها، الردافة (حق استضافة الحج)، سادسها، الندوة.البيرق، ومعه حق إعلان الحرب"، المحدث: ابن كثير، خلاصة الدرجة: غريب، والحديث الغريب هو ما تفرد به راوٍ ولم يذكره غيره (المترجم)

٣ ـ الترجمة إلى العربية للحديث هى ترجمة حرفية للحديث الوارد فى صفحة ٤٤ من الأصل الإنجليزى، ترجم المؤلف: انى منهم " بالنبوة" Nebbuwat وشرحها بالعبارة" حقيقة أنهم انجبوا نبياً " The fact that they had given birth to a prophet. زاد المؤلف على نص الحديث كلمة: الخلافة- وترجم" السقاية" - وشرحها" الحق فى إمداد الحج بالماء" The right of supplying water to the haj.. وترجم الحجابة hejabat وشرحها بعبارة رعاية الكعبة Guardianship of Kaaba ولم يات المؤلف على بقية الحديث بل اقحم عليه اشياء اخرى.

على مجرد خادم لأمير مكة، هذا الأمير سليل نبيهم، وليس ممثل السلطان، وعلى الرغم من أن العلماء قد يقومون ببعض المفارقات لصالح الخليفة فإن الحج لا يعرف أو يسمع عن أحد سوى الشريف، وحتى فى إسطنبول، جرى العرف من قديم الأزل، أن يقف السلطان لاستقبال أعضاء الأسرة المقدسة؛ يشيع فى مكة أنه فى حال قيام السلطان بأداء فريضة الحج فإن الشريف الكبير يستقبله على أنه أقل منه مكانة، هذا يعنى أن أسرة الأشراف محاطة بهالة من النفوذ الدينى؛ الأمر الذى يجعل حصول هذه الأسرة على اللقب الدنيوى الأعلى، أمرا طبيعيا عند الجميع ماعدا الأعراق التى جرى إخضاعها للعثمانيين؛ وإن قُدر لرجل صاحب مقدرة حقيقية الظهور بينهم، سيكون على يقين، فى ضوء الأزمة التى تصورناها، من اتباع الجميع له.

من المؤكد أن الحكومة العثمانية تعى ذلك وتعرفه حق المعرفة. يضاف إلى ذلك أن الحكومة العثمانية يوم أن كانت فى أوج قوتها، كانت تكشف دوما عن غيرتها من مكة وعدم ثقتها بها، وكانت تحرص عندما يحصل أى من الأشراف الكبار على ما تعتبره هى نفوذا خطيرا، على العمل على خلع ذلك الشريف عن طريق تنصيب منافس له، كانت القوة المادية للحكومة العثمانية تمكنها من فعل ذلك، وعلى الرغم من عجز الحكومة العثمانية عن إلغاء منصب كبير الأشراف، فإنها استطاعت التدخل فى نظام الخلافة، كان الأتراك فى الحجاز، يزكون الخلافات العائلية فى كل الأحوال، ويجعلون تلك الخلافات تطول وتدوم طوال فترة وجودهم.

وأفضل مثال لمنظومة العثمانيين، تمثل فى وفاة كبير الأشراف، وقصة هذه الوفاة تكشف أيضاً عن الخوف الذى ساور السلطان الحالى تخوفا من ذلك المنافس الروحى العظيم، وحتى أتمكن من رواية هذه القصة بطريقة صحيحة يتعين على العودة إلى الفترة التى غزا خلالها الوهابيون الحجاز فى العام ١٨٠٨ .

فى ذلك الوقت، وطول النصف الثانى من القرن الماضى، كانت هيبة المنصب الأعلى فى فرع من أسرة الأشراف يعرف باسم دوى [1] زيد، الذين

---

١ - وكلمة "دوى" مستخدمة فى الحجاز، أيضاً فى الأماكن الأخرى لتعطى معنى "بنى" أو "أهل" بمعنى " ناس" و"اسرة"، " بيت" .

حلوا فى العام ١٧٥٠ محل فرع بركات، والذين أتى تيبور على ذكرهم يوم أن كان لهم ذلك المنصب فى زمانه، كان الحامل الرسمى لذلك اللقب هو غالب ابن مساعد، الذى تحول هو نفسه إلى وهابى عندما وجد نفسه عاجزا عن مواجهة الوهابيين وتأسيسا على ذلك كان أول عمل قام به محمد على باشا عندما ظهر فى مكة فى العام ١٨١٢ الميلادى، كان هو عزل ذلك الغالب، على الرغم من زعمه أنه عاد إلى الأصولية، وتعيين عضو آخر من الأشراف محله.

كان يحيى بن سرور هو الشريف الذى جرى اختياره، وهو من فرع منافس، يدعى ذوى عون Aoun؛ وبهذه الطريقة جرى خلق العداء بين عائلتى عون وزيد، وهذا العداء مستمر إلى يومنا هذا، لم يقل هذا العداء، كما يزعم البعض، بفعل التغيرات التى أحدثتها الحكومتان التركية والمصرية فى مسألة التعيين فى ذلك المنصب؛ ونحن نجد فى العام ١٨٢٧ الميلادى، أن عبد المطلب ولد غالب الوهابى المخلوع، أعيد تعيينه، وفى العام التالى، جرى تعيين محمد، ولد يحيى بن عون، ذلك المتآمر الذى أشعل حربا أهلية، وفى العام ١٨٤٨ الميلادى أدت دسيسة أخرى إلى إعادة عبد المطلب هو والزيود إلى المنصب؛ وبعد ذلك، وفى العام ١٨٥٣ على وجه التحديد، جرى عزل عبد المطلب هو والزيود بسبب التمرد، وجرى تعيين عضو من آل- عون، وفى الفترة من ١٨٥٣ إلى ١٨٨٠ احتفظ آل- عون بمنصب كبير الأشراف، وكانت لهم اليد العليا فى الحجاز، ونظرا لأن آل- عون جاءوا إلى السلطة، فى زمن كان مد الأفكار الليبرالية فيه آخذا فى الازدياد، فقد كانوا هم أنفسهم ليبراليين، ولايزالون يمثلون الجانب الأكثر عطفا وحنانا وتقدما بين المكيين يحظى آل- عون بشعبية كبيرة فى الصحراء حيث يشيع التسامح؛ ونظرا لأن آل- عون لا يتطرق الشك إلى أصوليتهم، فهم يظهرون دوما روح التسامح مع الشيعة هم والمبتدعين الآخرين، الذين تتصل بهم السلطة الشريفية كل عام فى موسم الحج، وآل- عون على وفاق حتى مع العنصر الأوروبى الموجود فى جدة. وطوال بقاء آل- عون فى ذلك المنصب، كان طابع العلاقات ودياً بين الهند ومكة.

كان عبد الله بن عون، ولد محمد، الذى خلف والده فى العام ١٨٥٨ الميلادى، وحكم مدة ثمانية عشر عاما، رجلا صاحب مقدرة عالية، ويقال إنه

كانت لديه أفكار متقدمة من بينها فتح الحجاز أمام التجارة الأوروبية، لم يكن أخوه، الذى أصبح كبيراً للأشراف فى العام ١٨٧٧، أقل منه ليبرالية، وعلى الرغم من أنه كان أقل مقدرة من عبد الله، فإنه يوصف بأنه عطوف وحنون وفضول، ومن المؤكد، أن الرجل كان محبوبا من كل سكان الحجاز اللهم باستثناء أعدائه الوراثيين من الزيود، ظل الحال على هذا المنوال، إلى حد أن العرب، فى العام التالى للحرب الروسية الوخيمة، عندما كانت إسطنبول على وشك التفسخ، وأنا لم أستطع التأكد من أن الحسين نفسه كان منشغلا بمشروع أصدقائه الطموح، نظرا لأنه كان مسلما بالدرجة الأولى، وأن لقب الخليفة لم يكن ليضيف إليه مكانة أكبر من المكانة التى هو عليها، لكن المؤكد أن شعبية الرجل تسببت فى استياء كبير فى إسطنبول، الأمر الذى جعل السلطان عبد الحميد عاجزا عن عزله، يزاد عل ذلك أن الحسين كان كارها أيضاً للحزب الرجعى، عندما قرر الشجار مع إنجلترا فى نهاية المطاف. لأن الحسين هو وأسرته أصروا على المحافظة على العلاقات الودية مع الحكومة البريطانية فى جميع الأحوال عندما كانت مصالح رعاياها الهنود تصبح موضع مساءلة أثناء الحج، ولهذا السبب وحده، يبدو أن وفاته كانت تقررت لإفساح الطريق أمام عميل لسياسة جديدة.

كانت جدة فى اليوم الرابع عشر من شهر مارس من العام ١٨٨٠ على موعد مع موكب مهيب، كان موسم الحج قد انتهى، وكان ميناء جدة مكتظا بالحجاج، وينتظر كبير الأشراف، سلف النبى وممثل بيت (سيدنا) على (رضى الله عنه) ، لكى يبارك بحضوره آخر الدعاة المسافرين، لما كان الحسين قد تحرك من مكة اثناء الليل هو وحاشيته، فقد ظهروا مع طلوع الفجر عند أسوار المدينة، وعندما طلع النهار، ركب الحسين فرسا بيضاء اللون جئ بها من نجد، وكان يسير أمامه حرسه المرافق له من عرب قريش هم وحرس شرف السلطان، وتجول الحسين فى المدينة، شوارع جدة ضيقة ومتعرجة، والطريق من بوابة جدة إلى منزل عمر نصيف، وكيله، والذى اعتاد النزول عنده، يغص بالمتدينين، الذين كانوا يناضلون من أجل الحظو بتقبيل قدميه وطرف عباءته العربية، وعندما أصبح على مقربة من المكان، اندفع شحاذ عجوز متقدما إلى الأمام وراح يسأل الله (سبحانه وتعالى) بصوت

عال، وهذا طلب لايمكن إنكاره، وعندما استدار الشريف إلى القريبين منه ليأمرهم بالتوزيع من الكيس الذى يحملونه معهم لهذا الأمر، ارتفع العجوز فوقه، واستل سكينا رثا ( ragged هذا هو الوصف الذى قيل لى) وطعن الحسين فى بطنه، فى بداية الأمر، لم يعرف أولئك الذين شاهدوا هذا العمل، ماذا حدث، نظرا لأن الحسين لم يسقط من فوق الحصان أو ينزل عنه، وواصل سيره إلى المنزل دون أن ينطق بكلمة واحدة، وعند المنزل انزلوه من فوق الفرس، ونقلوه إلى غرفة علوية، وأسلم الروح خلال بضع ساعات.

قام القريبون منه، فى ذلك الوقت، بالإمساك بذلك العجوز، وأوسعوه ضربا بالهراوات، وقام بعض المرافقين باقتياده إلى بيت الحراسة، وعندما ذاع خبر ما حدث، حدثت هبَّة كبيرة فى جدة، وراح الجميع شيبا وشبابا، نساء وأطفالا، ومواطنين وغرباء يبكون جميعا، سمعت المشهد وهو يوصف من شخص من الأشخاص بأنه كان مؤثرا بشكل يعز على الوصف، صرخت النساء ورحن يولولن الليل بطوله، كان الحسين محبوبا، واغتيل وهو فى زهرة رجولته وشبابه.

يبدوا أن هذا العمل لم يحظ بتحريات وتحقيقات قضائية ومُرْضية، على الرغم من عقد مجلس رسمى فى مكة، التى جرى نقل القاتل إليها على الفور، وجرى إعدامه على الملأ فى اليوم الرابع، أما من يكون هذا القاتل وما هى كنيته فهذا أمر يصعب تحديده، قالت النشرة التركية التى صدرت فى حق ذلك الحادث: إن القاتل متطرف فارسى، لكن أحدا لم يعترف بأنه يعرف ذلك القاتل، كما أن أولئك الذين تحدثوا إليه عندما كان فى الحجز يؤكدون أنه كان أفغانيا وسنيا. يبدوا أن هذا القاتل أعطى ست روايات متضاربة عن نفسه: لكن الانطباع العام يقول: إن الرجل جاء من تركيا، وأنه كان واحداً من الدراويش.هذا القاتل لم يأت مع الحج، لكنه جرت ملاحظته وهو يشحذ فى مكة قبل الحج بنحو عشرة أيام، عندما طلب صدقة من الشريف وحصل على ما يريد، وسبق أيضاً العثور عليه مرات عدة فى المسار الذى يسلكه الحسين، لا أحد فى جدة يقول إن الحاكم التركى كان على علم بهذه الجريمة، كان الحاكم التركى على علاقه طيبة، على المستوى الشخصى، مع الحسين، وانفضح أمره منذ وقوع ذلك الحادث؛ لكن الجميع يشيرون إلى المستشارين

غير الرسميين فى إسطنبول وإلى السلطان نفسه بأنه مدبر ذلك الحادث، معروف أن عبد الحميد يستخدم الدراويش بصورة مستمرة، جواسيس له، وعملاء خصوصيين، ويقول أحد المتظاهرين بمعرفة بواطن الأمور: إن ذلك العجوز تلقى مهمته من الخليفة مباشرة، وأنا لا أحاول القطع فى هذه المسألة، لكنى أرى أن المسؤلية تقع على عاتق أولئك الذين يحاولون إنكارها.

اغتيال المنافس الخطير أو الرئيس القوى، هو الحيلة الأزلية التى يلجأ إليها السلاطين العثمانيون، ومن الصعب عليهم حاليا الخلاص من الرأى العام، وشيخ الدراويش قوى تماما بأتباعه المتشددين؛ وشيخ الدراويش هذا خادم للسلطان؛ ومجرد كلمة واحدة منه تضمن وبلا أدنى شك خدمات عشرين من هؤلاء الأتباع، هناك ظرف واحد يشير بإصبع الاتهام إلى إسطنبول، معروف أن خلف الحسين فى جدة، والذى كان من قبل مقيما فى إسطنبول، أرسل أوامر إلى عميله فى جدة كيما يستعد لعودته ككبير للأشراف، وكانت تلك الأوامر قبل شهرين من وفاة الحسين، الذى كان شابا؛ كما أن هذا الخلف، كان قد أرسل القسم الأكبر من أمتعته إلى جدة انتظارا لما سيحدث.

جاءت آخر كلمات القاتل مثيرة للعجب، فقد بدت عليه السعادة التامة بعد أن فعل فعلته، ولم يأكل أو يشرب، لكنه استعد للعالم الآخر، روى هذا القاتل، قبل تنفيذ حكم الإعدام فيه، قصة قال" كان هناك فى يوم من الأيام فيل، ذلك الحيوان النبيل العظيم، وأرسل الله برغش [١]، الذى هو أصغر المخلوقات- لدغ البرغش الفيل فى خرطومه ومات الفيل، الله كريم".

كان خلف الحسين، ذلك الرجل الذى أفسح له المجال، والذى عرف قبلا أن المجال سيفسح له، هو لا أحد غير عبد المطلب العجوز الذى جرى عزله مرتين وولد غالب الوهابى، أقسى المتشددين من بنى زيد.

ليس لدى متسع هنا لوصف تأثير ذلك الانقلاب على الجانب السياسى فى الحجاز، السلطة الآن فى يد الطرف الرجعى فى مكة مثلما هى فى إسطنبول، هذا عبد المطلب تؤازره الأسلحة البيضاء التركية، وهذه أسرة عون

---

١- حشرة من الحشرات (المترجم)



هى والليبراليون يعانون من الاضطهاد فى الوقت الذى أصبح فيه البلاط الشريفى، الذى تربطه علاقه شديدة الود بإنجلترا، محطا للاستياء الهندى، يكفى أن أوضح فى الوقت الراهن أن فى كل شئ مضطرب خارج مكة، موجودا جنبا إلى جنب مع السلطان، وقد يستفاد الحجاز عنصر قوة روحية فى يوم من الأيام، فى توفير الخلف الطبيعى الذى يريده من هذا العنصر السلطان، وإذا لم تظهر شخصية جديدة فى الأفق السياسى للإسلام عندما تموت الإمبراطورية العثمانية، وتكون قيادية بشكل يجذب إليها ولاء العالم الإسلامى ( والتى لم تظهر حتى الآن أية علامة من علاماتها)، فإن أسرة الأشراف فى مكة على يقين من أن المسلمين سوف يتطلعون إلى ممثل لرئاستهم العليا، وممثل أيضاً للخلافة التى هم بحاجة إليها.

نقل مقر القوة الروحية من إسطنبول إلى مكة يمكن أن يكون عمليه سهلة وطبيعية، ولن يؤدى إلى حدوث اضطراب فى الأفكار السائدة بين السكان؛ إضافة إلى أن هذا النقل سوف يؤدى إلى التواؤم مع موروثات العلماء، وإذا ما انقرضت إسطنبول ستصبح مكة أو المدينة بحكم الضرورة المقر الشرعى لأهل العقد، وقد يجرى الاعتراف بها فى سهولة ويسر مركزا للقوة الروحية. يتفق كل أولئك الذين تحدثت معهم حول هذا الموضوع أن الحل سيكون مقبولا من كل مدارس العلماء باستثناء المدارس التركية الخاصة، واقع الأمر أن" مكة، مقر الخلافة"، وهى فى حدود تقديرى، صحيحة اليوم عند المسلمين: وليست مكة أيضاً واحدة من المدن التى يرجح لها أن تفقد قوتها فى المستقبل. ومكة شأنها شأن الصيحة التى تقول: "روما هى العاصمة". لها نفوذ قوى على خيال كل من يشار بها إليهم، وإذا ما أضفنا إلى ذلك" خلافة من قريش". فإن الفكرة لا يمكن للعرب مقاومتها فى أضعف الأحوال، وكيف يمكن أن يكون الحال على النقيض من ذلك إذا ما عدنا إلى التاريخ؟

وأنا من جانبى، وعلى الرغم من أننى لا أدعى تحديد المسار الذى ستسير فيه الأحداث، أنظر إلى فكرة الصورة إلى مكة هى الأرجح من بين كل الاحتمالات الأخرى التى استعرضناها، كما أن مكة تعطى أفضل الآمال فى حياة روحية جديدة للإسلام، صحيح أن الخليفة فى مكة سيكون أقل أهمية من الناحية السياسية عن الخليفة فى البسفور؛ لكنه من الناحية الدينية

سيكون راسخ القدمين، وسوف يقوم الحج الذى يأتى من كل أصقاع الدنيا، بزيارته كل عام، وبدلا من أن يكون ممثلا لمجرد مدرسة مذهبية إقليمية، سيصبح عاصمة حقيقية كبيرة لكل المدارس وكل الأمم.

يزاد على ذلك أن العنصر العربى فى الإسلام سوف يساند هذا التعيين، ويجب ألا يغيب عنا أن الجزيرة العربية تمتد من مراكش (المغرب) إلى بوشاير؛ وسوف ينطبق الحال نفسه على العنصر الهندى وعنصر جزيرة الملاوى.

واقع الأمر أن ذلك العنصر سيمتد إلى العناصر كلها باستثناء العنصر التركى الذى تقل أهميته يوما بعد يوم، لقد سمعت الناس يؤكدون أن إقامة خلافة قرشية فى مكة سوف تذهب إلى حد إجراء نوع من التصالح بين المنشقين، والأباضيين، والشيعة وبين الأصوليين؛ وأنا لدى من الأسباب ما يجعلنى أعتقد أن ذلك سوف يؤثر أيضاً فى ثلاثة أرباع الحركة الوهابية، الذين هم من الليبراليين، وسوف تكون هذه الخلافة مقبولة أيضاً من الشيعة باعتبارهم من سلالة على؛ وعند عرب عُمَان واليمن سيكون الخليفة القرشى أقل مقتا من خليفة من بنى عثمان، ظهرت فى السنوات الأخيرة مؤشرات تدل على انخفاض مستوى العداوة بين هؤلاء المنشقين وأعدائهم القدامى، أهل السنة، وتغير من هذا القبيل فى ظروف الخلافة قد تنتج عنه مصالحة كاملة بين كل الأطراف، وقد يعجز المسلمون عن مقاتلة بعضهم البعض مثلما حدث فى الماضى؛ وأنا أعرف أن مسألة إعادة توحيد المذاهب إنما هى فكرة تدور فى أذهان المفكرين المتقدمين، أخيرا، ستكون الخلافة فى الجزيرة العربية متحررة من كابوس الفلسفة المذهبية التركية، ومن وصمة البذاءة الأخلاقية التركية، وسيكون أمامها متسع أكبر لاحتياجات الإسلام الأهم، وهى الإصلاح الأخلاقى.

وأنا أؤكد أنه ليس من قبيل الخيال الجامح الافتراضى، أنه فى حال حدوث كارثة كبيرة فى إسطنبول، قد ينعقد مجلس العلماء فى مكة، ويقوم باختيار خليفة طبقا لسوابق الشرعية فى الأيام القديمة، والذى لا شك فيه أن مجلسا من هذا القبيل يمكن أن يشهد بعض الدسائس من قبل الأمراء، ومشاجرات بين أتباع المدارس المذهبية المختلفة، واللجوء إلى التطرف

والاتهام بالكفر، وسوف يلعب المال دوره هناك، كما هو الحال فى الأماكن الأخرى، وقد تهدر الدماء أيضا، لكن كل من يعرفون تاريخ الكنيسة المسيحية فى القرن الخامس عشر، والذين يعرفون أيضاً مجمعات رؤساء الطوائف الدينية المسيحية، التى سبقت انعقاد مجلس بازل، لابد أن يعترفوا بأن هذه الأمور المصاحبة التى من قبيل الدس والتآمر والفساد لا تعد حاجزا أمام حل المصاعب الدينية حلا شرعيا.. ومعروف، أولا وقبل كل شئ، أن التنافس بين البابوات popes والباباوات المعارضين هو الذى عجل بالإصلاح الكاثوليكى.

# الفصل الرابع

# الإصلاح الإسلامى

**أحاول هنا وأنا شاك تماماً فى قدرتى على أن أكون عادلاً ومنصفاً فى التعامل مع موضوع فى غاية الصعوبة، وهذا الموضوع هو بمثابة السؤال الذى تعتمد عليه الأسئلة الأخرى فى واقع الأمر: هل هناك احتمال إحداث شئ شبيه بالإصلاح العام فى حياة الإسلام السياسية والأخلاقية؟**

من الواضح أننا إذا لم نجب عن هذا السؤال بالإثبات فإن التغييرات التى سبق أن حددناها سوف تؤثر تأثيراً كبيراً على حظوظ ومصائر الإسلام فى نهاية المطاف، الشئ نفسه ينطبق على إيجاد حل للطريق الشرعى المسدود الذى وصل إليه الإسلام مع الخلافة العثمانية، وكذلك نقل عاصمة الإسلام الكبرى إلى مركز جديد، وكذلك انتصار سلاح الإسلام، إن أمكن أن يكون له سلاح فى إفريقيا أو الهند، هذه الأمور بحد ذاتها ممكن أن تؤخر تحلل الإسلام، وقد تعجل هذه الأمور أيضاً فى وقف انتشار الإسلام، الإسلام إذا كان يعتمد على السيف فقط، فإنه يجب أن يموت بالسيف أيضاً فى نهاية المطاف، والسبب فى ذلك أن قوات الإسلام، على الرغم من ضخامتها فهى بلا ترابط طبيعى مادى،

لأن هذه القوات مبعثرة على نطاق واسع على سطح قارات ثلاث ومقسمة ومنعزلة عن بعضها بعقبات كئود من البحار والصحراوات؛ يزاد على ذلك أن العدو الذى يتعين على الإسلام مواجهته ذكى وقوى أيضاً، ولن يترك الإسلام يذوق طعم الراحة، وما يسمى حالياً " تقدم العالم " يطوق الإسلام بسفنه وبتجارته وفوق ذلك كله بفكره المطبوع الذى بدأ الإسلام يقرؤه، ولا يرجع فى المستقبل التأثير فى الإسلام بما هو أقل من ذلك، كل عام يمر على الإسلام يحمله بعيداً عن إمكانية عزله، ويفرض عليه معارف جديدة، ليس فقط لأعدائه القدامى، الفرنجة والروس Muscovite، بل والألمان، والصينيين، والأمريكان، الذين يتعين على الإسلام أخذ كل منهم بعين الاعتبار، والإسلام إذا لم يجر تحجيمه عن طريق هذه السلطات Influnces المؤثرة فإنه سيتحتم عليه استعمال أسلحة أخرى غير أسلحة اللحم البشرى، ويواجه الغزو الفكرى لحدوده بذكاء مماثل، وبغير ذلك لن يكون لدى الإسلام ما يتطلع إليه، سوى التحلل التدريجى على المستويين الروحى والسياسى، يتعين أن تتحول سياسة الإسلام شيئاً فشيئاً إلى حرف ميت، وتتحول خلافته إلى طراز من طرز الحياة القديمة البائدة، وتتحول عقيدته إلى مجرد رأى، وعندها يمكن أن يتوقف بصورة تدريجية وجود الإسلام كقوة أخلاقية مسيطرة فى العالم.

وأنا عندما أعبر عن قناعتى بأن الإسلام ليس مقدر له الموت فى لحظة، أرانى أسير على العكس مما هو سائد بين إخوانى المواطنين، أنا أعلم أن الرأى السائد بين صفوة المؤهلين هو تثقيف وإبلاغ الجمهور أن الإسلام بحكم تكوينه غير قابل للتغيير، وتأسيساً على ذلك غير قابل للحياة التقدمية أو حتى فى مواجهة العناصر المعادية للحياة المطولة على الإطلاق(*)، وأنا لم أنس تكرار فشل المحاولات التى جرت فى تركيا خلال السنوات الخمسين الأخيرة من أجل كسب التأييد الدينى لمختلف التجديدات الشرعية الصادرة بمرسوم من السلاطين، الواحد بعد الآخر تنفيذاً لرغبات أوروبا، ولم أنس أيضاً ذلك المصير الذى آل إليه أولئك الذين كانوا يحبذون التغيير ويدافعون عنه. وأنا أعلم أيضاً من خلال القواعد المدونة والقواعد الشفاهية عند الأصوليين أن الإسلام لا يمكن أن يتحرك، وأنا على الرغم من ذلك أجيب بكل ثقة، وعلى طريقة جاليليو عندما قال " إنها تتحرك ".

---

★ هذا الاعتقاد الفاسد كان سائدًا بين فئة من المفكرين الغربيين ، وهو على العكس تماما من جوهر الإسلام وحقيقته التى توصل اليها بلنت كغيره من علماء الغرب المنصفين.

الواقع أن الإسلام يتحرك بالفعل، لقد طرأ على الفكر الإسلامى تغيير هائل بعد أن دون مجتهده الشرعى الأخير رأيه الشرعى الأخير؛ وما صدق على الإسلام الأصولى قبل خمسين عاماً، بل وحتى عشرين عاماً لم يعد صحيحاً الآن، وأوركهارت Urquhart، أول مفسر للإسلام عند الإنجليز، عندما بدأ كتابته لم تكن المدرسة الحنفية فى إسطنبول قد بدأت مساءلتها، وكان أوركهارت لديه كل المبررات التى تجعله يقتبس عن تلك المدرسة باعتبارها القاعدة الوحيدة المعترف بها من قبل جمهور الإسلام الأصولى، ولم يكن هناك وجود فى أى مكان لشئ اسمه الحزب الدينى الليبرالى، وكان كل من يكسرون الشريعة باسم الإصلاح السياسى يطلق عليهم اسم مكسرى القانون ولا شئ أكثر من ذلك، كل الناس الطيبين كانوا أعداء لأولئك المكسرين، وإذا ما تكلم أحد عن الحرية كانوا يفهمونه على أن لديه ترخيصاً بما يقول، لم يكن متصورا فى ذلك الوقت أن الشريعة يمكن إعادة تنظيمها بطريقة شرعية، ومع ذلك فإن قسما كبيرا الآن، خاصة فى السنوات العشر الأخيرة، من الأتقياء والمتخصصين فى الشريعة وضعوا أنفسهم على جانب الرأى الليبرالى، ويجرى القيام بمحاولات جادة للتوفيق بين الرغبة فى التحسين والولاء غير الهادئ للإسلام.

هذا يعنى أن حزباً ليبرالياً حقيقياً قد تأسس، ويضم فى صفوفه ليس فقط متآمرين ودساسين سياسيين من النوع المعروف لأوروبا والمتمثل فى مدحت باشا، بل أناساً أتقياء تماماً، يودون إدخال إصلاحات أخلاقية وإصلاحات سياسية إلى ممارسات المسلمين، هؤلاء المتقون يضعون فى برنامجهم مسألة إضفاء المزيد من التقشف على الممارسات الدينية فى الوقت الذى يجرى فيه توسيع القاعدة الدينية، بغية تحرير ذكاء المؤمنين من القيود المدرسية، وأن يجرى فى الوقت ذاته فرض القانون القرآنى الأخلاقى الأعلى عن طريق المزيد من القوة والصرامة، والذى جرى انتهاكه بشكل غريب منذ زمن طويل، هؤلاء الأتقياء يشبهون إلى حد كبير " مصلحى المسيحية "؛ يضاف إلى ذلك أن بعض الظروف التى أدت إلى ظهورهم تشبه إلى حد كبير تلك الظروف التى واجهتها أوروبا فى القرن الخامس عشر إلى الحد الذى يصبح مستحيلا معه قيامنا بعمل مقارنة ذهنية، توصلنا إلى قناعة مفادها أن الإسلام أيضاً سوف يجد إصلاحه بنفسه.

تمثل عاملا الإصلاح الدينى الرئيسيان فى أوروبا، فى بؤس الفقراء والانتشار العام للمعرفة والتنوير، ويصعب عبر هذا البعد الزمنى الطويل تصور مدى حالة البؤس العام التى كان عليها حال الفلاحين الأوروبيين، فى ذلك الوقت، أى أثناء حكم لويس الحادى عشر وحال الفلاحين الفرنسيين وحال الفلاحين الألمان فى عهد فريدريك الثالث، الحروب المستمرة والمجاعات المستمرة أيضاً، وعدم الشعور بالأمن فى ظروف الحياة، واعتماد الأغلبية الساحقة من الفقراء على رعاة جشعين وطماعين واستشراء الفساد والرذيلة فى الطبقات الحاكمة، وعجز المحكومين عن الحصول على العدل، وفوق ذلك كله القبول المذل للدين الذى كان ينبغى أن يكون حامياً لهؤلاء الفقراء من المخالفات السياسية غير القانونية، التى تقع كل يوم، أدت هذه الأشياء كلها إلى تحريك قلوب الرجال وجعلتهم يرفعون أصواتهم معترضين على النظام الكنسى القائم، وجعلتهم يميلون إلى الإصلاح، على الجانب الآخر وكما نعرف جميعا فقد أدى اختراع الطباعة إلى حفز الناس على القراءة، كما حفزهم اختراع العالم الجديد على السفر والترحال، أضف إلى ذلك أن الأتراك العثمانيين كانوا عنصر نضال جديدا مع العالم الخارجى، كما أدى ذلك إلى خلق مخاوف جديدة، والمؤكد أن النصرانية فى ذلك الوقت كانت تعانى من خطر الفناء السياسى، أو أنها تصورت أو تخيلت نفسها فى هذا الوضع، يزاد على ذلك أن مخاوف الأشخاص المتدينين فى وسط أوروبا أثيرت على أثر الوعى الشديد بالخطر المحدق الناجم عن الفكرة التى مفادها أن ذلك ربما كان عادية من عاديات الدهر التى ساقها الله (سبحانه وتعالى) على البشر.

لن أحمل المقارنة أو القياس بعد ذلك بأكثر مما يحتمل لكنى أود القول: إن أسباباً شبيهة أيضاً إلى حد ما بهذه الأسباب موجودة وتعمل عملها بين المسلمين فى الدول الإسلامية التى لا تزال مستقلة، إن هذه الأسباب تعمل عملها فى الاتجاه نفسه إلى حد ما، الفلاحون المسلمون وبخاصة فلاحو الإمبراطورية العثمانية، أناس بائسون وهم على يقين من أنهم كذلك، وهم يتطلعون بلا جدوى إلى دينهم علّة يحميهم، مثلما حدث من قبل من حكامهم، هؤلاء الفلاحون عالمهم يموج بالفساد حاليا - وأن القانون يجرى تكسيره يوميا من قبل أولئك الذين يتعين عليهم فرضه والعمل به؛ ويرون أيضاً أن المخالفات

التى يرتكبها أولئك الذين يحطمونهم يجرى التغاضى عنها من قبل هيئة العلماء الذين يتسترون عليهم؛ ولاحظوا أيضاً أنه على الرغم من كل الأهداف العملية للعدالة والرحمة، فإن الدين تنازل عن مطالبته بالتوجيه والحكم، عرف هؤلاء الفلاحون من خلال اختلاطهم بالغرباء، وعرفوا أيضاً من خلال الصحف التى يقبلون على قراءتها بشغف فى المدن، أن الأمر لم يكن دوما على هذا المنوال، وعرفوا أيضاً أن العبودية ليست هى الحال الطبيعى للإنسان، وعرفوا أيضاً أن الموافقة على الشر ليست موقفا صحيحا من مواقف الدين، وهم يرون فى كل مايعانونه إساءة صارخة إلى الإسلام وقواعده، وقد اندهشت عندما سمعت الفلاحين المصريين فى العام الماضى وهم يعزون الضرائب التى خففت عليهم إلى حاكمهم الجديد " رجل يخشى الله ويخافه ".

صدمت الطبقات المتعلمة، وانزعجت فى الوقت ذاته بالتدهور السياسى الذى طرأ على الإسلام والأخطار الكبيرة التى كانت تعترضه: وقد عزا المتعلمون ذلك كله إلى الحماقة التى لا تعرف حدودا والفساد الذى استشرى فى كل طبقات المجتمع بسبب الحكم الإسطنبولى الطويل، حتى فيما وراء حدود إسطنبول الإقليمية، يشكو هؤلاء المتعلمون حاليا من تضليلهم، ويعتقدون أن انتقام السماء سيحل بهم إذا لم يعدلوا من أساليبهم، وأنا أقول مع كل هذا إن هناك شيئا من تلك الروح التى حرضت المسيحيين فى يوم من الأيام على دراسة القواعد التى ترتكز عليها العقيدة، ودراسة الطبيعة الحقيقية لذلك القانون الذى تسامح مع فساد كبير من هذا القبيل.

ويجب عدم التسليم هنا بأن أى جزء من ذلك السخط يمكن أن يعزى إلى ضياع العقيدة بالشكل الذى نشهده الآن فيما بيننا، من الصعب القول: إن الإسلام يكشف حتى ولو هنة صغيرة، المسلم فى أيامنا هذه وبغض النظر عن مكانته فى الحياة يؤمن إيماناً مطلقاً بعقيدته مثلما فعل المسيحى فى الفترة التى أشرنا إليها، وإذا ما استثنينا وجود مرتد زائف هنا أو هناك، ومن منطلق أن ذلك أمر جد نادر لا يوجد أى شئ من النوع الذى يمكن أن نطلق عليه المسلم الشاك، أو بالأحرى المسلم الذى لا يؤمن برسالة محمد (صلى الله عليه وسلم) السماوية، قد يهمل المسلم كل مهام مهنته، وقد يكون مذنبا فى كل الجرائم، وقد يكون مكسراً للقوانين كلها - قد يكون أسوأ الرجال وأشدهم ضلالاً، أو قد يكون من ناحية أخرى قد

تبنى لغة لأوروبا، أو نغمة الفكر الأوروبى إلى حد ما، وهذا أمر جد نادر تماماً، قد يكون المسلم أيضاً مستهذئا أو مجدفا؛ - مع كل ذلك أنا أتخيل أن المسلم يؤمن إيماناً راسخاً أن القرآن هو كتاب الحق، وأنه سيكون فى يوم القيامة بصحبة أولئك الذين نجوا من جهنم بسبب تصديقهم وإيمانهم بالله ورسوله.

استمعت إلى قصص غريبة من أشخاص يؤيدون هذا الكلام وأنا لا أشك مطلقا فى هؤلاء الأشخاص، وسمعت أيضاً قصصاً عن أناس معروفين فى الدنيا كلها، وهذا واحد ممن كانوا مع فؤاد باشا أشد الدبلوماسيين العثمانيين «تأوربا»، فى أيامه الأخيرة فى نيس Nice، يؤكد لى أن فؤاد باشا كان يمضى وقته كله فى تلاوة القرآن وحفظه عن ظهر قلب، شخص آخر كانوا يطلقون عليه اسم فولتير الإسلام، كان يؤدى صلاته وركوعه وسجوده بصورة منتظمة كلما وجد نفسه منفرداً؛ وهذا الشخص اشتهر بسوء سمعته لكثرة شكه، مات بسبب الجنون الدينى، يزاد على ذلك أن كل الذين اختلطوا كثيرا بالمسلمين لابد أن يكونوا قد فوجئوا بالرضوخ الكامل الذى يتحمل به الرجال غير المتدينين الطائشين أوجاع الحياة، والجلد والصبر الذى يواجهون به نهايتهم - فوجئ أيضاً بتلك النسبة الكبيرة من الرجال الذين يصلون ويصومون، وكيف أنهم يقومون بمخاطرة وتضحية كبيرتين عندما يقومون بأداء فريضة الحج، وفوجئوا أيضاً بغياب الطابع الدنيوى بشكل عام، والحقيقة التى مفادها أن الإقرار عن طريق الاعتذار كما هو الحال عندنا، وأن هذا الإقرار بالدين لا يلقى احتقاراً أو ازدراء فى أى مجتمع من المجتمعات، ربما لا تكون هذه الأشياء بحد ذاتها دليلا على العقيدة. نظرا لأن المنافقين يلقون جزاءهم فى كل مكان لكن حقيقة النفاق تثبت أن الروح العامة إنما هى روح عقيدة ثابتة وراسخة.

صحيح أن المؤمنين الحقيقيين نادرون بلا أدنى شك، لكننا عندما نعثر عليهم يتضح لنا أن عقيدتهم تسود حياتهم بصورة صارمة مثلما يحدث بين المؤمنين الحقيقيين عندما يكونون بيننا، ربما كان من الصعب فى أوروبا تحديد رجال - وأنا هنا لا أتكلم عن أناس كنسيين أو عن أشخاص ينتمون إلى طبقات دينية - من هذا العالم قادرين على قيادة الحيوات الدينية شديدة الشفافية، وعلى نحو أفضل مما يفعله المسلمون المتدينون المنتمون إلى الطبقة الأفضل، والذين يمكن العثور عليهم فى أية مدينة من مدن الشرق، أو الرجال

الذين يحذون حذو الأنموذج الذى تضعه عقيدتهم نصب أعينهم، الشك فى إخلاص، وإلى حد ما فى عفة وطهارة هؤلاء الأشخاص يعنى الشك فى الدين كله، وعلى أية حال هناك شئ ذائع مفاده أن العقيدة المكية لا تزال هى العقيدة الحية التى يعتنقها عدد هائل من الجنس البشرى، بل إنها هى القاعدة التى تقوم عليها حياته، وأن هذه العقيدة هى التى تفسر وجودهم، ليس هناك الآن أى دليل على لن هذه العقيدة لم تعد بعد عقيدة عامرة بالحيوية.

ليس من السهل على الذهن الإنجليزى الصريح، ونحن ندرس مستقبل الإسلام أن يهرب من الاعتراف الذى مفاده أنه على الرغم من أهداف الجدل كلها، فإن الدين الإسلامى يجب ألا يعامل على أنه خرافة، وإنما دين حقيقى من منطلق أنه شكل من أشكال العبادة لذلك الإله الواحد الحقيقى، الذى لا تزال أوروبا تؤمن به، على الرغم من منطقها الحديث، من هنا يكون من حق الدين الإسلامى الحصول على الشرف والفضل الذى ننسبه للأديان الحقيقية طويلة الحيوية؛ وإذا كنا نحن نعترف ونقر بالحيوية الأبدية للمسيحية، فلربما أقنعنا ذلك بتصديق الحقيقة التى مفادها أن الإسلام أيضاً وليس أى شئ آخر يثبت رسوخه فى الذهن العربى.

لم يكن الإسلام فى أبسط صوره سوى تجديد توكيدى لعقيدة الساميين الأزلية، وطالما أنه لا يزال هناك عرق سام باقٍ فى هذا العالم فإن الوحى المكى سيظل بمثابة الرابطة الضرورية فى موروث المسلمين، يزاد على ذلك أن الحجج العلمية الحديثة لن تؤثر على عقيدة الجزيرة العربية التى مفادها أن الله (سبحانه وتعالى) تكلم فى أزمان مختلفة وفى أماكن مختلفة إلى الإنسان على لسان الأنبياء؛ وأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) سيكون هو دوما الأبرز من بين هؤلاء الأنبياء لأنه هو أكثر الأنبياء أهلية بشكل واضح، يزاد على ذلك أن القانون الإسلامى - وأنا هنا لا أتكلم عن الشريعة كما هى معروفة لنا الآن - سيظل قانونا للمسلمين؛ لأنه عبارة عن تجسيد لعاداتهم وأعرافهم وتقاليدهم، كما أن التنظيم السياسى للإسلام هو بنفس تنظيم المسلمين، لأن هذا التنظيم السياسى مؤسس على ممارسة معاصرة لتاريخ المسلمين.

أخيراً الفكر السامى يشبه الخميرة القوية التى تسود عقول الأمم فى كل مكان - على الرغم من أنهم قد يكونون غرباء عن ذلك الفكر - تلك الأمم التى سبق لها

الاعتراف بذلك الفكر فى يوم من الأيام؛ وبالتالى لا يمكن إبعاد هذا الفكر أو نبذه ونحن نرى فى أوروبا بل وفى إنجلترا أيضاً مناطق لم يسبق لها مطلقاً الاتصال بالجزيرة العربية، هذه الأراضى لا تعرف أيضاً مدى تأثير الفكر العربى الذى وصل إلى شواطئنا من خلال المصفاة الفرنسية والإسبانية، على أفكارنا. فكرة الفروسية Chivalry، فكرة بدوية خالصة، ولا يمكن أن تنقرض من بيننا. الروايات التى تدور حول المغامرات والمخاطرات الخيالية Romance، التى تعد نتاجاً للجزيرة العربية فى فترة ما قبل الإسلام، لا تزال تشكل دافعا مشتركاً فى أعمالنا، ولا يزال شعراؤنا يتغنون بهذه الرومانسية Romance، الأمر الذى يتسبب فى إهمال النماذج والأنماط الكلاسيكية، فى شعر اليمن المقفى. جماهير شعبنا لا تزال تستقبل قبلة رب إبراهيم (عليه السلام) ولا تزال تتوجه صوب الشرق إلى الأرض التى تشكل أختا غير شقيقة للجزيرة العربية.

وإذا كنا نحن الذين نعد مجرد أجانب نجد أن من المستحيل علينا الهرب من ذلك النفوذ الفطن، فما بالك بالأعراق العربية الخالصة أو شبه العربية التى تشبعت بالإسلام، بجوهر الفكر العربى وخلاصته؟ من الذى سيحدد زمن قوة ذلك الفكر، ومن الذى سيقول إنه لا يمكن أن يجدد نفسه وحيويته؟ يقول كاتب إنجليزى شهير، والذى عرف أيضاً بأنه سياسى شهير " انشروا فكرا قويا، مثلما فعلتم من قبل من فوق جبل سيناء ومن قرى الجليل ومن صحراوات الجزيرة العربية ومن المحتمل أن تعيدوا تشكيل المؤسسات البشرية كلها، وتغيروا مبادئهم العملية، وتنفخوا روحا جديدة فى نطاق وجودهم ".

لكن ينبغى علىّ ألا أضلل وأغرق نفسى فى التعميمات أو أنسى أنى أكتب لإنجليز عمليين، وتوخيا للدقة أقول: إن الإسلام أمامه طريقان يحتمل أن يقوم بتجديد حياته الروحية من خلالهما، وأن الإسلام فى هذا التجديد سيسير على خطين فكريين واضحين، طبقا للظروف الخارجية - الخط الأول عنيف، لكنه ليس دائما. أما الخط الثانى فهو بمثابة الحل الحقيقى لقدر الإسلام ومصيره.

من بين المعتقدات الشائعة فى الإسلام - وهى شائعة أيضاً فى المذاهب كلها، الشيعة، الأباضية والسنة أيضاً - المعتقد الذى مفاده أنه فى أواخر أيام هذه الدنيا، وعندما يدب الضعف والوهن فى قوة من يعبدون الله (سبحانه وتعالى) وعندما يفسد إيمانهم سيجئ زعيم يعيد للمؤمنين الحقيقيين



أمجادهم، وسيبدأ ذلك الزعيم بتطهير الأرض من الظلم، ويحارب الطغاة حيثما يجدهم، المسلمين والكفار على حد سواء، وسيعلم الناس قانوناً كاملاً يكونون قد نسوه وسوف يحكم الإسلام بدلاً من الخليفة وأن هذا الشخص سيدعى المهدى Mohdy أو المرشد، يضيف بعض الناس إلى ذلك أن المهدى هذا سيظهر فجأة فى طرف قصى من أطراف الأرض، وأنه سوف يتجه إلى مكة وأن دماء المسلمين ستهدر فى كل مكان مثل الماء، وأن المهدى سيدخل مكة عندما تفيض الشوارع بالدماء، وهناك أحاديث كثيرة تؤيد مجئ ذلك المهدى ويقال إن هذه الأحاديث صحيحة على حد قول العلماء، من هنا فإن هذا الحديث يروى على عهدة عبد الله بن مسعود، وأنه سمع النبى (صلى الله عليه وسلم) يقول: " عندما لا يتبقى سوى يوم واحد من أيام الأرض سيطيل الله ذلك اليوم وسيرسل من بيتى رجلا يحمل اسمى واسم والدى (محمد بن عبد الله ) وسوف يطهر الأرض من الظلم ويملؤها عدلا "[1].

هذا الحديث سمعه أيضاً على بن أبى طالب صهر النبى (صلى الله عليه

---

١ - أصل هذا الحديث: عن عبد الله بن مسعود عن النبى (صلى الله عليه وسلم) قال: لو لم يبق من الدنيا إلا يوم - قال زائدة فى حديثه - لطوّل الله ذلك اليوم حتى يبعث الله رجلا من أمتى، أو من أهل بيتى يواطئ اسمه اسمى،اسم أبيه اسم أبى، قال صححه الترمذى، هذا حديث حسن صحيح.

وللحديث شاهد من رواية أبى هريرة وأخرجه أبو داوود فى سننه، كتاب المهدى ج٤ ص١٥١. وفى الترمذى فى سننه كتاب المهدى ج٤ ص١٥١، وفى الترمذى فى سننه كتاب الفتن ج٩ ص٧٤. قال الترمذى: هذا حديث حسن صحيح وذكره شيخ الإسلام بن تيمية فى منهاج السنة ج٤، ص٢١١ وأشار إلى صحته.

أما نسبة (المهدى) فالروايات الكثيرة تبين لنا أنه من ولد فاطمة البتول ابنة المصطفى (صلى الله عليه وسلم) ورضى الله عنها وعن أولادها.

- عن أم سلمة (رضى الله عنها) قالت: سمعت رسول الله (صلى الله عليه وسلم) يقول: المهدى عترتى من ولد فاطمة.

قال الخطابى: العترة: ولد الرجل من صلبه.

- وعن على بن أبى طالب قال: قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) المهدى منا، أهل البيت، يصلحه الله فى ليلة.

موجود فى كتاب المهدى: سنن أبى داود ج٤، ص٨٧٤ والحاكم فى مستدركه ج٤ ص٥٥٧ وصححه الألبانى فى صحيح الجامع ج٢ ص١٤٠.

- هذه الأخبار كلها تؤكد أن المهدى من ذرية رسول الله (صلى الله عليه وسلم) من ولد فاطمة الزهراء، وهذا ما عليه جماهير الأمة فلا يسوغ العدول عنه، ولا الالتفات إلى غيره من الأحاديث الضعيفة والموضوعة.

وقد ذكر ذلك الحافظ بن كثير فقال: فى المهدى هو محمد بن عبد الله العلوى الفاطمى الحسينى. (د. محمود عبد الوهاب رحمه).

وسلم)، وسمعه أيضاً حذيفة بن اليمان الذى يروى أن هذه النبوءة حدَّث بها محمد (صلى الله عليه وسلم) فى خطبة من خطب الجمعة، وفى المدينة المنورة، سلمان الفارسى وهو شاهد آخر يقول إنه ذهب إلى النبى (صلى الله عليه وسلم) بعد ذلك، ووقف أمامه وسأله " مَنْ مِنْ خلفك سيكون المهدى، يا رسول الله ؟" وأجابه النبى (صلى الله عليه وسلم) وهو يمد يده ناحية حفيده الحسين، "سيجئ من هذا الطفل ".

يزاد على ذلك أن هذا الاعتقاد العام وعلى الرغم من أنه لا يشكل عقيدة أساسية من عقائد إيمان المسلمين يشيع بين كل المسلمين؛ والشيعة يميلون دوما إلى المبالغة فيه ويزينونه ويؤكدون أن مهمة المهدى لن تكون مقصورة على التعليم والإرشاد وتنقية القانون (الشرع) وإنما سيثأر أيضاً لدم الأئمة الذى أهدر ظلما؛ ويؤيدون قولهم هذا بالاستشهاد بحديث على بن أبى طالب الذى حدث ولده الحسين به، والذى استشهد بعد ذلك فى كربلاء قال " أقسم لك ياولدى، أقسم بروحى وبذريتى وبكربلاء وبمسجدها أنه سيجئ يوم تصبغ فيه لحانا بالدم، وأقسم أن الله (سبحانه وتعالى) سيبعث بعد ذلك رجلا، المهدى ليقف فى مكاننا، سيداً للبشر، وهو الذى سيثأر لنا، لا وسيثأر لدمك أيضاً يا حسين، فاصبر لأن دم رجل واحد سيهدر دم ألف من الرجال: ولن يبقى على أولئك الذين عاونوا أعداءنا ".

يقول الشيعة أيضاً إن هذا المهدى لن يكون شخصية جديدة، لكنه يعيش بالفعل دماً ولحماً، وإنه ليس سوى الإمام الثانى عشر والأخير من أئمتهم، والذى ولد فى العام ١٢٦٠ الهجرى، والذى اسمه محمد بن الحسن أو القاسم، المهدى سيد الأمر وسيد الزمان؛ والذى اختفى من الدنيا عندما كان طفلا، محتفظاً بسلطته على الرغم من ذلك كله، وهم يتوقعون ظهور هذا المهدى عندما يبدأ الحكم التركى فى التحلل، وبعد أن ينتهى المهدى من مسألة الثأر، وبعد أن يقيم العدل سيحكم لمدة غير محدودة إلى أن يجئ عيسى Jesus بن مريم، والرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) ظهور ينبئ عن نهاية العالم [1].

١ - جرى لفت انتباهى فى كتاب "روهر باشر Rohrbacher المعنون "تاريخ الكنيسة" والمنشور فى العام ١٨٤٥ الميلادى، إلى نبوءة مصادفة شهيرة، مسيحية ومسلمة، جعلت المؤلف يحسب بصورة دقيقة وفى ضوء نبوءات العهد القديم، إلى أن وصل إلى نتيجة مفادها أن الإمبراطورية التركية سوف تسقط فى العام ١٨٨٢ الميلادى، والتاريخ المحدد لذلك حسب النبوءة الإسلامية، اوردته فى الفصل الاخير - وهو العام ١٣٠٠ من الهجرة.



من هنا ومن المحتمل تماماً أن يبرز من بين الهياج الدينى الذى نراه فى أفريقيا شخص معلناً عن نفسه أنه ذلك المهدى، ويترأس حركة نشطة للإصلاح، واقع الأمر أن اثنين من هذه الشخصيات ظهرا بالفعل أحدهما فى طرابلس وقد سمعت عنه كلاماً كثيراً منذ نحو عام، ويقال إنه الآن يتجه صوب المدافعين عن القيروان للانضمام إليهم، وقد ظهر الشخص الآخر مؤخراً فى السودان، سيطهر هذا الرجل الأرض من الظلم بقوة السيف، ويحطم المصادر كلها فيما عدا القرآن وسوف يسعى إلى تجديد المملكة السماوية على أساس من المقاتل الإسلامى، وسيكون ذلك تكراراً ولكن على نطاق أوسع للحركة الوهابية فى القرن الثامن عشر، ونظرا لأن هذه الحركة لها قواعد عملياتية كبيرة بين الجماهير الكبيرة المتشددة فى شمال أفريقيا فقد يحقق ذلك المهدى الكثير من النتائج المهمة.

المؤكد أن مثل هذا الرجل ودون ادعاء بأنه مرشد ملهم، وله مثل هذا الحماس والغيرة وبهذه الشخصية أن يفلح وسط الأزمة الحالية، فى إقناع العرب المالكيين Malekite بسهولة بالقيام بإصلاح ممارستهم الأخلاقية، إن كان ذلك ضرورياً للزهد والتقشف، وأن ذلك الإصلاح سيجعلهم يستعيدون صعود نجمهم فى السلاح، من هنا يصبح الإصلاح أمرا سهلا، إذا ما قام على هذا الأساس؛ لكن هذا الإصلاح قد يكون شبيها بما قام به الحوسيون Hussites والمنادون بتجديد العماد [1] فى أوروبا، وليس شبيها بالإصلاح الكنسى الحقيقى الذى جاء بعد هذه الطائفة، وبالتالى لن يكون كونياً أو دائماً.

سمعت ذات مرة واحداً من كبار العلماء يصف مؤهلات من يتعين عليه القيام بإصلاح من هذا القبيل:

قال: " إن الرجل الذى سيقوم بإقناعنا بالإصلاح يتحتم فى المقام الأول أن يجئ من أسرة معترف بها تماما، ويتحتم أن يكون أميرا أو شريفا أو قديسا بالوراثة، لأن ذلك سيعصمه من الهجوم على شخصه من منطلق عدم التدين،

---

1- طائفة بروتستانتية نشأت فى أوروبا بُعيد عام ١٥٢٠ وتميزت بالشروط القاسية التى وضعتها لعضوية الكنيسة، وبإصرارها على إعادة تعميد البالغين ورفض عماد الأطفال. (المترجم)

أن يكون ذلك الرجل عربيا، وموهوبا بلغة القرآن السليمة، نظرا لأن يتحتم العلماء ليسوا على استعداد للاستماع إلى شخص بربرى؛ ولابد لهذا الرجل أن يكون صاحب بلاغة وطلاقة أخاذة، يتعين على المصلح قبل ذلك كله أن يكون واعظا ثالثا، يتعين على مثل هذا الرجل أن يكون متعلما وصاحب علم غزير، بمعنى أن يكون فقيها فى كل مسائل الشريعة، وعالما بكل التعليقات التى كتبت عن القرآن؛ وأن يكون مستعدا لذلك، حتى يمكن له بصورة مستمرة قرع الحجة بالحجة، والقولٍ بالقول وإذا ما كان ذلك الرجل موهوبا بالخصال أو المؤهلات الثلاثة فضلاً على الشجاعة ورضا الله، يحق له أن يقودنا إلى حيث يشاء.

لن تكون العقبات الرئيسية التى ستقف فى وجه إصلاح من هذا القبيل فى البداية، ولن تكون كل هذه العقبات أخلاقية الطابع، برنامج ذلك المهدى بكامله يحتاج منه أن يقوم بغزو مكة؛ والطريق البرى المؤدى إلى مكة مسدود بواسطة كل من مصر وقناة السويس وعليه وما لم ينجح ذلك المصلح فى عبور البحر الأحمر من خلال الحبشة Abyssinia ذلك الغزو، الذى يمكن أن يحقق نبوءة قديمة تقول: إن " أصحاب الفيل " الأحباش سيغزون الحجاز فى يوم من الأيام، فلن يستطيع تحقيق مهمته يزاد على ذلك أن المصلح المتشدد لن يحصل على تعاطف الجزيرة العربية إلا إذا كان حليفاً لها ومعاديا للأتراك، عرب شبه الجزيرة العربية جرى إصلاحهم بالفعل وحدث بينهم رد فعل قوى لصالح الفكر الليبرالى، وعرب شبه جزيرة العرب لايزالون يحبذون الإصلاح، لكنه إصلاح من نوع آخر مختلف عن ذلك الذى نادى به محمد بن عبدالوهاب؛ ونحن نشك فيما إذا كان الإسلام المحارب الجديد سيجد كثيراً من الأنصار بين هؤلاء العرب.

يعد الشريف المسن عبد المطلب، أقوى المدافعين من بين عرب الجزيرة العربية الخلص، فى الوقت الراهن عن هذه الآراء؛ والمعروف أن الشريف عبد المطلب معين من قبل السلطان، وهو فى الواقع لايألو جهدا، منذ تعيينه فى مكة، فى نشر الحماس الموجود لدى المسلمين والعرب فى شمال أفريقيا، ولما كان الشريف عبد المطلب وهابيا فى شبابه فهو لا يزال أصوليا متشددا؛ ومن الممكن إن امتد به الأجل (يقال إن الرجل فى التسعين من عمره فقد يتمكن

من إحداث حماس مماثل فى جزيرة العرب، لكن السواد الأعظم من عرب الحجاز، ناهيك عن عرب نجد واليمن كلهم مشغولون بأفكار أكثر إنسانية، مؤيدو الشريف عبد المطلب الرئيسيون ليسوا من أبناء وطنه ولكنهم من المستعمرة الهندية وهم فى معظمهم من نسل العسكر الهنود الذين دربهم الإنجليز، وفروا إلى مكة فى العام ١٨٥٧، والذين ذاع صيتهم بأنهم أكثر السكان تشدداً وأصولية، والعرب الخلص متمردون على سلطة الشريف عبد المطلب.

أكرر، إنه من غير المحتمل لأى إعلان عن الإصلاح الأصولى أن يجد تأييداً بين أعراق شمالى آسيا، الغارقة فى الشهوانية والخرافات؛ هذا فى الوقت الذى يمكن التأكيد فيه على معارضة إسطنبول للإصلاح بكل أشكاله. الوهابية على سبيل المثال، عندما انتشرت فى جنوبى آسيا لم تحصل مطلقاً على موطئ قدم أبعد من سوريا، وراحت تجزئ نفسها فى نهاية المطاف، إلى أجزاء فى مواجهة أصولية إسطنبول الفاسدة، وهذا هو ما يمكن أن يحدث الآن. وهذا هو عبدالحميد، وعلى الرغم من تحمسه للإسلام، يرى أن الكلام عن الإصلاح الأخلاقى نوعاً من الابتداع والهرطقة، وكما رأينا فإن مهمة المهدى معادية للحكم السيئ بكل أنواعه ولا يستثنى من ذلك حكم السلطان وحكم الخليفة، وعليه وما لم يضع عبدالحميد نفسه بصورة علنية على رأس الحركة المحاربة فى إفريقيا مستبعداً بذلك أى منافس آخر، فليس من المرجح أن يعطى مساندته المخلصة لمثل هذه الحركة، هناك دلائل على أن عبدالحميد يرتاب فى الأحداث التى تجرى فى تونس وأنا أرى أن عبدالحميد لن يتردد وجه حال أول إعلان عن مصلح ملهم فى الوقوف فى وجه مثل هذا المصلح وأنا أفهم وأفسر التدعيمات العسكرية التركية فى طرابلس على أنها تحوط للإصلاح العربى وللوقوف فى وجه فرنسا الكافرة.

من هنا يمكن القول: إن الأصولية على المستوى القتالى حتى وإن نادى بها المهدى نفسه، يصعب أن تكون عامة أو دائمة، وأن أفضل نتائجها بعد فورة انتقالية توقظ الفكر الإسلامى وتجدد حياته الروحية، ستكون عبارة عن روح أكثر إنسانية، وسوف تحتل مكانها فى الجزيرة العربية وستكون أكثر دواما باعتبارها إصلاحاً أكثر عقلانية ومنطقية.

وإن لم أكن أشير إلى ذلك الإصلاح الأصولى، وعندما عبرت عن قناعتى التى مفادها أن الإسلام سيتوصل فى نهاية المطاف إلى خلاصه، ولم أكن أرى أن من الضرورى على الإسلام إيجاد عامل خارجى، متمثلاً فى مرشد ملهم يقوم بتوضيح الطريق للإسلام، لقد بدأ الإصلاح الإسلامى بالفعل، وقد يستمر بصورة مستمرة إلى أن يحقق نتائجه كاملة، بوسائل غير عنيفة، وبروح تقدمية وليست رجعية، هذا الإصلاح هو وحده الإصلاح الحقيقى، لأنه قانون (شرع) للدول وللعقائد، وأيضاً للأفراد، إلى حد أن كل هؤلاء لا يمكن أن ينقلبوا على ماحققوا، كما أن التغييرات المفيدة لهم يجب أن تكون طبقاً لظروف الحياة الجديدة، وليس طبقاً للظروف القديمة - إلى المعرفة الأكبر وليس إلى المعرفة الأقل - إلى حرية الفكر، وليس إلى العبودية، يزاد على ذلك أن الإسلام ليس فيه ولا فى مبادئه أى شئ يمكن أن يجعل من هذا التقدم حلاً غير طبيعى لمصير الإسلام.

كان الإسلام فى أساسه، ولعدة قرون بعد مجيئه عقيدة عقلانية بشكل واضح وأساسى؛ وقد حقق الإسلام انتصاراته الروحية الأولى من خلال العقل والمنطق والإيمان، ونحن إذا ما درسنا أصول الإسلام وقواعده فى تاريخه الباكر، يجب أن نعترف بهذه الحقيقة ونقرها، القرآن، الذى نتحدث عنه على أنه دستور الإسلام المدون، ليس هو فى واقع الأمر كتاب القانون الذى يعيش عليه المسلمون، القرآن فى أفضل الأحوال، يعرض بوضح حقائق دينية مؤكدة، وأن الله واحد، ونظرية الثواب والعقاب فى الحياة المستقبلية، والوحى الذى ينزل على الإنسان من قبل الله (سبحانه وتعالى)، المزامير، وكثير منها سام، تشغل عدداً كبيراً من سور القرآن؛ يلى ذلك الوعد بسعادة المؤمنين ودمار الكافرين؛ ويجئ بعد ذلك تاريخ الوحى التقليدى مثلما كان سائداً بين العرق السامى؛ ثم يرد بعد ذلك، وفى السور الأخيرة من القرآن وبصورة غير واضحة شئ يمكن تصنيفه على أنه من القانون، ومع ذلك، فإن القانون هو جوهر الإسلام، وقد كان الإسلام كذلك منذ إرسائه على أنه نظام اجتماعى ودينى.

هذا القانون لم يكن مثل القرآن، أنزل من السماء كاملاً، فى البداية، كان أكثر قليلاً من مجرد تأكيد على العادات المشتركة فى الجزيرة العربية، مع



دعم فى واقع الأمر وتصحيح عن طريق الوحى لكنه يقوم على قواعد الحق والباطل الموجودة بالفعل، زد على ذلك أن الإسلام عندما خرج من الجزيرة العربية فى عقده الأول، وراح يعانق حضارة أجنبية وجد نفسه وجها لوجه مع ظروف حياة جديدة، ولم يعد العرف وحده مرشداً كافياً؛ وكان صوت الوحى المباشر قد توقف، وألقى المؤمنون على جنانهم كى يوجههم كيف يتصرفون. وعلى الرغم من ذلك، تواصل الوحى لكى يكون أساسا لإعمال عقولهم، وتعليم زعيمهم الكبير مبرراً كل تطور جديد من تطورات القانون حسب متطلبات الأحوال، كان يجرى الاستشهاد بالقرآن فى المواضع التى تتطلب الاستشهاد، وفى المواضع التى لا يمكن الاستشهاد بالقرآن كان يجرى الاستشهاد بالحديث (الشريف) فى بداية الأمر كان يجرى الرجوع إلى أصحاب النبى (صلى الله عليه وسلم) وإلى ما يتذكرونه من أقواله (صلى الله عليه وسلم) وأفعاله المأخوذة عنه (صلى الله عليه وسلم)؛ بعد ذلك، وبعد رحيل الصحابة بدأ أصحاب الصحابة يحلون محلهم وأصبح يجرى الاستشهاد بهم.

وعليه، وعن طريق المقارنة الدقيقة، والتفكير القائم على الحجج والبراهين التى دارت عبر أجيال كثيرة جرى بناء القانون الإسلامى بصورة متدرجة إلى أن وصل إلى الشكل الذى نراه عليه الآن، واستمر ذلك القانون إلى القرن الثالث من الإسلام إلى أن جرى تجسيده بأمر من الخليفة فى كود مدون، جاء فقه الدين وفقه الشريعة لأبى حنيفة الإمام الذى عهد إليه بهذه المهمة بمثابة أول محاولة لوضع الأحاديث المتناولة بين المؤمنين ضمن إطار عقلانى، وعمل ملخص وجيز للممارسة القانونية (الشرعية) القائمة، قام أبو حنيفة هو ومعاصروه بدراسة وتنظيم الثروة الصحيحة التى جرى جمعها والتى ارتكز عليها ذلك القانون (الشرع)، وأخذوا هذا ورفضوا ذاك من أقوال آباء الإسلام، وبنوا على ذلك مدرسة تعليمية أصبحت منذ ذلك اليوم أساسا للفقه والتشريع الإسلامى.

على كل حال، لا يبدو أن فقه code أبى حنيفة كان مقصودا به، فى الزمن الذى وضع فيه، أن يكون تعبيراً مطلقا ونهائيا عن كل الممارسات القانونية (الشرعية) للمؤمنين، وقد اشتمل ذلك الفقه على قدر هائل من الأحاديث لم

تفسير مضاد لها أمكن استنتاجه منها بمنطق مساو، قام أبو حنيفة بالجمع يفد منها جامعها، أو بقيت متناقضة مع نفسها إلى حد إمكانية التوصل إلى والمناقشة دون البت فى الأحاديث؛ وطالما تواصل سمو الذهن العربى فى الإسلام فإن عملية تطوير التفكير تتواصل وتستمر أيضاً.

أيد الأئمة الذين جاءوا بعد ذلك أمثال مالك، والشافعى، وابن حنبل، الفقه الحنفى، كما أيده أولئك الذين جرى تنفيذ تعاليمهم منذ ظهور الفقه الحنفى، وكان القصد البين للجميع هو ملاءمة ذلك القانون (الفقه) بشكل أكبر لاحتياجات المؤمنين التقدمية، وكان الجميع يتبعون الأسلوب الموروث الذى يقوم على الاختيار من الحديث والتفسير والعقلنة، هذه المدارس الفقهية، كانت محطا للإعجاب، فى ظل ظروف الحياة، التى كانت سائدة فى ذلك الوقت؛ وإلى يومنا هذا، وفى تلكم الأماكن التى بقيت فيها تلك الظروف بلا تغيير، لا تزال كافية تماماً لأغراض الحكم الجيد وتقنين السلوك والتصرفات الاجتماعية، وعلى الرغم من ذلك، كان بالإمكان اعتبار هذه المدارس الفقهية مجرد محطات توقفت عندها مسيرة التشريع الإسلامى، لو بقيت مصائر الإسلام بصورة دائمة فى أيدى مؤسسية الأوائل .

ومن سوء الطالع، أن بدأ فى الظهور، فى غضون القرن الحادى عشر (الهجرى)، نفوذ مؤسف راح يكشف عن نفسه فى مجال العلماء العرب، وراح يكسب المزيد من الأرض شيئا فشيئا، لينجح فى نهاية المطاف، فى وقف انسياب التقدم الفكرى عند مصدره، هذا الأسلوب التترى، الذى ظهر لأول مرة فى سياسة محمد على، وعلى الرغم من قوة أسلحته، كان بطئ الفهم، لم يكن ذلك التترى معتادا على الفكر، وبعد أعتناقه للإسلام كان بدا أنه ليست هناك حاجة إلى مزيد من الجدل حوله، كانت لغة القرآن والأحاديث علماً محكماً عنده؛ وكان الذكاء العقلانى للعرب الذين احتل ممتلكاتهم بمثابة توبيخ مستمر له، لم يجرؤ على المخاطرة بكرامته البربرية فى حرب البداهة والفطنة والعقل التى شغلت هذه المدارس؛ وعليه قام ذلك التترى بتحصين غبائه، خلف متراس من الإيمان المتعنت، ولما كان هو نفسه عاجزا عن تطوير القانون (الشرع)، راح يمسك بطريقة جنونية بكل ما هو مكتوب أو مدون له، كان ذلك التترى يرى أن فقه أبى حنيفة شيئاً كاملاً، وجعل منه المتكأ الذى

يعتمد عليه تفكيره القانونى الشرعى، بعد ذلك، وعندما استطاع الإمساك بالسلطة كلها بطريقة متدرجة، أعلن أن المزيد من التعليم أمر دنيوى، وأغلق جميع المدارس الفقهية فى حقيقة الأمر، وأدت انتصاراته العسكرية فى القرن السادس عشر إلى إحكام غلق المصير الفكرى للإسلام، واعتباراً من ذلك اليوم وإلى يومنا هذا لم يُضئ الفكر الإسلامى بأى ضوء من أضواء النقاش والحوار، فى أى مركز من مراكز الفطنة والذكاء الإسلامية القديمة، هذا يعنى أن الفطنة والذكاء اللذين هما عين الإيمان الإسلامى فى الأزمان السابقة الباكرة، قد أغلقا إغلاقا محكما - يقول الكثيرون إن هذه العين قد فقئت.

فى هذا الجيل الحاضر فقط، وفى مواجهة الأخطار والبلايا التى يتعرض لها الإسلام تصبح العودة من جديد إلى الأساليب والطرق الفكرية أمراً محتوماً؛ فى هذه المناطق الإسلامية على وجه التحديد والتى فيها الفكر الإسلامى أقوى ما يكون، نجد الآن دلائل عودة الحياة الفكرية، وهذه هى الجزيرة العربية الحديثة، فى مواقع اتصالها بما نسميه حضارة العالم، تكشف عن استعدادها وقدرتها على الوقوف وجها لوجه مع هذه الحضارة: والجزيرة العربية تعد نفسها إعدادا جيدا لحل مشكلة موقفها الخاص وموقف عقيدتها من ذلك الموقع.

الواقع أن الحضارة، فى الوقت الحالى، فى شمال إفريقيا تقدم نفسها للإسلام على أنها عدوة له؛ لكن فى المناطق التى بقيت فيها فطنة الإسلام غير مغشاة بما يسمى الخطأ السياسى، نجد الإسلام يثبت ويؤكد على كفايته ومقدرته، ليس فحسب فى تفهم الفكر الأوروبى الأفضل، وإنما أيضاً فى تعاطفه مع هذا الفكر باعتباره مشابها لفكره، وعليه فنحن نجد فى القاهرة التى أزيل عنها النفوذ الإسطنبولى إلى حد ما، العلماء العرب يتمثلون وبسرعة فى حضارتهم المبادئ الراقية فى الفكر الأوروبى ويطعمون ممارستهم الأخلاقية التى لا تتماشى مع الأمور المرعية ببعض الملامح الأفضل من حضارتنا، مسألة بحث مصر عن وسيلة قانونية (شرعية) للتسامح الدينى الكونى، أو التخلص من الضغوط، فيما عدا الضغط الناجم عن فطنة أهلها الذى مفاده أن كبار رجالها بدأوا إصلاح حياتهم المنزلية، بل

إن الأمر وصل فى بعض الأحيان، إلى حد اعتناق مبدأ الزواج من واحدة فقط؛ وهذا أمر لا تأثير له على كرامة البلاد، كما هو الحال عند الأتراك، واقع الأمر أن هذه العملية نفسها تدور حالياً فى أذهان الناس مثلما كان حال أسلافهم، اتصل العرب فى القرن الثامن بالفلسفة اليونانية وتمثلوها من خلال عملية تفكير منطقية، مدخلين إياها إلى مجموعة (جسم) معتقداتهم الخاصة؛ وها هم المصريون فى القرن التاسع عشر يتمثلون الأخلاقية الأجنبية فى منظومة أخلاقياتهم الخاصة.

الأمر لا يقتصر على مصر، هناك أيضاً فى عمان وفى شبه جزيرة العرب، إحساس ودى حقيقى بين المسلم "وضيفه" المسيحى، مسألة إلغاء الرق فى زنزبار، جاءت انصياعا للرأى الأوروبى فى أضعف الأحوال وللقوى الأوروبية أيضاً: وهناك أيضاً تعاطف أخلاقى معترف به بين المسلم والدولة المسيحية التى يقوم أساسها على وعى مشترك بالحق والعدل، وأنا لدى من الأسباب ما يجعلنى أعتقد، أن أهل اليمن إن قدر لهم الخلاص من إسطنبول، فإننا سنجد هذا الإحساس نفسه سائدا بينهم؛ وأنا أعرف أن هذا الإحساس موجود فى نجد؛ فى حين وجدت فى الحجاز، الذى ينظر الجميع إليه على أنه مرتع انعدام التسامح الدينى، أن كل ما هو عربى بحق فى السكان كان ليبرالياً أيضاً، كانت تلك الأفكار، فى ظل حكم كبير الأشراف الذى سقط ضحية للسلطان عبدالحميد، تكسب المزيد من الذيوع والانتشار؛ ولولا وفاة كبير الأشراف بصورة مباغتة، لقلت حسب ما لدى من مصادر، إن ما يسمى بالأرض الإسلامية المقدسة ربما كانت مفتوحة الآن أمام التعامل التجارى الأوروبى، وأمام العبودية، أو تجارة الرقيق فى أضعف الأحوال وعلى نحو لا يمكن إلغاؤه.

وبناء على ذلك، يمكن أن يكون هناك من الأسباب ما يجعلنا نتطلع إلى القول الذى مفاده، أنه لو قدر للفكر العربى أن تكون له السيادة على الإسلام من جديد، فإن ميل ذلك الفكر سيكون فى اتجاه قراءة أوسع وأكثر ليبرالية للقانون (الشرع)، وأنه قد تحدث فى الوقت المناسب، مصالحة حقيقية مع العالم المسيحى وربما المسيحية نفسها، وفى ضوء الأحوال القائمة، فإن المشكلة الكبيرة التى تكتنف الإصلاح هى: أن الشريعة، وإن شئت فقل الكود

المدون للقانون، لا تزال فى الإسلام مصدر غير قابل للطعن، والقانون بحد ذاته يعد قانوناً ممتازاً، وهو على هذه الشاكلة، يحوز ولاء الأمناء الذين يخافون الله؛ لكن هذا القانون لا يمكن، فى بعض النقاط، أن يتصالح مع المتطلبات الحديثة، ولا يمكن تغييره من الناحية القانونية.

عندما جرى تأكيد ذلك القانون لم يكن هناك أى شك فى أن المسلمين يمكن أن يكونوا فى يوم من الأيام رعايا لقوة مسيحية، أو أن الدولة الإسلامية نفسها ستكون بأى حال من الأحوال، بحاجة إلى تكييف نفسها مع المطالب المسيحية فى سياستها الداخلية، هذا القانون تفكر أيضاً، وبصورة أساسية، حالة الحرب، وأقر العبودية، والمحظيات باعتبار ذلك كله أشياء أو أمورا ملازمة للحرب، هذا القانون لم يفهم أن الإسلام، فى يوم من الأيام، سوف يتعين عليه العيش فى سلام مع جيرانه، إن قدر له أن يعيش على الإطلاق، ولم يفهم ذلك القانون أيضاً أن المعنى الأخلاقى العام فى الدنيا يمكن أن يضغط عليه على نحو يجعل الطبائع الراقية فى المسلمين أنفسهم، تستشعر ضرورة حظر ترخيصه القديم غير المتحضر إلى حد ما، والخاص بالزواج والطلاق، ومع ذلك فإن هذه الأمور قد تحققت أو تسارع إلى التحقق؛ يزاد على ذلك أن أفضل مفكرى الإسلام يعترفون أن التغييرات فى الاتجاه المشار إليه سوف تتحقق إن آجلا أو عاجلا، وإن الشئ الوحيد الذى يصر عليه هؤلاء المفكرون هو أن هذه التغييرات لابد من حدوثها بطريقة قانونية (شرعية) وألا تفرض عليهم من قبل قانون لا يحفل بآرائهم.

ما يريده هؤلاء المفكرون هو تغيير المصدر الشرعى، هذا المصدر ليس موجوداً حالياً سواء فى السلطان العثمانى أو فى الشريف، أو فى أى شيخ من شيوخ الإسلام أو المفتى أو هيئة العلماء فى العالم، لا أحد من كل هؤلاء يستطيع العبث بهذا القانون، لا يوجد حتى محكمة واحدة يعترف بها الكون كله، التى قد يحيل إليها المسلمون كلهم شكوكهم فى قراءة القانون قراءة صحيحة، والبت فى منازعاتهم، الأمر لا يتطلب سوى فتوى أو بالأحرى رأى، وتنطبق هذه الفتوى على الأرض التى صدرت فيها، وفتوى عالم كبير فى إحدى الدول الإسلامية يمكن عكسها بفتوى تصدر فى دولة أخرى، وشيخ الإسلام فى إسطنبول يمكن الاستئناف أمامه ضد المفتى، وإن هذين يمكنهما

الاستئناف أمام بخارى Bokhara .. هذا يعنى أن أحداً لا يستطيع إغفال الباقين، وعليه حدث، يوم أن كنت فى جدة، أن جاء من البنغال وفد من المسلمين، وكانوا فى طريقهم إلى مكة لطلب فتوى فى أمر متنازع عليه هو ما إذا كان المؤمنون مسموحاً لهم باستعمال أو عدم استعمال الملابس الأوروبية. كان قد سبق طلب فتوى سابقة حول هذا الموضوع من إسطنبول، ولكن خاب أمل الوفد، بزعم أن شيخ الإسلام فى إسطنبول لا يمكن الوثوق به، وأنهم يفضلون مفتى مكة، من هنا نجد أن المسلمين الذين تنشغل أذهانهم بالقانون (الشريعة) والذين يشقون طريقهم إلى التحسين، يواجهون دوما سدا قانونيا (شرعيا)، الحاجة إلى مصدر، وفى ظل الأوضاع الراهنة ليس هناك علاج لهذه المشكلة.

هناك رأى يبدو أنه يحظى بالمزيد من التأييد بين المتعلمين، مفاده أن مشكلة قد تحدث فى يوم من الأيام فى العودة إلى الخلافة التى يسمونها السوط الحى Saut el haii، أى صوت الإسلام الحى، التى كانت تذهب فى فترتها الأولى وإلى أن جرى تدمير الدولة العباسية بيد هولاكو، إلى من جاءوا بعد النبى (صلى الله عليه وسلم)، يقال إنه خلال حكم الخلفاء الأربعة : أبو بكر، عمر، عثمان، وعلى، كانت تلك القوى التشريعية الحية بيد الخلفاء؛ وأنهم كانوا يعدلون وعلى عهدتهم الخاصة، القانون (الشرع) غير المدون إذا ما أرادوا ذلك.

يروى أن ابا بكر جنب قانونا يسمى المتعة Mota، على الرغم من أن هذا القانون مبنى على بعض أحكام من القرآن، معلنا أن هذا القانون لا يرقى إلى مرتبة الحديث الحسن؛ وأن عليا (رضى الله عنه) عكس هذه الفتوى بعد ذلك، والتى لا يزال أهل السنة يلتزمون بها على الرغم من ذلك، مارس الخليفتان الأموى والعباسى هذا الحق التشريعى عن طريق الإنابة؛ وباسم هذين الخليفتين صاغ المجتهدون، ابو حنيفة هو والآخرون الأكواد الأولى لنفتهم: وكان المؤمنون يصغون إلى اخر لحظة، إلى الكلام الصادر من أفواه أولئك المجتهدين، على اعتبار أن ذلك شكل من أشكال الوحى بصورة أو بأخرى.

لم يتوقف ذلك الإحساس بالوقار والتقدير إلا عندما انتقل المنصب

المقدس من البيت الشرعى والمقدس، وعندما جرى إغفال الصوت الحى للخليفة والتغاضى عنه فى الإسلام، هذا الغازى العثمانى، عندما أصبغ على نفسه لقب أمير المؤمنين لم يجرؤ على أن يدعى لنفسه حق التعليم، فضلاً على أن المسلمين لم يكونوا على استعداد للتجاوب أو الإصغاء إلى طلب من هذا القبيل، كان البيت العثمانى منذ البداية غارقا فى الرذائل المشينة، ولم يكن متعلما حتى يستطيع أن يعلم، والوصف الذى جاء على لسان برتراندون Bertrandon، دى لا بروكيى Brocquiere، فى القرن الخامس عشر، عن بلاط وعادات "التركى الكبير" Grand Turk، ليس فيه أى شئ من المبالغة؛ ويسهل علينا فى ضوء هذا الوصف، تصور مدى استحالة ربط العلماء العرب فكرة الوحى بأى أحد من شخصيات سلاطين ذلك الزمان، واقع الأمر أن السلطان سليم الأول لم يطالب بلقب الصوت الحى، ولم يعط هذا اللقب لأى أحد من الذين جاءوا بعده.

ومع ذلك، نجد أن الحاجة إلى صوت سلطوى، تتزايد يوما بعد يوم من قبل المسلمين الأصوليين؛ وأنا أرى يقينا، أن ذلك الصوت، سيجرى الاعتراف به بشكل عام، بصورة أو أخرى، قبل مضى وقت طويل، وهذا هو السلطان عبد الحميد، الذى تناولت طموحه الروحى بالوصف، أمر منذ وقت قريب جداً، بإعداد بيان قانونى لحقوقه فى الخلافة، ويتضمن هذا البيان حق الرجل فى لقب الصوت الحى [1]؛ وعلى الرغم من ذلك ليس من المرجح أن يقوم المؤمنون، عند الساعة الحادية عشرة من حكمه، بإضفاء لقب سام من هذا القبيل على البيت العثمانى، والأرجح تماما هو أنه عندما يجرى العثور على جدير بهذا اللقب من الناحية (الشرعية)، ستجرى الموافقة على إعطائه كل حقوق ذلك المنصب المقدس، عندما سيتم التغلب على العقبة القانونية هذا يعنى أن ذراع القانون الميتة لن تصبح ميتة بعد الآن، ولكنها ستحصل على الإلهام من الصوت الحى والإدارة الحية.

وطالما أننا نتخيل أشياء كثيرة فلعلنا نتخيل أيضاً ما يلى، أن خليفتنا من قريش، وأنه اختير بواسطة المؤمنين ونصب فى مكة، وأنه سوف يدعو علماء

---

١ - صادق عبد المطلب كبير أشراف مكة، على هذا الطلب، وسوف يصدر عبد المطلب رسالة الرعية هذا العام إلى الحجاج تاييدا لخلافة عبد الحميد.

الأراضى كلها إلى حضور مجلس فى زمن الحج، وأن هذا الخليفة حدد
مجتهدا جديدا اقترح عليهم تعديلات محددة فى الشريعة، من منطلق أن
هذه الأشياء ضرورية لرفاة الإسلام، وأنها مستنتجة من الحديث الشريف،
وهنا لن تكون هناك أية نقطة من نقاط المذهب بحاجة إلى لمسها أو الاقتراب
منها بأية طريقة من الطرق، ولكن القانون هو الذى سيكون بحاجة إلى
التعديل، هذا يعنى أن فقه الشريعة يجب إعادة صياغته فى فصول بعينها.
من الذى يشك لو أن شخصاً مثل عمر أو هارون الرشيد كانا حيين فى الوقت
الحاضر، فى سماحهما بعمل تغييرات من هذا القبيل أو أن المؤمنين فى
زمانهما كانوا سيقبلون تلك التغييرات باعتبارها تطورات ضرورية وشرعية
فى التعليم القرآنى؟

قد يكون من المهم مواصلة هذا الاستعلام، حتى نتبين طريقة إجرائه
بشكل مفصل، تتمثل الضرورة الملحة للإسلام فى الوصول إلى حل مؤقت
شرعى مع أوروبا لحين الوصول إلى تسوية وتكييف قوانين الإسلام مع
النقاط التى تصر عليها أوروبا وعلى نحو كافٍ لمنع حدوث أى صراع، من
الواضح أن المساواة القانونية لابد أن تعطى للمسيحيين الذين يعيشون فى
ظل حكم القانون الإسلامى، ومن ناحية أخرى يتعين السماح بإذعان المسلمين
الذين يعيشون تحت الحكم المسيحى، للقانون الأجنبى فى مسائل بعينها.

أكرر ثانياً أن العبودية ينبغى إعلان عدم شرعيتها بصورة أو أخرى؛ ويجب
وضع تفسير صارم لسماح القرآن بالزواج، والمحظيات، والطلاق، وأن هذه
التغيرات كلها يجب القيام بها بطريقة منطقية، بطريقة الاستقراء المنطقى
للأحاديث، وتوسيع أو تضييق التفسير القرآنى، لسنا بحاجة إلى الشك فيمن
يتذكر الفتاوى التى صدرت بشأن هذه النقاط من بعض علماء الأزهر، هذه
القرارات غير مرضية فى الوقت الراهن للمؤمنين بشكل عام، نظرا لأن من
أصدروا هذه القرارات ليست لهم سلطة تنقية القانون، لكن فى ظل السلطة
يمكن لهذه القرارات أن تحظى بموافقة عامة، وهذا فى أضعف الأحوال هو
الانطباع الذى تكون لدى عن الرأى الإسلامى الحديث، من خلال حوارى مع
المسلمين، قد يكون من المهم حل هذه المسائل وأنا أتطلع إلى أن تتاح لى فى
يوم من الأيام فرصة القيام بذلك، لكنى فى الوقت الحالى ليس لدى الوقت

أو المعرفة الكافية المطلوبة للقيام بمثل هذا العمل، ويكفى هنا أنى نوهت إلى الطريقة؛ لكننى لا أستطيع التوصل إلى تفاصيل ذلك الإصلاح.

على كل حال، قد أعطى فكرة عن تلك المادة المأخوذة من الحديث الشريف، والتى يتطلع إليها المصلحون، إذا ما اقتبست هنا الوثيقة التى جرى تداولها بين علماء الأزهر فى فصل الربيع الماضى، هذه الوثيقة تزعم أنها نص أول معاهدة للنبى (صلى الله عليه وسلم) مع نصارى الجزيرة العربية، على الرغم من أنى لا أقطع بصحتها، ويجئ نصها على النحو التالى:-

"عهد رسول الله، محمد صلى الله عليه وسلم مع المسيحيين، ورهبانهم وأساقفتهم" (٦٢٥ ميلادية).

"محمد (صلى الله عليه وسلم)، رسول الله، رسول السلام إلى البشرية كلها، يملى كلمات هذا العهد الذى مفاده أن الجهاد فى سبيل الله، سيكون وثيقة مكتوبة بينه وبين النصارى" .

"من يحفظ هذا العهد، سينعت بأنه مسلم خالص، جدير بدين الله (سبحانه وتعالى)، ومن يحيد عنه ينعت بالعدو، سواء كان ملكا أو من الرعايا، كبيرا أو صغيرا ".

"وأنا نفسى ملتزم بذلك: سوف نبارز بالسيوف أنا وفرسانى فى أراضيهم، ومعى رجال المشاة التابعون لى، ومعى حلفائى، فى كل أنحاء الدنيا؛ وسوف أسهر على أمنهم وأمن معابدهم، وكنائسهم، ومتكلميهم، وأديرتهم، وأماكن حجهم، فى كل مكان أجد فيه هذه الأشياء سواء أكان ذلك عن طريق البر أو البحر، فى الشرق أو الغرب، فوق الجبال أو فى السهول، فى الصحراء أو المدينة، هناك سوف أقف خلفهم حتى لا يصيبهم أى أذى، وسوف يحميهم أتباعى من الشر، هذا هو عهدى معهم، سوف أعفيهم من كل ما أعفى المسلمين منه، وأنا آمر أيضاً ألا يطرد أحد من أساقفتهم من أديرتهم، ولن يجبر نصرانى على الخروج من دينه، ولن يجبر راهب على الخروج من ديره، ولا ناسك من صومعته، وأنا أؤكد عدم تحطيم أية بناية من بناياتهم المقدسة، أو أخذها منهم لتحويلها لمسجد أو للسكنى، ومن لا يحترم هذا الأمر سيكون مذنبا عند الله، ومخالفاً لعهد رسوله، وأنا أعلن أن كل الرهبان والأساقفة، ومرءوسيهم، معفون من الجزية، اللهم إلا إذا كان ذلك بمحض إرادتهم، ولن

يدفع التجار المسيحيون، الذين يمارسون الأعمال المالية والتجارية فى البحر، أو الذين يغوصون لاستخراج اللؤلؤ، أو الذين يعملون فى مناجم الذهب أو الفضة أو المجوهرات، وحتى الأقوياء والأصحاء ما يزيد على اثنتى عشرة دراخمة على سبيل الجزية السنوية، هذا بالنسبة للتجار النصارى الذين يتحتم عليهم العيش فى الجزيرة العربية؛ ويستثنى من ذلك المسافرون والغرباء المقيمون، وبالمثل أيضاً من ملاك الأراضى والبساتين المثمرة، وملاك أراضى القمح، لن يدفعوا أكثر مما يطيقونه.

ولن يطلب من هؤلاء الذين قطعت معهم عهدا، القتال دفاعاً عن أنفسهم، لكن المسلمين سيحمونهم ولن يطلبوا منهم سلاحاً أو تعيينات (تموينات)، ولا حتى خيولا للحرب باستثناء ما إذا كان أحد منهم راغباً فى ذلك، لكن اذا ما قدم أحدهم النقود، أو ساعد المسلمين فى الحرب فلابد من شكره على ذلك.

وأنا آمر ألا يتعدى مسلم على نصرانى ؛ وإذا ما تناقش معه فيكون ذلك بالحسنى، وإذا ما آذى نصرانى مسلما، فإن واجب المسلمين يتمثل فى منع المنتقم من القيام بانتقامه، والإصلاح بينهما وأن يدفع الدية إذا ما تطلب الأمر ذلك، وأنا أود ألا يهمل أتباعى النصارى، لأنى قطعت لهم عهدا أمام الله أنهم سيكونون أمامى مثل المسلمين، يشاركون ويتقاسمون الأشياء كلها مع الباقين، ولن يزعجهم أحد فى زواجهم ولن يقول مسلم لنصرانى " أعطنى ابنتك"، ولن يأخذها إلا إذا كان والدها موافقا على ذلك وراغباً فيه، وإذا ما أصبحت نصرانية أمة لمسلم، فسوف يقيد بهذا العهد بأن يتركها لدينها ولن يجبرها على عصيان رؤساء دينها، وهذا أمر الله، ومن ينقض هذا العهد ويخالفه سيكون عند الله (سبحانه وتعالى) كذاباً.

" يزاد على ذلك، سيكون من مهمة أتباعى إصلاح كنائس النصارى وأن يقدموا هذه الخدمة لا للدين وإنما لوجه الله (سبحانه وتعالى) ومن باب المحافظة على العهد الذى قطعه معهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم)".

لا يتعين على النصرانى أن يجبر على القيام بدور المبعوث أو الجاسوس على شعبه فى زمن الحرب.

وفيما يلى الامتيازات التى أعطاها محمد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) لأتباعه من النصارى:

١- لا يتعين على أحد منهم فى زمن الحرب تقديم المساعدة، فى العلن أو فى السر لأعداء الإسلام .

٢- يتعين عليهم ألا يجعلوا كنائسهم أو منازلهم ملجأ لأعداء الإسلام .

٣- يتعين على النصارى عدم مساعدة أعداء الإسلام بالأسلحة أو التموينات، أو الخيول، أو الرجال.

٤- يتعين عليهم عدم الاتصال أو التشاور مع العدو المعلن للإسلام، وألا يستقبلوا ذلك العدو فى منازلهم وألا يودعوا نقودهم عنده.

٥- يجب عليهم إعطاء المسلمين كلهم حق الضيافة لمدة ثلاثة أيام، لكن لا يتعين على المسلم أن يطلب منهم إعداد طبخ خاص له، ويتعين عليه أن يأكل من الطعام الذى يأكل منه مضيفه.

٦-إذا ما طلب مسلم اللجوء إلى نصرانى يتعين على النصرانى عدم رفض هذا الحق، ويجب عليه عدم تسليمه إلى أعدائه.

" ومن من النصارى يرفض طلباتى هذه لن يشارك فى امتيازات ذلك العهد الذى أبرمته مع الأساقفة، والرهبان، وغيرهم، من أتباع المسيح (عليه السلام)، والله شاهد مع أتباعى ويأمرهم بمراعاة أمرى هذا والمحافظة عليه الآن وإلى يوم الدين" .

" كتب المذكور آنفا فى وجود الأشخاص الموقعين أدناه وهو مملى من رسول الله، ودونه معاوية بن أبى سفيان، فى يوم الاثنين من نهاية الشهر الرابع، من السنة الرابعة، من الهجرة، فى المدينة المنورة صلى الله وسلم على سيدها" .

## ( موقع من )

" أبو بكر الصديق"، " عمر بن الخطاب "، " عثمان بن عفان"، " على بن أبى طالب" .

وهناك واحد وثلاثون توقيعاً أخرى.

" الله شاهد على ما فى هذه المعاهدة، والحمد لله رب العالمين" .

ختاماً، أود أن أحث على أنه إذا كان يتعين علينا النظر إلى المسلمين أنفسهم كيما يمكن تنفيذ تجديدهم الروحى النهائى طبقاً للقواعد الخاصة

بقانونهم (شريعتهم) وضميرهم، فإن العالم المسيحى لا يزال يفعل الكثير من أجل إحداث نتائج عاجلة أو مباشرة، أنا أرى أن يوم الكراهية الدينية بين المسلم والمسيحى قد اقتربت نهايته؛ وعلى الرغم من أن الصراع السياسى بدأ، وهذا من سوء الطالع، يجدد النزاع القديم فى شمال إفريقيا، فليس هناك خطر الآن من تحول ذلك الصراع إلى حرب صليبية من جانب أوروبا. لقد تخلى العالم المسيحى عن مهمته اليائسة فى تبديل الإسلام، كما تخلى الإسلام أيضاً عن مهمته فى غزو أوروبا؛ والمؤكد أن الوقت قد حان كى يعمل التعاطف الأخلاقى عمله فى جسمين كبيرين مكونين من رجال يؤمنون بإله واحد ويعبدون إلهاً واحداً!

بوسع إنجلترا، فى أضعف الأحوال، أن تعترف بالدين الإسلامى على أنه ليس مجرد شئ يتحتم مقاتلته وتدميره، وإنما هو شئ مقبول ومشجع منها أيضاً - مقبول من منطلق أنه حقيقة ستظل موجودة، بخيرها وشرها، فى العالم، شاءت أم لم تشأ - ومشجع لأن فيه إمكانات خيرة لا تستطيع إنجلترا استبدالها بأية نحلة من نحلاتها أو أية فلسفة من فلسفاتها، بوسع إنجلترا عمل الكثير لمساعدة تلك الإمكانات، لأن هذه الإمكانات تعتمد فى الوقت الحاضر على عملها السياسى، هناك أسباب وجيهة وأسباب غير وجيهة فى الإسلام مثلما هو حادث فى العالم كله، ومع أن مساعدات إنجلترا العينية تقدم للشر حتى يومنا هذا، فإن هذه المساعدات بدأ يتهددها الخطر الآن بسبب جهل إنجلترا بهذه المشاكل؛ وانا على يقين من أن إنجلترا تتعلم مما يحدث. وسوف تعترف بالخطأ الذى ترتكبه عن غير وعى، وسوف تحاول إصلاح الخطأ إذا ما توفر الوقت لذلك.

سوف أحاول فى الفصل التالى رسم مخطط لسياسة إنجلترا تجاه الإسلام، وسيكون ذلك المخطط جديراً باهتمام إنجلترا، ومريحاً لمصالحها الحقيقية.

# الفصل الخامس

# اهتمام إنجلترا بالإسلام

لا يتبقى أمامى سوى إبراز الدرس المستفاد من هذه المقالات، لابد أن القارئ لاحظ منذ البداية، إنى تحاشيت منذ البداية كل التلميحات والتنويهات إلى العمل السياسى المباشر الذى يمارسه العالم المسيحى، والذى يتعين عليه ممارسته أكثر وأكثر، على حظوظ Fortunes الإسلام؛ وكان دافعان يحدوانى فى هذا الاتجاه.

الدافع الأول، أنى كنت أود إبراز الحقيقة التى مفادها أن قوى التقدم أو التحلل، فى تحركات الفكر الإنسانى الكبيرة، ينبغى البحث عنها فى الداخل وليس فى الخارج؛ والدافع الثانى، هو تبسيط موضوعى على نحو يسهل معه فهمه من جمهور القراء، يزاد على ذلك، أننا وصلنا إلى نقطه يتحتم عندها الوقوف موقفاً مختلفاً، وننظر إلى الإسلام لا من حيث اقتصاده الداخلى وإنما من حيث تأثره بالعالم ككل، وهنا يتعين علينا تحرى التأثير الذى يمكن أن يحدثه الضغط المادى الأوروبى على الإسلام فى منطقة الليفانت[1]،

---

١- البلاد الواقعة فى شرق البحر الأبيض المتوسط. (المترجم).

وفى أفريقيا ووسط آسيا؛ وقبل ذلك كله، يتعين علينا أن ندرس بدقة موقفنا الخاص من الإسلام، ونتبين الطريق الذى يحتم علينا الواجب والمصلحة السير فيه يتصل بعدد المسلمين الهائل فى إمبراطوريتنا الهندية.

وأنا هنا آخذ الأمر على أن هذا الإحساس هو إحساس القارة الأوربية كلها - وأنا لا أتكلم هنا عن بريطانيا - تجاه الإسلام، وأن هذا الإحساس لا يزال مثلما هو عليه بالفعل، وهو إحساس العداء الاجتماعى والغزو السياسى، وعلى الرغم من التغييرات التى أثرت على الفكر الدينى فى أوروبا الكاثوليكية، وعلى الرغم أيضاً من نظرية التسامح الحديثة فى المسائل الخاصة بالرأى، فإن الدول التى يواجهها الإسلام مواجهه مباشرة فى الشمال والغرب لم تغير أى شئ فى سياستها تجاه الإسلام، منذ أن قررت تلك الدول استعادة " الأراضى المسيحية التى خسرتها "، من الواضح أن غالبية هذه الدول لم تعد تضع الغيرة الدينية على أنها الدافع الرئيسى وراء عمل تلك الدول، أو امتلاك القبر المقدس Holy Sepulchre على أنه الهدف العاجل لهذه الدول؛ لكن حروب هذه الدول الصليبية تحت اسم " الحضارة" هى الواقع نفسه، يزاد على ذلك أن جهود هذه الدول لم تتوقف فى جعل أوروبا تتسود السيطرة السياسية على المناطق كلها التى كانت فى يوم من الأيام تشكل الإمبراطورية الرومانية، هذه الفكرة بحد ذاتها، هى فكرة عادلة، وعلى الرغم من أنها أصبحت فى معظمها تتسم بالحماقة والغباء عند مختلف الدول المسيحية، التى تنظر إلى مزايا العالم المسيحى على أنها مزايا لها وحدها. وهى تهدف إلى عقوبة أخلاقية قديمة ومحترمة لكنها فى حد ذاتها لا تعد قوة يعتد بها، والمؤكد أنه لا الضمير الوطنى لكل من فرنسا، أو إسبانيا. أو إيطاليا، أو النمسا يمكن أن يكذب أو يفند فكرة العدوان، غير المبرر، على أية دولة من دول البحر الأبيض المتوسط الإسلامية المستقلة، وأن حكم الرأى العام على هذا العدوان غير المبرر سوف يعتمد على فشل أو نجاح مثل هذا العدوان.

وعليه يتعين علينا، تقييم مستقبل الإسلام كجسم سياسى، فى ضوء الاختلاف الموجود فى كل النقاط، بين أوروبا الحديثة ومنافسها القديم فى

مسألة القوى الفعلية، أن نكون مستعدين لعدم استسلام الإسلام فى الأجل القريب، للخسائر الكبيرة على طول خط حدوده مع أوروبا، وأنا عندما أبدأ من أقصى الغرب، أرى أن قلة قليلة، هم الذين يراودهم الشك، فى حال إذا ما نجح الفرنسيون فى سحق التحرك العربى الذى أثاروه فى تونس سحقاً تاماً، والذى قد يمتد فى الصيف القادم إلى المغرب (مراكش) وطرابلس، وأن بداية القرن القادم ستشهد البقية الباقية من ساحل البربر Barbary Coast الذى فى حوزة الفرنسيين أو الذى فى حوزة إسبانيا وإيطاليا، وأن يقوم مهاجرو هذه الدول باحتلال القسم الأكبر من الأراضى الزراعية المواجهة للبحر الأبيض المتوسط، وهذا الذى حاولت فرنسا عمله أو عملته بالفعل فى الجزائر، قد تحققه جارتاها بنجاح أكبر، فى كل من المغرب ( مراكش ) وطرابلس الغرب، والسبب فى ذلك أن الإسبان والطليان عرقان مستعمران بالدرجة الأولى، كما أن بلاد البربر الجبلية تختلف اختلافاً طفيفاً من الناحية المناخية عن أراضيهما، مع انهيار الأمبراطورية العثمانية، سوف تغرى طرابلس الغرب الساسة الإيطاليين، كما أن إسبانيا أصبح لها بالفعل موطئ قدم فى تطوان على ساحل أفريقيا، ونحن نتصور أن الأراضى الخصبة والأفضل التى على شاطئ البحر سوف تستقبل فيضاناً كبيراً من هولاء الزراعيين من البلدين، خاصة أولئك الذين يجربون حظوظهم فى ريفربليت River Plate وأماكن أخرى، وإذا ما وصل الأمر إلى هذا الحد فإن السكان المسلمين سيجرى إجبارهم إلى التخلى عن ملكية الأرض، وطردهم فى اتجاه الجنوب، إلى فترة محدودة فى أضعف الأحوال، وسوف تشهد هذه المنطقة انحساراً كبيراً فى قوة الإسلام السياسية، وأنا لا أتصور أن أوروبا ستحصل على موطئ قدم استعمارية فى جنوب جبال أطلس، أو أن مسلمى الصحراء سيخسرون شيئاً من شخصيتهم الدينية الحالية، فى أسوأ الأحوال، سيظل جنوب مراكش (المغرب) هو وفزان ولاية إسلامية مستقلة، بمثابة أنوية للحياة الدينية فى مناطق البربر، وحلقتى وصل بين الولايات الإسلامية فى شمال ووسط أفريقيا، فى حين نجد فى أقصى الشرق أن نفوذ مصر المتزايد سيثبت وجوده الفكرى بما يخدم المؤمنين- يزاد على ذلك، أن الإسلام ينبغى أن يتطلع مستقبلاً إلى وسط أفريقيا كما يصبح مركزاً للجذب الدينى فى اتجاه الغرب، هناك فى غرب أفريقيا، حيث يتزايد دخول زنوج المناطق

الاستوائية فى الإسلام، ستتاح للإسلام فرصة لتعويض خسائره على ساحل البحر الأبيض المتوسط ؛ ولما كان الإسلام محمياً بالصحراء الكبرى وبمناخ لا يناسب الحياة الأوروبية، فقد يؤدى ذلك إلى احتفاظ الإسلام بنفوذه السياسى واستقلاله الدينى طوال قرون من الزمان، لن تجرى أسلمة الزنوج فقط، وسيجرى أيضاً تعريبهم؛ وسيؤدى المجتمع الذى يقوم على لغة وعادات وتقاليد إلى محافظة السودان على علاقته بمكة من هذه الناحية ومع الحياة العامة للإسلام، من هنا فإن خسائر الإسلام فى أفريقيا ستكون شكلية أكثر منها واقعية، وقد تثبت فى نهاية المطاف أنها مصدر لقوة جديدة.

وينبغى ألا يغيب عن أنظارنا احتمال حدوث هزيمة فرنسية، لأنى أرى أن الموقف العسكرى " لحلفائنا "، على امتداد السنوات الأربعين الماضية، لم يصل إلى أسوأ مما هو عليه الآن فى المستعمرات من هذه الناحية، وفى موارد عدوهم التى أصبحت أكبر من ذى قبل، تمثل ضعف المنظومة الفرنسية فى أفريقيا فى قيامها بمحاولة استيعاب السكان الوطنيين، يزاد على ذلك أن قوة هؤلاء السكان العرب هى التى تجعلهم يستوعبون الفكر الفرنسى لفائدتهم وبما ينفعهم، ونحن لسنا على يقين ما إذا كان غزو الجزائر سيؤدى أو لا يؤدى فى يوم من الأيام، إلى تجديد الحيوية السياسية الإسلامية فى ساحل البربر من جديد .

يجب توقع خسارة مطلقة وعاجلة فى أوروبا وغرب آسيا، والمؤكد تماما أن الحكم العثمانى فى هذين المكانين سوف يتوقف فى غضون سنوات قلائل، وسيجرى امتصاص الأراضى الناطقة باللغة التركية المكونة للإمبراطورية، بواسطة جار أو آخر من الجيران الأقوياء الذين يتطلعون إلى امتلاك هذه المناطق منذ زمن طويل، النمسا على سبيل المثال، ينتظر منها فى نهاية القرن الحالى،أن تكون قد تبعثرت على شكل جماعات صغيرة هنا وهناك بين السكان المسيحيين الآخذين فى التزايد، ومنعزلة عن مقر عقيدتها.

تعد إسطنبول مكان تجمع الحج لكل المسلمين الذين يأتون من غرب جبال الأورال، والذين يصلون إلى إسطنبول عن طريق البحر الأسود، ولا يمكن بأى حال من الأحوال، استبدال إسطنبول بأى مركز آخر فى أقصى الجنوب بين الأعراق العربية، التى لا يتعاطفون معها كثيراً، وليست لهم بها علاقة أو صلة

مباشرة-الخليفـة فى مكة أو فى مصـر لا يمكن أن يفعل أى شئ لأولئك الحجاج، يضاف إلى ذلك أن السنة الناطقين باللغة التركية ليست لديهم جامعة مفتوحة لهؤلاء المسلمين غير الجامعة التى فى بخارى، وهم من هذا المنطلق، يجدون أنفسهم فى وضع أسوأ من وضع المغاربة، ومع ذلك فإن هؤلاء المسلمين على المستوى الكونى سيكونون رعايا لأوروبا، وسوف يكون تحللهم الدينى مسألة وقت ليس إلا، وعليه، فأنا أرى أن الإسلام يجب أن يكون مستعدا لتكبد بعض الخسائر لا فى القوة السياسية فى أوروبا وغرب آسيا، وإنما أيضاً فى السكان المسلمين فى الأراضى العثمانية التى امتصتها روسيا، وإذا ما خرج الأتراك العثمانيون فى يوم من الأيام من الدين الإسلامى الذى اعتبرته أوروبا رمزاً لهم على امتداد قرون عدة فإن ذلك سيكون انتقاماً غريباً من جانب التاريخ، ومع أن هذا الثأر أو الانتقام لم يتحقق بعد فإن أطفالنا أو أحفادنا سيعيشون إلى أن يروا ذلك الانتقام يتحقق فى يوم من الأيام.

قد تكون مسألة تأمل مدى امتداد نتائج ذلك التحلل الدينى فى اتجاه الشرق ضربا من ضروب الخيال، وأنا يغلب على الاعتقاد بأن المناطق الشمالية الغربية من بلاد فارس، والتى يسكنها مسلمون من عرق مختلط ويتكلمون اللغة التركية بشكل أساسى وذائبون بين الأرمن المسيحيين، سوف تربط مصيرها بمصير الغرب، وتقبل المسيحية فى نهاية المطاف كدين سائد ومهيمن، لكن إلى الشرق من بحر قزوين، نجد أن الإسلام السنى، على الرغم من الهزة الشديدة التى اعترته، لا يزال متعلقا بالحياة وقد يتمسك بأرضه قرونا عدة.

السياسة الروسية الحالية، وبغض النظر عما يدور حاليا فى أوروبا، أبعد ما يكون عن معاداة الإسلام فى وسط آسيا، والإسلام بوصفه دينا، يحظى بالحماية فى وسط آسيا، ويجرى تشجيعه من قبل الحكومة من خلال أعماله التبشيرية بين القبائل الوثنية فى منطقة الأستبس، وبين البوذيين، الذين يقبلون تعاليم الإسلام على نطاق واسع فى أقصى الشرق، وعليه لم يحدث أى شكل من أشكال الاستعمار المسيحى فى اتجاه الخانات، كما لا يوجد أيضاً أى شكل منسجم ومتجانس من أشكال المسيحية، يزاد على ذلك، أنه

على الرغم من ارتباط وسط آسيا بروابط تعاطفية مع إسطنبول، فإنه لم يكن مطلقا معتمدا عليها من الناحية السياسية أو حتى من الناحية الدينية، وسط آسيا له جامعته الخاصة فى بخارى، التى هى مقر علمى لايزال ذائع الصيت فى كل أنحاء آسيا، كما أن المسلمين السنة الذين يأتون من شرقى بحر قزوين يقصدون بخارى وليس سينت صوفيا، طلبا للدرجات العلمية.

هذا يعنى أن الإسلام، ليس معرضا للخطر المحدق الذى يتعرض له فى الغرب، قد تخسر بخارى استقلالها السياسى، ولكن ليس هناك احتمال، على امتداد أجيال كثيرة قادمة، لتنصيرها، مثلما ينبغى عمله فى إسطنبول، ومن المحتمل أن تصبح بخارى، بعد سقوط إسطنبول، المركز الرئيسى للسنة الأصولية من النوع الحنفى الموجود حاليا، وربما بقيت على هذا الحال زمنا طويلا، بعد أن يكون الإسلام قد تخلى عن المذهب الحنفى، يضاف إلى ذلك، أن عزل بخارى مثل الخانات عن حياة الإسلام العامة، يمكن أن يجعلها لا تمثل سوى السلطة الدينية الحالية لإسطنبول، مما سيجعلها بلا حول ولا طول فى التأثير فى الانسياب العام للفكر الإسلامى، تأثير بخارى يمكن أن يحدث فقط من خلال الهند، ولن يحظى بأى شكل من أشكال الامتياز السياسى، وعليه فالأرجح هو أن تكون بخارى فى المستقبل تابعة وليست متبوعة فى الرأى، وبغير ذلك ستكون العزلة قدرها الوحيد.

لا تزال الشكوك تدور من حول الإسلام الشيعى فى إيران نفسها، على الرغم من تعرض إيران مثل بسائر وسط آسيا للغزو الروسى، فإن الملكية الإيرانية، لا يمكن لها أن تفلت من الخضوع السياسى اللهم إلا إذا حدثت ثورة سريعة وكاملة فى نظامها الداخلى، الإيرانيون الحقيقيون لهم وضع فريد فى آسيا المسلمة، وهذا الوضع الفريد يمكن أن ينقذ الإيرانيين من الضم الكامل، والإيرانيون على العكس من أى عرق من الأعراق الإسلامية فيما عدا العرق العربى وطنيون بشكل واضح تماما، والتركى بصفته غازيا بصورة دائمة، يرفض الاسم " تركى" وينعت نفسه " مسلماً " فى بساطة كاملة، وهذا هو ما تفعله الأعراق الأقل التى غزاها ذلك التركى، الفارسى، هو إيرانى أولا وقبل كل شئ، إلى حد أنه أنشأ لنفسه إسلاما خاصا به، والإيرانى يتباهى بتاريخ وأدب أقدم من الإسلام نفسه، ولم يقتنع بنسيان ذلك

التاريخ، وهذا شئ ينتمى إلى " العصر الجاهلى "، وعليه فإن الإيرانى يخاطر بالروسنة - أو بالتنصر عن طريق الغزو؛ ولما كان الإيرانى من نسيج فكرى أسمى من نسيج الروس، ونظراً أيضاً لأن الغالبية الغالبية العظمى من السكان، أصحاب مواهب وبنى بدنية قوية، فإن الإيرانى يرجع له البقاء على قيد الحياة، إذا لم يستطع تجنب الخضوع السياسى.

قيل لى: إنه يجرى فى الوقت الراهن بذل جهد مضن فى طهران لإعادة تنظيم الإمبراطورية على أساس قيام حكومة على أساس ليبّرالى، وعلى الرغم من أن التعويل على نجاح هذه الحكومة يعد ضربا من ضروب الحماقة، فقد تصيب هذه الجهود شيئا من النجاح، هذا يعنى أن الإسلام فى طهران لن يكون، مثلما هو حاليا فى إسطنبول، عقبة أمام الإصلاح، والسبب فى ذلك أن الشيعة الفارسية مذهب مرن إلى حد بعيد، وعلى العكس من ذلك، يرى البعض أن المذهب الشيعى فى إيران يمكن أن يكون أداة من أدوات الإصلاح الأجتماعى؛ وكما سبق أن قلنا، من الحماقة بمكان التعويل على نجاح هذه الحكومة؛ وهناك أيضاً نقائص أخلاقية محدودة فى الشخصية الفارسية، تعمل على عدم تشجيع المتفرجين والمراقبين، يضاف إلى ذلك، أن الإسلام الشيعى، سواء جرى امتصاص أو استيعاب إيران بواسطة روسيا، لايشكل أهمية تذكر فى المراجعة العامة لمستقبل الإسلام، ويمكن استبعاده من منطلق أنه ليست له علاقة مباشرة بالقضية التى نتناولها.

إذا ماسلمنا باحتمال، لا، بل بيقين، حدوث خسائر سياسية وإقليمية كبيرة فى اتجاه الشمال، وأن تلك الخسائر ستنجم عن الضغط الأوروبى المعادى والعنيف، فهيا بنا نتبين ذلك الذى يمكن أن يتبقى للإسلام على سبيل الإرث الأكيد، وكيف يمكن للتغييرات المنتظرة التأثير على حياة الإسلام بشكل عام، أنا شخصيا، لا أجد فى ذلك سببا لإثارة اليأس بين المسلمين فيما يتعلق باحتمال اقتطاع جزء من منطقتهم الدينية فى الاتجاه الذى سبقت الإشارة إليه، ولا أرى أى سبب مؤكد لفرح أعدائهم بالفكرة التى مفادها أنه بسقوط إسطنبول، فإن الإسلام أيضاً سيكون قد سقط، وأنا على العكس من ذلك، أرى التدمير القادم للسيادة العثمانية، هو واستبعاد الأعراق الشمالية - حتى ولو كان ذلك على حساب مساندتها الدينية - من مجالس المؤمنين، على أنهما يشكلان عنصرا من عناصر الأمل فى المستقبل، وأن هذا العنصر يفوق بكثير الغم والكدر المباشر الذى يمكن أن ينجم عن ضياع السيادة أو خسارة السكان.

ونحن عندما نعلم أن عدد السكان المسلمين الذين سيجرى اقتطاعهم من إجمالى عدد السكان لايمكن أن يزيد فى معظم الأحيان على عشرين مليون مسلم، وعندما نتذكر أيضاً أن هذا الرق لا يزيدعلى عُشر إجمالى عدد المسلمين، وأن تلك النسبة آخذة فى التناقص بصورة مستمرة، سيتضح لنا عدم وجود أسباب للنظر إلى هذه الخسارة باعتبارها خسارة فادحة للدين، لا تزال الأعراق الشمالية تضفى على الإسلام مظهر القوة الطبيعية؛ لكن هذا ليس سوى مظهر فى واقع الأمر؛ وهذا المظهر يجرى إخفاؤه عن الإسلام على حساب حيويته الفكرية، لقد أدى نجاح الأتراك السياسى إلى إبعاد الإسلام طوال بضعة قرون عن توازنه الأخلاقى، وعليه فإن اختفاء الأتراك وعدم ظهورهم فى المجالس العليا سيجعل وزنا لأعراق أخرى هى أكثر جدارة بتمثيل المصالح الدينية، سوف تحل القاهرة أو مكة محل إسطنبول، وسوف يحل العرب محل التتار- هذا التبادل، إذا ما درس فكريا، لن يندم عليه أحد من محبى الإسلام.

سوف تترتب على سقوط إسطنبول نتيجة مهمة، أعتقد أنها ستكون مفيدة، ستضفى هذه النتيجة المهمة على الإسلام طابعا دينيا أكثر تميزا ووضوحا مما كان عليه على امتداد قرون كثيرة؛ هذا الطابع سيجبر المؤمنين على الاعتماد على الأسلحة الروحية وليس على الأسلحة الدنيوية، وهذا بحد ذاته سيعيد إلى المؤمنين، وبشكل أكبر من أى انتصار من الانتصارات السياسية، حياتهم الأخلاقية الضائعة، وأنا أعتقد، بعيدا عن الاعتبارات العرقية التى بين الأتراك والعرب، أن سقوط الإمبراطورية الإسلامية، بوصفها ممتلكاً دنيوياً كبيراً، يمكن أن يخفف عن الإسلام عبء السيادة الذى لم يعد الإسلام قادرا على تحمله فى مواجهة العالم الحديث، سيحاول الإسلام التخلص من وصمة التفسخ والفساد السياسى الملصقة به فى الوقت الحالى، وسيعمل الإسلام على تبسيط أهدافه وتقويتها، وقد أدليت برأيى الذى مفاده أن المسلمين يجب أن يتطلعوا مستقبلا إلى الجزيرة العربية باعتبارها مركزا لمنظومتهم الدينية، كما أن عودة خلافة المسلمين إلى مكة سيكون لها مغزى أكبر من كونها مجرد تغيير سياسى، ومن الواضح أن إقامة إمبراطورية فى مكة، بالمعنى التى كانت عليه فى إسطنبول، يعد أمرا

مستحيلا؛ يزاد على ذلك أن استعراض الجيوش والعظمة الدنيوية المتمثلة فى القصور المنيفة وجماهير العبيد ستكون كلها أمورا لا محل لها من الأعراب.

خليفة المستقبل، فى أية مدينة من المدن التى يختارها مقرا له، ملكا سيكون روحيا وليس ملكا دنيويا، وستكون سلطته محدودة بقدر قليل من الظروف المادية القائمة، سيعفى الخليفة من عبء الحكم الإقطاعى، ومن ازدراء ومقت جباية الضرائب، وفرض التجنيد على السكان الذين لا يرغبون فيه، ومن الصراع الدائم من أجل الحفاظ على سلطته، والتآمر المستمر على الأمراء الإسلاميين المنافسين، المرجح أن كل هؤلاء سيقبلون عن طيب خاطر السيادة الملكية الاسمية للخليفة الذى لا يتظاهر بالضغط عليهم، يزاد على ذلك أن الولاء الروحى من جانب المؤمنين الأصوليين فى كل مكان سينهال على الخليفة مثلما يحدث للسيادة الإسلامية عندما تخفف من قبضتها، وبذلك يمكن تخفيف ما يسمى بحلم الجامعة الإسلامية، على الرغم من أن ذلك سيكون فى شكل مختلف عن الشكل الذى يقدمه حاليا للمؤمنين السلطان عبد الحميد هو وعلماء إسطنبول.

نحن نصدق تماما أن الإسلام فى شكله الروحى يمكن أن يخفف المزيد من الانتصارات المرموقة عما لو استخدم السلاح، ونصدق أيضاً أن الإسلام سيجعل من نفسه، فى يوم من الأيام، دينا يسود القارة بكاملها، بدأ تقدم الإسلام الأخلاقى مؤخرا فى كل من أرخبيل الملايو، وفى الصين، وفى بلاد التتار، وفى الهند يشجع التصور الذى مفاده أن الإسلام فى ظل الحكم الأجنبى سيتمكن من التماسك والثبات بل بما هو أكبر من ذلك، فى مواجهته لكل منافسيه، وأنه فى حال تحلل البوذية واندحارها، فإن الإسلام وليس المسيحية، سيكون هو الشكل الذى ستجرى عليه عبادة الله سبحانه وتعالى فى المناطق المدارية، ويعد تقدم الإسلام بين سكان الملايو، فى ظل الحكم الهولندى، ظاهرة تدعو إلى الدهشة بكل تأكيد، وإذا ما نظرنا إلى الإسلام فى تقدمه البطئ فى أفريقيا الأستوائية، فإن ذلك يمكن أن يكون عزاء لأولئك المسلمين الذبن يرون فى ضياع ممتلكاتهم الدنيوية فى الشمال دلائل على تحلل الإسلام، وفى حال إذا ما أمكن القيام بإصلاح من ذلك القبيل الذى أشرت إليه فى الفصل السابق، فإن حيوية الارتداد عن الدين سوف

مستحيلا؛ يزاد على ذلك أن استعراض الجيوش والعظمة الدنيوية المتمثلة فى القصور المنيفة وجماهير العبيد ستكون كلها أمورا لا محل لها من الأعراب. سيكون خليفة المستقبل، فى أية مدينة من المدن التى يختارها مقرا له، ملكا روحيا وليس ملكا دنيويا، وستكون سلطته محدودة بقدر قليل من الظروف المادية القائمة، سيعفى الخليفة من عبء الحكم الإقطاعى، ومن ازدراء ومقت جباية الضرائب، وفرض التجنيد على السكان الذين لا يرغبون فيه، ومن الصراع الدائم من أجل الحفاظ على سلطته، والتآمر المستمر على الأمراء الإسلاميين المنافسين، المرجح أن كل هؤلاء سيقبلون عن طيب خاطر السيادة الملكية الاسمية للخليفة الذى لا يتظاهر بالضغط عليهم، يزاد على ذلك أن الولاء الروحى من جانب المؤمنين الأصوليين فى كل مكان سينهال على الخليفة مثلما يحدث للسيادة الإسلامية عندما تخفف من قبضتها، وبذلك يمكن تخفيف ما يسمى بحلم الجامعة الإسلامية، على الرغم من أن ذلك سيكون فى شكل مختلف عن الشكل الذى يقدمه حاليا للمؤمنين السلطان عبد الحميد هو وعلماء إسطنبول.

نحن نصدق تماما أن الإسلام فى شكله الروحى يمكن أن يخفف المزيد من الانتصارات المرموقة عما لو استخدم السلاح، ونصدق أيضاً أن الإسلام سيجعل من نفسه، فى يوم من الأيام، دينا يسود القارة بكاملها، بدأ تقدم الإسلام الأخلاقى مؤخرا فى كل من أرخبيل الملايو، وفى الصين، وفى بلاد التتار، وفى الهند يشجع التصور الذى مفاده أن الإسلام فى ظل الحكم الأجنبى سيتمكن من التماسك والثبات بل بما هو أكبر من ذلك، فى مواجهته لكل منافسيه، وأنه فى حال تحلل البوذية واندحارها، فإن الإسلام وليس المسيحية، سيكون هو الشكل الذى ستجرى عليه عبادة الله سبحانه وتعالى فى المناطق المدارية، ويعد تقدم الإسلام بين سكان الملايو، فى ظل الحكم الهولندى، ظاهرة تدعو إلى الدهشة بكل تأكيد، وإذا ما نظرنا إلى الإسلام فى تقدمه البطئ فى أفريقيا الأستوائية، فإن ذلك يمكن أن يكون عزاء لأولئك المسلمين الذين يرون فى ضياع ممتلكاتهم الدنيوية فى الشمال دلائل على تحلل الإسلام، وفى حال إذا ما أمكن القيام بإصلاح من ذلك القبيل الذى أشرت إليه فى الفصل السابق، فإن حيوية الارتداد عن الدين سوف

تتضاعف بلا أدنى شك، وبعيد عن أى شرط من شروط الازدهار السياسى فى المقرات القديمة للسيطرة الإسلامية، وعليه، فأنا لا أرى فى الخسائر الأرضية أى دليل على تراجع الإسلام بوصفه قوة أخلاقية فكرية فى العالم.

على كل حال، اعتقد أن الوقت قد حان للكلام عن الدور الخاص الذى ستلعبه إنجلترا فى دراما مستقبل الإسلام، تقف إنجلترا، فى ضوء فهمى لتاريخها فهما حقيقيا، فى اتجاه الإسلام، فى وضع مستقل تماماعن وضع سائر الدول الأوروبية، وقد وصفت الدول الأوروبية الأخرى بأنها مستمرة فى تنفيذ الموروث العدوانى الذى ورثته تلك الدول عن الحروب الصليبية من ناحية، وعن الحروب الضارية التى شنتها الإمبراطوريتان اللاتينية والإغريقية على قوة الأتراك العثمانيين المتنامية، لم تشارك إنجلترا فى تلك الحرب الأخيرة، نظرا لأن مشروعها الدينى كان قد فصلها بالفعل عن المصالح العامة لأوروبا الكاثوليكية، فى الوقت الذى كانت قد انسحبت فيه من الحروب الصليبية فى مرحلة المغامرة الشريفة، الأمر الذى جعل بريطانيا بلا ذكريات منغصة توغر صدرها طلبا للثأر والانتقام، ومن هنا دخلت إنجلترا فى علاقتها الحديثة مع المسلمين بدون أى تحامل عليهم، وقادرة أيضاً على التعامل مع آرائهم السياسية والدينية بروح إنسانية وليبرالية، وساعية إليهم طلبا للمنافع العملية فى مجال التجارة، وليس طلبا للغزو، يزاد على ذلك أن المسلمين لم يسيئوا تقييم الطابع الخاص لموقف بريطانيا منهم.

وعلى الرغم من الخداع الذى جرى فى السنوات الأخيرة فى بعض الأمور، وعلى الرغم أيضاً من التأرجح الذى حدث مؤخرا فى السياسة تجاه الأمم الإسلامية التى لا تزال مستقلة، فإن هذه الدول ترى فى إنجلترا شيئا مختلفا عن سائر العالم المسيحى، شيئا ليس فى طبيعته عداء للأمم الإسلامية، أو تغاض عن حقوق هذه الأمم وعن مصالحها، هذه الأمم الإسلامية المستقلة تعرف فى أضعف الأحوال، أن ليس هناك ما يخيفها من إنجلترا فيما يتعلق بالتسامح الدينى، بل إن بعض هذه الأمم الإسلامية المستقلة تغلب عليها المبالغة فى مسألة التعاطف معها من منطلق التسليم بأن هناك مجموعة من التعقيدات المشتركة التى تنظر إليها هذه الأمم بعين الأهمية، من ذلك مثلا، تلك الفكرة التى تشيع بين الجهلة فى كثير من البلدان الإسلامية، والتى

مفادها أن إنجلترا موحدون Mwahedden وذلك تمييزاً لهم عن سائر المسيحيين، الذين يدينهم المسلمون بأنهم مشركون؛ وهم يفسرون التحالف التركى من هذا المنطلق أيضاً، ويدعم الأتراك هذا التفسير بالفكرة التى مفادها أن إنجلترا نفسها جزء من الإسلام، ولهذا فهى حليف طبيعى[1] للإسلام، هذه هى مجرد أفكار عند العامة أو الجهلة من المسلمين، ومع ذلك تمثل هذه الأفكار حقيقة لها أهميتها، التى تتمثل فى قبول المسلمين للنفوذ الإنجليزى على أنه نفوذ صديق وليس معادياً، وأن السعى إلى طلب حمايتها لا يكون محفوفا بالشكوك التى تدور حول المواقف الودية من جانب الدول الأخرى، وفى الهند نفسها، التى اقتلع الإنجليز المسلمين فيها من دولاب الحكم، نجد - على حد علمى - أن الإحساس تجاه الحكم البريطانى لا يتسم بالعداء، بالمقارنة مع قطاعات المجتمع الهندى الأخرى.

واقع الأمر أن مسلمى دلهى ومسلمى البنجاب، يودون بلا أدنى شك، استئناف السلطة العملية من البلد الذى كانوا هم حكامه مؤخراً؛ لكنهم يعون أنهم لم يبلغوا من القوة الحد الذى يمكنهم من ذلك، كما أن إحساسهم تجاه الحكم الإنجليزى أقل غضاضة من إحساسهم تجاه الهندوس، الذين كانوا من قبل رعايا لهم، ولكنهم أصبحوا الآن منافسين لهم، هؤلاء المسلمون إن جرت حماية مصالحهم الدينية بأى شكل من الأشكال، من قبل الحكومة الهندية، فأنا على يقين من أنهم لن يكونوا مجرد رعايا راضين وقانعين، بل رعايا ناشطين أيضاً.

وعليه، وفى ضوء ما آلت إليه الأمور الآن، أرى أن من الطبيعى، فى حال الانهيار العام الذى سيعقب سقوط إسطنبول، أن تتطلع مختلف الأمم الإسلامية إلى بريطانيا بصفة خاصة طلبا لتوجهاتها فيما يتعلق بحل مشكلاتها السياسية، وهنا ستبرز مكانة إنجلترا فى دور المستشار الحامى أيضاً، سيؤدى اختفاء السلطان العثمانى إلى عدم وجود سيادة Sovereignty إسلامية فى العالم، وسوف تصبح لسكان الهند المسلمين، وهم الأغنى والأكثر عددا فى الوقت الحالى، أهمية كبيرة فى مجالس المؤمنين، وسوف ينتظر الناس من التاج البريطانى تبرير انتحاله

١ - يعتقد العرب أن بنى غسان، تلك القبيلة البدوية المسيحية التى عارضت الخليفة عمر بن الخطاب، هاجرت إلى بريطانيا العظمى، عندما غزا الإسلام سوريا.

اللقب الإسلامى القديم الخاص بالمغول، وذلك من خلال جعل نفسه بشكل أو آخر الرئاسة السياسية للإسلام، وسوف يترك لصاحبة الجلالة سيادتها الملكية الكاملة، وستكون على اتصال بمستشاريها، إذا ما أرادوا ممارسة نفوذ كبير على الشئون الملكية، أنا لا أقول إن هؤلاء المستشارين سيكونون ميالين إلى ذلك التأثير، لكنهم ستكون لهم السلطة وسوف تتاح لهم الفرصة بشكل لم تحصل عليه من قبل أية حكومة مسيحية، فى توجيه الفكر الإسلامى فى كل أنحاء العالم، والاستفادة من أكبر قوة دينية فى آسيا فى الأغراض الإنسانية وفى التقدم، وأنا شخصيا على قناعة تامة من أن مستقبل ممتلكاتها فى الهند، سوف يعتمد بصورة أساسية على قبول أو رفض هذه المهمة، ومعها أيضاً الحل الكامل لمشكلة تمدين جنوب آسيا التى خلقتها لنفسها.

ولعلنا نتطرق الآن إلى حال علاقتنا الفعلية مع الإسلام، ومدى حسن النية تجاهنا فى آسيا، وقد عثرت فى جريدة هنترز حازتير Hunter s على الأرقم التالية:

## تعداد المسلمين فى الهند

| | |
|---|---|
| البنغال | ١٩,٥٥٣,٨٣١ |
| آسام | ١,١٠٤,٦٠١ |
| المقاطعات الشمالية الغربية | ٤,١٨٩,٣٤٨ |
| أحمير | ٤٧,٣١٠ |
| أوض | ١,١٩٧,٧٢٤ |
| البنجاب | ٩,٣٣٧,٦٨٥ |
| المقاطعات الوسطى | ٢٣٣,٢٧٤ |
| بيرار | ١٥٤,٩٥١ |
| ميسور | ٢٠٨,٩٩١ |
| كورج | ١١,٣٠٤ |
| بورما البريطانية | ٩٩,٨٤٦ |
| مدراس | ١,٨٥٧,٨٥٧ |
| بومباى | ٢,٧٨٠,٤٥٠ |
| الإجمالى | ٤٠,٨٦٧,١٤٥ |

هذه الأرقام كبيرة إذا ما أخذناها فى حد ذاتها؛ لكن واقع الأمر أن هذه الأرقام تمثل شيئاً أكبر من ظاهرها، ونحن إن أردنا فهم هذه الأرقام وقيمتها الحقيقية يجب ألا يغيب عنا ما يلى:

أولا: إن عدد السكان المسلمين آخذ فى التزايد، لا من حيث الأعداد وإنما من حيث نسبة هؤلاء السكان إلى عدد الأعراق والملل الأخرى التى فى شبه الجزيرة الهندية، وأنا على يقين من أن هذه الحقيقة سوف تظهر بشكل واضح عندما تذاع أو تنشر نتائج تعداد العام ١٨٨١، ثانيا: إن التوزيع الجغرافى لهؤلاء السكان يتفق تماما مع الحياة السياسية والطاقة السياسية فى البلاد، والبنجاب هى ومقاطعات الشمال الغربى وحدهما يحتويان على عدد إجمالى من السكان يقدر بنحو ثلاثة عشر مليون مسلم، ثالثاً: إن السكان المسلمين متجانسون بشكل لا مثيل له فى الطوائف الهندية الأخرى، وعلى الرغم من أن عدد السكان المسلمين لا يصل إلى ثلث إجمالى عدد السكان الهنود، فإن عدد السكان المسلمين يشكل قطاعا هو الأكثر ترابطا من بين قطاعات السكان الهنود الأخرى، ومن هنا يشكل السكان المسلمون فى الهند أكبر جسم من أجسام الرأى العام فى الإمبراطورية، رابعاً: السكان الهنود المسلمون هم أكثر السكان استنارة وتعليما، السكان المسلمون فى الهند يشكلون القطاع الوحيد من المجتمع الهندى، الذى يعرف تاريخه حق المعرفة، ويحافظ على تقاليد وموروث أهميته السياسية الضائعة؛ وإذا كان القطاع السكانى المسلم فى الهند قد عزل نفسه عن منافسة الأعراق الأخرى فى الخدمة العامة، فإن ذلك من قبيل الكبرياء وليس من قبيل العجز، يزاد على ذلك أن المسلمين الذين دخلوا الخدمة الحكومية هم رجال ذوو طاقات وقدرات متميزة، أخيرا، السكان المسلمون فى الهند ليسوا جسما منعزلا، لكنهم على اتصال وثيق بسائر السكان، إخوانهم المسلمين، فى كل أنحاء العالم، من هنا يمكن القول : إن السكان المسلمين فى الهند يشكلون قطاعا استثنائيا وكبيرا فى الوقت ذاته.

يتمثل اهتمامنا الثانى بالإسلام فى مصر نفسها، مصر هى التى تقف على أعتاب تجارتنا مع الشرق، وفيها أيضاً جالية كبيرة أخرى كلها تقريبا من المسلمين، ونحن متعهدون إلى حد ما برفاه هذا المجتمع، الذى نرى أن

مستقبله السياسى مرتبط بمستقبلنا السياسى، ونحن على حق عندما نقول: إن عداء مصر لنا سيكون أمرا مستحيلا بالنسبة إلى موقفنا؛ يزاد على ذلك أن العداء الدينى فى القاهرة، اذا ما جرت السيطرة عليه عن طريق الاحتلال العسكرى، يمكن أن يكون منغصاً مهدداً مستمرا لنا، ويجب ألا نسلم أن مصر، شأنها شأن ساحل البربر سوف تغير طابعها الدينى، عندما تقع بين يدى أى محتل كائنا من كان، سكان الدلتا فى مصر من النوع المجد جداً ومن النوع الواعى جداً ويرضون بالقليل جداً، الأمر الذى يجعلهم لا يخشون المنافسة فى الزراعة من الإيطاليين، واليونانيين أو المالطيين؛ يزاد على ذلك أن ظروف الحياة فى الشمس المحرقة سيحمى مصر دوما من أن تصبح مستعمرة أوروبية، واقع الأمر أن الأجانب قد يستطيعون اجتياح بعض البلدان، لكن قلب مصر سيظل بلا تغيير، ومصر شأنها شأن الهند سترفض تشكيل نفسها طبقا لأى منظومة من منظومات الحضارة الأجنبية، هذا يعنى أن الإسلام سيظل بلا مساس فى مصر، وستظل نية ذلك الإسلام الحسنة ضرورة من ضرورياتنا [1] .

يتمثل الاهتمام البريطانى الثالث بالإسلام فى تركيا الآسيوية، هذا الاهتمام أصبح مضمونا بناء على المعاهدة التى أبرمت بشأن عدم العدوان الأجنبى: وعلى الرغم من أن تعهدنا هو للسلطان شخصيا، وليس لشعب الأمبراطورية، وعلى الرغم من ارتباط ذلك التعهد بالاستحالة وارتباطه أيضاً بالإصلاح الإدارى، ومن ثم لا يكون ملزما تماما، فمن المستحيل الهرب من الاعتراف بأن علينا التزاما أخلاقيا تجاه المسلمين فى كل من آسيا الصغرى وسوريا، لكن لم يتضح بعد مدى قدرتنا على الوفاء بذلك الالتزام، وأنا شخصيا لا أتوقع المزيد من التدخل من جانب إنجلترا فى الدفاع عن الأراضى الناطقة باللغة التركية، هذه الأراضى، بحكم موقعها الجغرافى، تقع خارج نطاق سيطرتنا العسكرية الفاعلة، وقد تحتم الضرورة علينا تراجعا مشينا عن التزاماتنا .

---

١ - بدات بعد ان كتبت هذه المقالات، تظهر فى مصر دلائل مدهشة على حيوية سياسية، وقد تجلت هذه الدلائل لاوروبا كلها، وانا لا اشك ولو للحظة واحدة، أن مصر ستترك لتحل مشكلاتها وتحصل على خلاصها بطريقتها الخاصة، وهذه الظاهرة ترسم للخيال مشهداً كبيراً يستحق التعليق، لكن المؤلف يود ان يلفت الأنظار إلى هذه الحقيقة وأن تؤخذ مأخذ الجد فى الحسبان اكثر من الامور الاخرى كلها.

وأنا أجد صعوبة فى تفهم مسألة قيام جيش إنجليزى بحماية آسيا الصغرى أو بلاد الرافدين حماية فاعلة من الغزو الروسى، لقد أدى احتلال روسيا لمنطقة كارس Kars [1] إلى تولى زمام قيادة كل من نهر دجلة ونهر الفرات ومعهما أرمينيا، وكردستان، والعراق، الأمر الذى يجعل حمايتنا لا تتعدى الساحل البحرى فى آسيا الصغرى والخليج الفارسى، هذا النوع من العجز لا ينطبق على سوريا، هناك، فى سوريا، نستطيع الوفاء بالتزاماتنا بالتأكيد، ولما كانت سوريا عبارة عن مجرد شريط من ساحل البحر، له ظهير صحراوى يمكن الهجوم عليه من الشمال، على امتداد حدود ضيقة يصل طولها إلى بضع مئات من الأكيال المترية، فإنهايسهل الدفاع عنها بواسطة أمة تملك زمام البحار، الأرجح أن خطاً حديدياً يمتد من خليج الإسكندرونة إلى نهر الفرات وتدعمه قلعة واحدة مهمة ربما يكفى لتوفير الأمن العسكرى المطلوب لسوريا لسنوات كثيرة فى أضعف الأحوال؛ وبذلك تكون سوريا قد أعطت ذلك الخط فرصة الحكم الذاتى، وعوضتنا أيضاً عن المصائب التى كان لنا فيها نصيب وافر، لكن هذه المسألة، أو المصلحة تتعلق بالشرف أكثر منه بالضرورة السياسية الإنجليزية؛ كما أن من سيعول من بين الإنجليز، فى الوقت الحالى، على الدوافع التى من هذا القبيل فى تحديد عمل الحكومة يتعين عليه أن يكون صاحب ذهن متفائل، وإذا ما حدث غير ذلك، فسيكون من الواضح أن نجاح محمية من هذا القبيل سوف يعتمد بشكل أساسى على العنصر الإسلامى فى سوريا، الذى ترجح كفته على الأمور الأخرى.

الاهتمام الرابع، هو أيضاً اهتمام أخلاقى، لكنه مرتبط بحقيقة واقعة من حقائق السياسة الإنجليزية، ويتمثل فى محاولة إلغاء تجارة الرقيق الأفريقية، وعليه. وعلى الرغم من أن مسألة سماح الإسلام بتجارة الرقيق أمر لا يأتيه الشك من أمامه أو من خلفه، وإنه لا يزال وإلى الآن يشجع هذه التجارة باعتبارها حالة طبيعية من حالات المجتمع الإنسانى، فإن إلغاء هذه التجارة لا يمكن أن يتحقق بدون تعاون من قبل مختلف الأمراء المسلمين فى الساحلين الأفريقى والعربى، ولما كانت قرى البحر الأحمر كلها خالية من احتلال الحاميات الأوروبية، ولما كان الشئ نفسه ينطبق على المنطقة الممتدة من

1- كارس: منطقة فى الشمال الشرقى فى تركيا، فى زمان الإمبراطورية العثمانية (المترجم)

جنوبى كردفان إلى موزمبيق، أو لما كانت كل الدول الإسلامية المستقلة فى الجزيرة العربية والأماكن الأخرى لم يجر إخضاعها، فإن النهاية الحقيقية، أو بالأحرى الموقف الحقيقى لهذه التجارة لا يمكن أن يتحقق إلا من خلال التعاون من جانب المسلمين أنفسهم، واقع الأمر، أن هذه الضرورة جرى الاعتراف بها وإقرارها فى العديد من المعاهدات والترتيبات التى جرت مع سلاطين تركيا، وزنزبار، وعمان، ومع الحاكم المناب فى مصر؛ وعلى الرغم من بعدى كل البعد عن القول إن هذه الترتيبات كلها تطوعية، أو بالأحرى عن طيب خاطر، من جانب أى أمير من الأمراء، فإن مجرد حسن النية من جانب هؤلاء الأمراء كفيل بإنجاح القضاء على تجارة الرقيق، وأفضل مثال على ذلك يتمثل فى موقف الحكومة التركية نفسها، التى رخصت وسمحت، بعد شجارها مع الإنجليز، بممارسة هذه التجارة فى البحر الأحمر، والإنجليز ليست لديهم الوسائل الكافية لمنع هذه التجارة بأى حال من الأحوال.

إن عدد العبيد الذين جرى استيرادهم وجلبهم إلى الحجاز خلال الثمانية عشر شهرا الماضية لم يسبق له مثيل، وسوف تستمر تجارة العبيد إلى أن تقام علاقات ودية مع الباب العالى، أو السلطة، أيا كانت، التى ستخلف الباب العالى فى تلك المقاطعات، وأنا شخصيا لا أتعاطف تماما مع الأفكار المضادة لتجارة الرقيق بالشكل التى تجرى عليه فى الأراضى الإسلامية، لأنى أعرف حق المعرفة مدى السماحة ومدى نفع الحالة الاجتماعية للزنوج فى هذه الأراضى، ولكنى مازلت أتمنى وقف العبودية، وأنا أرى أن موقفا حازما ولكن وديا مع المسلمين يمكن أن ينهى هذه التجارة تماما خلال عقدين من الزمان، وسوف يؤدى الشقاق مع المسلمين إلى إطالة أمد وتفاقم هذه التجارة.

أخيرا، قد نجد مصلحة مرتقبة لإنجلترا فى احتمال دخول الكفار فى الإسلام خلال فترة غير بعيدة، وامتداد الإسلام إلى حدود بريطانيا فى جنوب أفريقيا، من السابق لأوانه أن ننزعج من هذه المسألة، لأنها عبارة عن احتمال لا يمكن أن يحدث إبان حياة من هم على قيد الحياة الآن؛ لكن الإسلام ليس له ملة أو نحلة[1] حتى يمكن أن ينتهى فى أفريقيا فى غضون قرن أو قرنين من الزمان، والأهم من ذلك أن الإسلام تجاوز خط الاستواء إلى حد بعيد فى الوقت الحالى، ويصل عدد المسلمين فى مستعمرة الكاب (رأس الرجاء الصالح ) إلى خمسة عشر ألف مسلم.

١- الملة او النحلة تطلق على غير دين الإسلام.

من هنا، وفى ظل هذه الأسباب كلها، قد يكون من الصعب على إنجلترا التحالف، وهى تتعامل مع الإسلام، مع ما يمكن أن نطلق عليه اسم الدول الصليبية فى أوروبا، موقف إنجلترا واضح ومميز عن موقف هذه الدول، كما أن مصالح إنجلترا لا أنف ولا سالف لها بين الدول المسيحية، باستثناء الهولنديين، ولقد سمحت إنجلترا، ولا أعرف إن كان ذلك خيرا أم شرا، بدخول عدد كبير من المسلمين ضمن نسيجها الاجتماعى، وتعاقدت معهم على اتفاقات لا يمكن الرجوع عنها، وترتب على ذلك أن إنجلترا أصبح مستحيلا عليها العمل ضد المسلمين، وقد يندم الإنجليز على ذلك لكونهم مسيحيين؛ لكنهم من الناحية العلمية، يتعين عليهم أن يكونوا حكماء فى الإقرار بهذه الحقيقة، والتسليم بما تنطوى عليه من تفاصيل، يزاد على ذلك أن هؤلاء المسلمين لا يمكن تسريحهم تنفيذا لسياسة غير فعالة، يجب أن تكون إنجلترا مستعدة لتأكيد ما هو أكثر من نظرية عامة للتسامح والمساواة بين كل الأديان فيما يتعلق بالدين الإسلامى، الدين الإسلامى ليس مجرد رأى؛ وجود هذا الدين يتطلب وجود مؤسسة سياسية محددة، ومنطقة جغرافية محددة؛ ويزاد على ذلك أن الدين الإسلامى عبارة عن قوة لا يمكن أن تظل محايدة - وهذا يعنى أنه قد يكون صديقا أو عدوا، وعدم عمل أى شىء للمسلمين خلال السنوات العشر القادمة يعنى مناصبتهم العداء أو رفع قضية عليهم، يزاد على ذلك أن ظروف قضية المسلمين لا تقر اللامبالاه، وبذلك يكونون يقتربون من أزمة سيكونون فيها- من ناحيتين- بحاجة إلى حماية سياسية نشطة، هذا يعنى أنه سوف يتعين المحافظة عليها فى شكل عالمى وليس فى شكل إمبراطورى: ولما كانت بريطانيا عاجزة عن تحقيق ذلك للمسلمين، ولما كانت عاجزة أيضاً عن تأمين حرية الدخول لهم إلى مكة بصفتهم حجاجاً، فإن تظاهرها بحماية مصالح المسلمين، أو القيام بأى دور تجاههم يعد مضيعة للوقت، وهنا لا يمكن القطع بأن نظرية المساواة الدينية يمكن أن تعانى من تحقيق العدالة السياسية مع المسلمين.

وعليه، وبعد انهيار الإمبراطورية العثمانية، أو بالأحرى فى حال حدوث ذلك، فإن دور إنجلترا فيما يتعلق بالإسلام يتجلى بصورة واضحة، هذا يعنى أن الخلافة - التى لم تعد بعد إمبراطورية، ولكنها لاتزال سيادة مستقلة - لابد أن تكون تحت الحماية البريطانية، ولابد أيضاً من ضمان وجودها السياسى على

المستوى الشعبى، فضلاً على عدم إزعاج الخلافة بالمزيد من الغزو من جانب أوروبا، هذا النوع من الضمان لا يمكن إعطاؤه أو توفيره من ناحية البسفور، نظرا لوجود الخلافة فى وضع يصعب الدفاع عنه، إنجلترا قوة بحرية، ومقر الخلافة لابد أن يكون فى مكان مؤمن من الهجوم البرى من جميع الأجناب، وهنا سوف يتحتم على المسلمين، وبخاصة مسلمى الهند، أن يقرروا المكان الذى يجب أن تكون فيه عاصمتهم الدينية الجديدة، وستكمن شروط خيارهم فى نطاق الحدود الضيقة للأراضى الإسلامية التى لاتزال تتمتع بالاستقلال، وإن قدر لسوريا أن تبقى مستقلة، فذلك يعنى أن العاصمة الدينية الجديدة ستكون فى دمشق؛ وإذا ما بقيت العراق مستقلة فقد تكون هذه العاصمة فى بغداد؛ أو قد تكون فى مصر أو الجزيرة العربية أو وسط آسيا.

يزاد على ذلك، وهو أمر واضح تماما، أنه فيما يتعلق بالحماية البريطانية من أوروبا، أن هذه الحماية كلما بعدت عن العالم المسيحى أصبحت أيسر وأسهل من خلال البحر، كنت قد عبرت عن رأيى الشخصى الذى مفاده أن هذا التحرك، إن حدث، فإنه ينبغى أن يكون فى اتجاه الجنوب، ليصل إلى الجزيرة العربية فى نهاية المطاف، وربما تكون المرحلة الأولى من ذلك التحرك إلى القاهرة ولن تتجاوزها، لقد وصلت الخلافة إلى إسطنبول عن طريق مصر، وربما تعود من الطريق نفسه، وقد ظهرت منذ وقت قصير جداً، دلائل حديثة تماما تدل على المضى فى ذلك المسار، ويجب ألا يغيب عنا أن الأحداث التى وقعت فى مصر فى العام الماضى لها مغزاها فى هذا الصدد، فهذه هى المرة الأولى فى تاريخ مصر الحديث، يقوم فيها حزب وطنى قوى على ضفاف النيل، وقد حظى ذلك الحزب بتأييد كامل من علماء الأزهر، الذين يشكلون فى الوقت الحالى أقوى هيئات الرأى الدينى فى الإسلام، علماء الأزهر معادون للسلطان على الصعيد السياسى، وعلى الرغم من أن هؤلاء العلماء ليس لديهم فى الوقت الراهن متسع للتبرؤ من لقب الخلافة الذى يحمله السلطان، فنحن لا نرجح إخلاصهم لحظوظه العاثرة، وأنهم سيقومون بتنصيب خليفة جديد بعد انهيار إسطنبول مباشرة، قد تطالب أسرة محمد على بذلك الحق، إذا ما ذاع صيتها، وقد يكون الخليفة سيدا أو شريفا من الأشراف، من أشراف البيت القرشى، وفى كل الأحوال فإن احتمال قيام خلافة فى القاهرة أمر قائم ويتعين علينا التفكير فية بصورة جادة؛ وستكون

تلك الخلافة تحت التوجيه السياسى والحماية الوحيدة من جانب بريطانيا، لكنها سوف تتمتع بسيادة كاملة، وربما تكون بمثابة حل مناسب لمشكلة المسلمين وفى صالح المصالح البريطانية، على كل حال، فأنا أرى أن مسألة الخلافة هذه ستكون مجرد إجراء مؤقت، وليست تسوية دائمة، والسبب فى ذلك هو تشابك المصالح الأجنبية فى مصر، وهو أمر سيضع السيادة الإسلامية فى مصر تحت ضوابط ثقيلة على المغزى الدينى للمسلمين، وسيكون ذلك مجرد مقدمة لصورة الخلافة بصفة نهائية إلى الجزيرة العربية، التى سيحدد فكرها وليس فكر غيرها، مصير الخلافة، هذا يعنى أن شريف مكة لن يطيق المزيد من الخضوع لأمير مؤمنين مجرد من المزايا الأساسية للسلطة، وربما كان عاجزاً عن فرض سلطته، هذا يعنى أن الخلافة أن آجلا أو عاجلا، ستعود إلى مقرها الأصلى، لتجد فيه مستقرها الأخير.

وإذا ما تأسست الخلافة واستقرت فى مكة فإن مهمة حمايتنا رئاسة الدين الإسلامى ستكون أسهل نسبياً، والحجاز من الناحية العسكرية ليس فى متناول الأوروبيين عن طريق البر؛ ومكة نفسها إذا ما أمكن فى أى وقت من الأوقات إعطاء الخليفة حامية من القوات المسلحة، تصبح على بعد مسير ليلة واحدة من شاطئ البحر، يزاد على ذلك أن الحقوق المسيحية فى مكة ليست بحاجة إلى مبررات ولا وجود أصلا لهذه الحقوق، ولا يمكن لأية قوة من القوى الأوروبية رفع لواء مزاعم التدخل، أما اليمن وهى المقاطعة الوحيدة القادرة على جذب الانتباه الأوروبى، فهى على حد علمى ستقبل عن طيب خاطر، أن تكون محمية إنجليزية، مثلما حدث فى عُمان وأسفر عن نتائج طيبة؛ وبالإمكان أيضاً إعلان أن المناطق الأخرى من شاطئ الجزيرة العربية محرمة ولا يجوز انتهاكها، واقع الأمر أن الجزيرة العربية يمكن الإعلان عنها بأنها منطقة الخلافة التى تحميها دولة أخرى Stati Pontificali. Appanage، أى المكان المقدس لرئاسة الدين الإسلامى وينبغى ألا نتدخل فى التنظيم الداخلى لهذه الرئاسة؛ وينبغى ألا تكلفنا حماية هذه الرئاسة من الخارج أية أعباء مالية.

أوضحنا مدى صلاحية العمل الذى يمكن أن تقوم به الخلافة العربية على أساس من الفكر التقدمى فى الإسلام، وأوضحنا أيضاً أن هذه الخلافة لا يمكن أن تكون قوة معادية لإنجلترا وأوضحنا أيضاً أن الخلافة سواء أكانت أم لم تكن

فى مكة، فإن الشريفية الكبرى Grand Sherifate يتحتم وجودها فى مكة بصورة دائمة ويتحتم أيضاً استمرار الحج؛ وتطلعت إلى أن يكون الحج تحت رعاية إنجليزية، وأوضحنا أيضاً أن قواعد الحج، إنما تشكل فى واقع الأمر، جزءا عاجلا وضروريا من مهمتنا وشرطا من شروط نفوذنا فى العالم الإسلامى؛ وأوضحت أن من الخطأ تجاهل هذه القواعد، ولعل الجدول الذى أوردته فى الفصل الأول أن الحج كله تقريبا يأتى إلى الجزيرة العربية عن طريق البحر، وأن أكبر عدد من الحجاج الذين يأتون إلى الجزيرة العربية هم أصلا من المناطق التى تسيطر عليها بريطانيا، وعليه، ومع نظام المحميات فى المستقبل فى مصر، ولعل ذلك يكون أيضاً فى سوريا، سوف تصبح إنجلترا فى مركز يسمح لها بنفوذ كبير فى المصير التجارى للمدن المقدسة.

يقدر الدخل الذى يحصل عليه الحجاز من الحج بنحو ثلاثة ملايين جنيه إنجليزى، وهذا الرقم تثبته الزيادة السنوية للواردات عن الصادرات فى موانئ الحجاز البحرية، والسبب فى ذلك أن الحجاز لاينتج أى شئ، كما أن تبنى إنجلترا لهذا الدخل، وربما ثلثه سيؤدى إلى ثبات وضع بريطانيا تماما هناك، تحريم الحج أو حتى مجرد التهديد بذلك حتى ولو لعام واحد، سيكون له تأثيره على كل المحافظين فى الحجاز ويمكن أن يؤدى إلى تحييد عداء الخلفاء أو الأشراف العنيدين المقيمين هناك؛ هذا بالإضافة إلى التطوير المنظم للحج، من منطلق أن ذلك من مهام الحكومة، وذلك عن طريق إنشاء خط حديدى من جدة إلى مكة، وإنشاء خطوط ملاحية منتظمة تماما من الموانئ الإسلامية إلى ميناء جدة؛ وهذه أمور يمكن أن تسدد تكلفتها كلها وتضيف كل عام نفوذا جديدا للنفوذ الإنجليزى القائم هناك، هذه الفكرة يمكن تعزيزها بإجراء بسيط يتمثل فى جمع وإرسال الدخل الناجم عن الأوقاف الخاصة بالأشراف فى الهند، ويقدر الدخل الذى يأتى من هذه الأوقاف بنحو نصف مليون جنيه إسترلينى، وقد يأخذ كما هو الحال فى تركيا، شكل الإعانة الحكومية، هذا الدخل يجرى فى الوقت الحاضر جمعه بطرق خاصة، ويصل منقوصا إلى الأشراف، على حد ما سمعت، بنحو ثلثى قيمته، وذلك من خلال عملية الجمع، وعليه فإن تسليم السلطات الهندية بالشرعية الكاملة لعملية الجمع هذه، يمكن أن يؤدى إلى وضع مبلغ كبير فى أيدى أصحاب السلطة فى مكة، ونسبة كبيرة من السلطة فى أيدى أولئك الذين يقومون بجمع

هذا الدخل، وهذا فى واقع الأمر لن يزيد على ما هو معمول به فعلا من قبل حكومتنا، فى الأضرحة الشيعية فى كل من كربلاء ومشهد على، وهو الأمر الذى يزيد شعبية الإنجليز ونفوذهم زيادة كبيرة.

وفيما يتعلق بالحج، أجدنى أخاطر هنا بإيراد رأى واحد من كبار وأبرز المسلمين المخلصين فى الهند، الذى كان يساند ويدافع عن مطالب إخوانه فى الدين، والتى يطلبون فيها من الحكومة الهندية حماية الحج وبعض الأمور الأخرى، قال هذا الرجل وهو يتحدث عن مشروعات السلطان عبد الحميد الإسلامية، والتى يؤكد أنها لم تحظ بعد بقبول كبير فى الهند: " على كل حال اسمحوا لى أن أضيف أن أفضل الوسائل وأكثرها فعالية، والتى يمكن استخدامها فى نشر وإذاعة الأفكار التى من هذا القبيل، أو إثارة الرغبة فى الوحدة الإسلامية، تتمثل فى توزيع كتيبات على الحجاج فى مكة حول هذه الأمور، الحج إلى مكة كل عام يجذب إليه أكثر العناصر تدينا فى سائر أنحاء الهند، وهؤلاء الحجاج عندما يعودون يعاملون باحترام كبير ويزورهم أصدقاؤهم وجيرانهم، الذين يسألون بطبيعة الحال، عن آخر الأخبار فى المدن المقدسة؛ ونتيجة لذلك فإن أفضل طرق لنشر آراء هؤلاء الحجاج، تتمثل فى قيام العاملين فى مجال الدعاية بوضع هؤلاء الحجاج داخل إطار نفوذهم، وأنا أصف هذه الطريقة بالفعالة أو المؤثرة من منطلق أن الأثر المترتب على ما يقوله الحجاج يصل إلى آخر قرى المفسيل Mofussil فى الهند"، وهو يدافع بعد ذلك، عن نفوذ مضاد، يتمثل فى تولى الحكومة مسألة نقل الحجاج إلى جدة، وتعيين مندوب، أحد مواطنى الهند، للسهر على مصالح الحجاج أثناء وجودهم فى الأرض المقدسة، وينهى الرجل حديثه بقوله: " إن الحكومة الإنجليزية إذا قامت بتنفيذ وعمل الترتيبات التى نوهت عنها، لن تجنى فقط حسن نية كل السكان المسلمين فى الهند، ولكنها ستوحى للحجاج أيضاً بإحساس سليم مفاده أنهم مدينون بالولاء وبوسعهم طلب الحماية من إمبراطورية غير الإمبراطورية التى يعد سكان الجزيرة العربية رعايا لها (الإمبراطورية التركية).

هذا هو على وجه التقريب خط العمل الذى يمكن أن تسير عليه إنجلترا، فى مراعاتها لمصالحها، خلال القرن المقبل، ويتعين عليها أن تكون هذه هى البداية، يجب أن تقر إنجلترا وتعترف أن مصالحها الآسيوية تتمثل فى توفير السلام

والأمن للهند المسلمة، وحسن النية فى مصر، والنمو الصحى السليم للفكر الإنسانى الإسلامى فى كل مكان؛ وبوسع إنجلترا تأمين ذلك كله بتبوء المكانة التى هيأتها لها العناية الإلهية، فى قيادة العالم الإسلامى فى تقدمه صوب الأفضل، هذه المهمة كبيرة، وتستحق القبول بها، كما أن الوسائل التى تحت تصرف إنجلترا تكفى تماما لاضطلاعها بهذه المهمة، ولن يكون رفض إنجلترا الاضطلاع بهذه المهمة خلواً من الخطر المحدق، والسبب فى ذلك أن العالم الإسلامى صحا صحوة لم تحدث من قبل فى تاريخه وأصبح يعى الأخطار السياسية والأخلاقية المحدقة به، وهو يبحث حوله عن زعيم، إيا كان اسمه أو أمة أيا كان اسمها، تتبنى قضيته، ونحن لا نشك ولو للحظة واحدة أن مركز توجيه هذه القوة الضخمة إذا ما تخلت عنه إنجلترا، سوف يتولاه جار أكثر عزما وتصميماً.

تعتبر الإمبراطورية البريطانية فى آسيا سبباً من أسباب حقد العالم بشكل كبير، وازدهار هذه الإمبراطورية له أعداء كُثر، وأنهم سوف يجعلون من القلق الإسلامى أداة يستعملونها ضد هذه الإمبراطورية، وإذا ما أهملت إنجلترا أولئك المسلمين الهنود الذين يعدونها مسئولة عن حماية مصلحتهم فإنهم سوف ينقلبون ويصبحون أعدى أعدائها، وعلى الرغم من أنهم قد يعجزون عن التعبير عن ذلك العداء على الفور، فإن يوم الحرج قادم بكل تأكيد، وعندها ستتاح لهم فرصة التعبير عن ذلك العداء والتنفيس عنه، عداء الإسلام، فى أفضل الأحوال سيجعل حلم مصالحة سكان الهند مع نظام حكمنا أمراً مستحيلاً، سوف يبحث سكان الهند عن زعماء لهم فى أماكن أخرى - ربما فى روسيا، ربما فى المانيا، أو حتى فرنسا، التى تغار من مصالحنا فى مصر - زعماء لايعملون لمصلحتهم مثلما كنا نفعل، وانما للإضرار بنا، وتنفيذا لمخططاتهم الخاصة، الخلافة سلاح صنع لكل الأيدى - فهو يصلح ليدى روسيا فى بغداد، ويصلح ليدى فرنسا فى دمشق، أو لهولندا (سمها ألمانيا فى يوم من الأيام) لحساب مصلحتنا فى مكة، حماية الخلافة بواسطة أى من هذه الدول قد يجعل موقفنا لايطاق فى الهند، الأمر الذى سيزيد علينا إحساس المسلمين بالمرارة، التى نتذوقها حاليا فى مؤامرات الحركة الإسلامية الدائرة حاليا فى إسطنبول.

نكتفى بهذا القدر من القياس، الذى هو فى المقام الأول، متسم بالأنانية ولايستحق الاهتمام، الهدف الرئيسى من وراء ذلك كله، هو أن إنجلترا يتحتم

عليها أن تكون أهلاً للثقة التى حصلت عليها وقبلتها هى، فى تطوير وليس تدمير عناصر الخير الموجودة حاليا فى آسيا، إنجلترا لاتستطيع ولا يمكن لها القضاء على الإسلام، ولايمكن لها أيضاً أن تلغى أو تتخلى عن علاقتها بالإسلام، وعليه، وباسم الله يجب أن تمسك إنجلترا بيد الإسلام وتشجعه بإمعان على المضى فى طريق الفضيلة، وهذا هو المسار الوحيد الجدير بالاهتمام، بل إنه هو الطريق الحكيم الوحيد، ولن أبالغ إن قلت هو الطريق الأعقل والأجدر، وأؤكد من جديد أن هذا أفضل من قرن كامل من الحروب الصليبية.

ختاما أود أن أقول للمسلمين إننى إذا كنت قد رسمت صورة كئيبة لطوالعهم السياسية العاجلة، فليس معنى ذلك أننى أحس باليأس إزاء هذه الطوالع، يبدو أن زمان إمبراطوريتهم قد ولى فى هذا العالم، لكن فجر حكمهم لأنفسهم سيطلع من جديد على الرغم من احتمال تغير الظروف التى نشهدها الآن، أتوقع للمسلمين أن يكون لهم الميراث الروحى فى كل من إفريقيا وجنوب آسيا، ونظرا لأن ذكاء الأعراق التى سيدخلونها فى الإسلام، سيكون قد ارتفع إلى مستوى حكامهم الحاليين، ونظراً لأن أوروبا ستكون قد سئمت عملها وكلّت منه، فإن المسلمين سيتخلون عن مهمة الحكم فى كل من أفريقيا وآسيا، وسوف يتخلون أيضاً عن الميراث الدنيوى أيضاً، ونحن لا نعرف إلى متى سيتأخر ذلك، لقد أخبر نبى الإسلام أن الإسلام لن يتعدى ألفى عام قبل مجئ المُهدى[1] Mohdy، وهذا هو القرن الثالث عشر قد بدأ بالفعل؛ وأنا لا أعتقد أن خلاص المسلمين سوف يتأخر طويلا. قد يجئ "رجل عادل" ويعيد إليهم حظوظهم؛ لكن ذلك لن يكون باستعمال العنف الحالى، أو عن طريق الوصول إلى مكة من خلال بحار من الدماء؛ وعندما يعين موعد إنهاء مهانة المسلمين ستكون مهمة المهدى الحقيقية قد بدأت، وأن المعركة التى كان يتعين عليه خوضها كانت تستعر منذ وقت طويل فى قلوب أولئك الذين جاهدوا بغية إصلاح طرقهم وأساليبهم وتنقية قوانينهم، بدلا من الحزن على سلطتهم الكبيرة، والتوافه الفاسدة فى إمبراطوريتهم الدنيوية.

# المحتويات


| الموضوع | صفحة |
| --- | --- |
| مقدمة الترجمة | ٥ |
| تصدير | ٢٥ |
| **الفصل الأول** | |
| تعداد العالم الإسلامى | ٢٩ |
| **الفصل الثانى** | |
| مسألة الخلافة الحديثة | ٥٩ |
| **الفصل الثالث** | |
| العاصمة الحقيقية - مكة | ٨٥ |
| **الفصل الرابع** | |
| الإصلاح الإسلامى | ١١١ |
| **الفصل الخامس** | |
| اهتمام إنجلترا بالإسلام | ١٣٧ |



طبع بمطابع دار الجمهورية للصحافة

رقم الإيداع : ١٧٥٥٢ / ٢٠١٠

الترقيم الدولى : I.S.B.N -977-236-746-7

## هذا الكتاب

يقول سكاون بلنت مؤلف هذا الكتاب: ليس من السهل على الذهن الإنجليزى الصريح، ونحن ندرس مستقبل الإسلام أن يهرب من الاعتراف الذى مفاده أنه على الرغم من أهداف الجدل كلها، فمن حق الدين الإسلامى الحصول على الشرف والفضل الذى ننسبه للأديان الحقيقية طويلة الحيوية؛ وإذا كنا نحن نعترف ونقر بالحيوية الأبدية للمسيحية، فلربما أقنعنا ذلك بتصديق الحقيقة التى مفادها أن الإسلام أيضاً وليس أى شئ آخر يثبت رسوخه فى الذهن العربى.

لم يكن الإسلام فى أبسط صوره سوى تجديد توكيدى لعقيدة الساميين الأزلية، يزاد على ذلك أن الحجج العلمية الحديثة لن تؤثر على عقيدة الجزيرة العربية التى مفادها أن الله (سبحانه وتعالى) تكلم فى أزمان مختلفة وفى أماكن مختلفة إلى الإنسان على لسان الأنبياء؛ وأن محمداً (صلى الله عليه وسلم) سيكون هو دوما الأبرز من بين هؤلاء الأنبياء لأنه هو أكثر الأنبياء أهلية بشكل واضح، يزاد على ذلك أن القانون الإسلامى - وأنا هنا لا أتكلم عن الشريعة كما هى معروفة لنا الآن - سيظل قانونا للمسلمين؛ لأنه عبارة عن تجسيد لعاداتهم وأعرافهم وتقاليدهم، كما أن التنظيم السياسى للإسلام هو بنفس تنظيم المسلمين، لأن هذا التنظيم السياسى مؤسس على ممارسة معاصرة

(كتاب الجمهورية)

الثمن ١٠ جنيهات